



الأدب العربي في مصر

من الفتح الإسلامي إلى الفاطميين

892.709

Ha554adA

الموقوف على الوطن
٢٩٥

تأليف

عبد الرزاق حميدة

ملشزم الطبع والنشر

مكتبة الأنجلو المصرية

١٦٥ شارع محمد بك فريد (عماد الدين سابقا)

مطبعة لجنة البيان العربي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

جاء العرب إلى مصر فاتحين ، ثم وفدوا عليها مقيمين ، فعلا شأنهم بها ، وانتشر دينهم ولغتهم فيها ؛ وعرف أدبهم طريقه إليها . فجاءها زائراً ، أو نشأ فيها وليداً وحاول أن ينمو ويحيا حياة طيبة ، حتى يضارع غيره من الآداب العربية في البلاد الأخرى .

وبقيت البلاد تابعة للحجاز أو الشام أو العراق بعد الفتح ثلاث مئتين وأربعين من السنين ، حتى جاءها الفاطميون سنة ٣٥٨ هـ فأصبح استقلالها تاماً ، وسيادتها في شئونها كاملة .

وكان أدبها قبل الطولونيين ضعيفاً ، والعناية به قليلة ، ورجاله مغمورين ، إلا في فترات متباعدة كان يزدهر فيها بنجوم تلمع في آفاقه من الشرق ، مثل نصيب وابن قيس الرقيات وأبي نواس وأبي تمام والمتنبي .

وكان هذا الأدب الزائر ، في جملة ، خاصاً بالمدح والهجاء . وما تأثر شعراؤه بالبلاد إلا قليلاً . ولكنه على الرغم من ذلك صار جزءاً من أدبها ، لأنه نشأ فيها أو ارتحل به منشئوه إليها ، وقيل من أجلها ، فلا يذكره ذاكر إلا متصلاً بها ، ولا يتحدث عنه متحدث إلا نسبته إليها باعتبار الباعث عليه ؛ وإن عد رجاله في أدباء بلادهم الأولى : فنصيب شاعر حجازي لا مصري ، وأبو نواس عراقي من بغداد جاء إلى مصر زائراً ، وكثير غيرها كذلك . ولكنه لا يمكن

أن نفعل رحلتهم إلى مصر وأثرها في أدبهم .
أما الأدب الذي أنشأه بعض الأدباء من أهل البلاد والمقيمين فيها فقليل ،
وكثير منه ضعيف .

ولكنه استطاع ، على الرغم من هذا الضعف ، أن يثبت وجوده واستقلاله في
أكثر من ناحية ، وعلى الأخص ناحية الموضوعات التي طرقها ، وأرى من مظاهر
هذا الاستقلال أنه تبع تاريخ البلاد فكان سجلاً لكثير من حوادثها ، وكانت
فيه صور صادقة لأحوالها وعاداتها .

وإذا قارناه بأدب الشرق والغرب تخلف وراءها كثيراً إلى منتصف القرن
الثالث ؛ فإن أدب الحجاز والشام والعراق كان أقوى منه ، وأعلى منزلة . وكان أدب
الأندلس أرق أسلوباً وأوضح بياناً ، ورجاله أكثر عدداً . أما مصر التي كانت ملتقى
الشرق والغرب ، وكان من حقها أن تكون واسطة العقد ، فلم تصل إلى منزلة
مذكورة في هذا الزمن .

وأغلب الظن أن وجود الخلافة في الشرق طول هذا الزمن هياً لأدبه مكان
الضدادة ، وأن استقلال الأندلس (من سنة ١٤١ هـ) ، وقيام خلافة أموية بها تعادى
العباسيين سياسياً ، وتنافسهم علمياً وأدبياً ، نهض أيضاً بالأندلس . وقد أتاحت
هذه الفرصة لمصر عندما استقل بها ابن طولون ثم الإخشيديون .

هذا الأدب الوطني الذي نبت في البلاد قليلاً أو هزيراً شيئاً فشيئاً حتى
استوى على سوقه أدبا مصرياً مستقلاً متنوع عوامله الفعالة في تكوينه ، ويستمد
كثيراً من وحيه من البلاد التي نشأ فيها ؛ وإن كان لا ينسى أنه أدب عربي
له من قيود اللغة ، وماضى الأدب ، وتقليد الأدباء أو مجاراتهم في البلاد العربية ،
ما يقربه من الآداب العربية الأخرى كأدب الشام والعراق والأندلس . وكان
للمرحلة بين هذه الأقطار آثارها في ذلك .

ويجد الباحث في هذا « الأدب العربي بمصر » مجالاً للقول ، وفرصة للحديث منذ أن صحب الفاتحين الأولين .

وقد زاد الاهتمام بهذا الأدب في كل عصوره ، وانصرفت جهود كثيرة إلى الكتابة فيه وإلقاء المحاضرات عنه ، وإنشاء الكراسي الجامعية من أجله ، وأذكر من الكتب القيمة في العصر الأول كتاب « أدب مصر الإسلامية » للدكتور محمد كامل حسين ، فقد نفعتني قراءته . وإن كنت تخيرت طريقاً آخر . وهذه محاولة أتكلم فيها عن هذا الأدب ، في الزمن الذي خضعت فيه مصر للخلافة الإسلامية في الشرق .

والله ولي التوفيق .

القاهرة | يونيو سنة ١٩٥١
| رمضان سنة ١٣٧٠

عبد الرزاق حميدة

الفصل الأول

الفتح الإسلامي لمصر

معرفة العرب بها :

كان العرب يعرفون مصر من قديم الزمان ويتبادلون معها التجارة ، وكانت جيوش المصريين تحتاح شمال الجزيرة العربية في حروبها المتعددة في الشام وما وراءها فتعلم شيئاً عن هذه البلاد وأهلها وتعود منها بأسرى ، وكانت بعض الأمم الآسيوية تغزو مصر ، وتعرف طريقها بهذه البلاد ، وتستعين بأبنائها في غزواتها لمصر ، ومن هؤلاء أمة الفرس التي غزت مصر في عهد قبيلز سنة ٥٢٥ ق . م ، وفي أواخر الدولة الرومانية سنة ٦١٧ م . وقد يستقر بها بعض هؤلاء العرب الذين يخيئون أسرى أو مع الغزاة ، وقد يرجعون إلى قومهم فيحدثونهم بما رأوا وما علموا عن مصر ، ومن المؤرخين من يجعل ملوك الهكسوس (الرعاة) عرباً ، وقد حكموا البلاد زمناً قبل الميلاد بخمسة عشر قرناً ، بل إن زنوبيا ملكة تدمر قد غزت هذه البلاد سنة ٢٦٨ م وقاومها الرومان ، ولكنها هزمتهم ، وحكمت البلاد عامين ثم أخرجوها منها .

وصلة النسب بين مصر والعرب موجودة من قديم ؛ فقد تزوج إبراهيم الخليل عليه السلام هاجر ، فولدت له إسماعيل عليه السلام ، وذهب بها إلى الحجاز فأسكنها^(١) هي وابنها بواد غير ذي زرع ، ودعا الله أن يجعل أفئدة من الناس

(١) النجوم الزاهرة ص ٢٣ ، ص ٢٩ .

تهوى إليهم . فاستجاب الله دعاءه وبارك في ذريته ، وكانت العرب المستعربة من نسل إسماعيل عليه السلام .

والقرآن الكريم قص على العرب شيئاً من تاريخ مصر ، في قصة يوسف وفي قصة موسى عليهما السلام ، فعرفوا في عهد الرسول بعض تاريخها القديم من مصدر سماوى . وعرفوا أن التجارة كانت متصلة بين الشام ومصر في عهد يوسف عليه السلام كما كانت في غيره من العهود ، وأن السيارة وجدته فأسروه بضاعة ، وشروه بثمن بخس دراهم معدودة ، وقال الذى اشتراه من مصر لامرأته أكرمى مثواه ، وعرفوا أن « فرعونَ علا في الأرض وجعل أهلها شيعاً » و « استكبر هو وجنوده في الأرض بغير الحق » ، « ونادى فرعون في قومه قال : يا قوم أليس لى مُلكُ مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي » ، إلى غير ذلك من الأخبار التى حدثهم بها القرآن الكريم .

وكانوا يستوردون القباطى من مصر قبيل الإسلام وهى ثياب رقيقة من الكتان تنسب إلى قبط مصر ، وقيل إنهم كتبوا عليها المعلقات^(١) .

وأشهر ما كان من اتصال في مبدأ الإسلام : أن النبي صلى الله عليه وسلم أرسل إلى المقوقس ، عظيم القبط في مصر ، كتاباً مع حاطب بن أبى بلتعنة سنة ست من الهجرة ، وهو :

« بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله إلى المقوقس عظيم القبط : سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد . فإني أدعوك بدعاية الإسلام ، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، فإن توليت فإنما عليك إثم القبط ، يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ، ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله . فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » .

ولم يسلم المقوقس ، ولكنه رد على النبي صلى الله عليه وسلم يقول^(١) :
 « أما بعد فقد قرأت كتابك ، وفهمت ما ذكرت فيه ، وقد علمت أن نبياً
 بقى ، وكنت أظن أنه يخرج بالشام ، وقد أكرمت رُسُلك ، وبعثت إليك
 بجاريتين لهما مقام فى القبط عظيم ، وبكسوة ، وأهديت إليك بغلة لتركبها ،
 والسلام » .

وكانت إحدى الجاريتين مارية القبطية ، التى تزوجها النبي صلى الله عليه وسلم
 وولدت له ابنة إبراهيم عليه السلام ، ومات^(٢) سنة ٦٣٣ م فلم تشهد فتح
 العرب لمصر .

وروى أن النبي صلى الله عليه وسلم تنبأ بفتح العرب لمصر وأوصى الفاتحين
 بأهلها خيراً ، فإن لهم ذمة ورحمها .

وهناك قصة رواها الكندى^(٣) والمقرئى عن قدوم عمرو بن العاص إلى مصر
 فى الجاهلية ، واشترأكه فى حفل سنوى خاص بأولاد الذوات ، ووقعت فى حجره
 كرة مخصوصة ، وكان من وقعت فى حجره يحكم البلاد يوماً من الأيام ، وسوف
 نذكرها عند الكلام على القصص .

وهذه القصة الأدبية الطريفة لها دلالتها على وجود الصلة بين العرب ومصر .
 وهى صلة طبيعية كانت تسمح بها — أو تفرضها — ظروف الجوار ، وشهرة مصر
 فيما جاورها من البلاد بالخصب والثروة والحبوب والصناعة . فلما فتح الله للمسلمين
 بيت المقدس فكر عمرو بن العاص فى فتح مصر . كى ترفرف عليها راية الإسلام ،
 كما ررفت من قبل فى الشام .

(١) صبح الأعشى ج ٦ ص ٤٦٧ — وهناك صورة أخرى للرد فى الصفحة نفسها يظهر
 المقوقس فيها حسن استعداده للإيمان ، وحسن ظنه بالرسول .

(٢) فتح العرب لمصر ص ١٢٦ عن حسن المحاضرة ج ١ ص ٤٣ .

(٣) الولاة ص ٦ وفى خطط المقرئى ج ١ ص ١٥٨ .

مسير عمرو إليها :

يحدثنا المؤرخون أن عمرو بن العاص كان صاحب الفكرة في فتح مصر لسابق معرفته بها ، وأنه قد وصفها لأمير المؤمنين عمر رضى الله عنه ، وحده عن ثروتها وسهولة غزوها . وأن عمر وافق على ذلك ^(١) ، وأرسله في أربعة آلاف مقاتل ، وقال له : « سيأتيك كتابي سريعاً إن شاء الله تعالى ؛ فإن أنت أدركت كتابي أمرتك فيه بالانصراف عن مصر قبل أن تدخلها أو شيئاً من أرضها فانصرف ، وإن أنت دخلتها قبل أن يأتيك كتابي فامض لوجهك ، واستعن بالله ، واستنصره ^(٢) » .

وسار عمرو ففتح البلاد . واختلف المؤرخون في سنة دخوله ، وفي كتاب عمر إليه وفي عدد رجاله ، ولكنهم لم يختلفوا في أنه منفذ تلك الفكرة الجريئة ، وأن الله قد نصر فئته القليلة ، وأيده في خطواته ، وكانت مخوفة بالأخطار . دخل عمرو مصر في أواخر سنة ١٨ هـ ، فسار على بركة الله ، وقاومه الروم في الفرما وبلبيس وأم دنين (عند عين شمس) ، ثم حاصر حصن بابليون ، وأرسل إلى عمر يستمده وخرج إلى الفيوم فلم يفلح في الاستيلاء عليها ، ثم رجع فوجد المدد بقيادة الزبير بن العوام ، فاستطاع أن يحاصر بابليون حصاراً شديداً حتى سلم الحصن ، ثم تقدم إلى الإسكندرية ، وفتح في طريقه إليها عدداً من القرى والمدن ، ثم وصل إليها ففتحها بعد حصار شديد سنة ٢١ هـ .

(١) في الولاية والقضاء للكندي ص ٨ أن عمرو بن العاص تقدم بأصحابه إلى مصر بغير إذن ، فكتب إليه عمر بن الخطاب : « من عمر بن الخطاب إلى العاصي ابن العاصي : أما بعد فإنه بلغني أنك سرت ومن معك إلى مصر وبها جموع الروم ، وإنما معك نفر يسير . ولعمري لو كان نسل أمك ما تقدمت ، فإذا جاءك كتابي هذا فإن لم تسكن بلغت مصر فارجع » . فحمد عمرو ربه لأنه كان جاوز الحدود وصار في مصر .

(٢) حسن المحاضرة ١/ ٤٦ ؛ خطط المقرئ ١ : ٢٨٨ .

وكان في تسليم بابلين والاسكندرية أكبر مشجع للعرب على فتح بقية البلاد؛ وظلت تابعة للخلافة مدة قرنين ونصف من الزمان كانت متأثرة فيها بالجزاز أو الشام أو العراق ، ثم استقل بها أحمد بن طولون وبنوه زمنا (٢٥٤-٢٩٣ هـ) فكانت لها شخصية شبيهة مستقلة في عهد الطولونيين ، ولكنها عادت إلى العباسيين . ثم استقل بها الأخشيديون سنة ٣٢٨ هـ حتى سنة ٣٥٨ هـ . ثم قامت بها خلافة فاطمية تنافس خلافة العباسيين ، وحاضرة تدانى بغداد ثم ترثها . وصارت لها مقوماتها السياسية والأدبية والدينية .

عوامل انتشار اللغة العربية في مصر :

تأثر لسان العرب في مصر بأمرين ساعدا على نشره ، وتعلم الناس له ؛ هذان الأمران هما : الإسلام ، وهجرة القبائل العربية إليها .

أما الأمر الأول وهو الإسلام ، فكان الغاية الأولى من فتح عمرو بن العاص لها ، وكان المسلمون يدعون إلى الإسلام إذا ذهبوا لفتح بلد ، فإذا أبى أهل البلد قبلوا منهم الجزية ، فإذا أبوا قاتلهم حتى يعطوها ؛ وكذلك كان حالهم في مصر . فأسلم كثير ؛ لما في ذلك من مزايا ، كالساواة في الإسلام والإعفاء من الجزية ، وما تحمله من معنى الخضوع والحماية .

« وليس من العدل أن يقول قائل إن كل من أسلم منهم إنما كان يقصد الدنيا وزينتها ، فإنه مما لا شك فيه أن كثيراً منهم أسلم لما كان يطمع فيه من مساواة بالمسلمين الفاتحين ، حتى يكون له ما لهم ، وينجو من دفع الجزية ؛ ولكن هذه المطامع ما كانت لتدفع إلا من كانت عقائدهم غير راسية ، وأما الحقيقة المرة فهي أن كثيرين من أهل الرأي والحصافة قد كرهوا المسيحية لما كان منها من عصيان لصاحبها ؛ إذ عصت ما أمر به المسيح من حب ورجاء في الله ... ومنذ بدا ذلك

لهؤلاء العقلاء لجئوا إلى الإسلام فاعتصموا بأمنه ، واستظلوا بداعته وطمأنينته وبساطته^(١) .

وكان دخول الناس في الإسلام مبكرا ، وكان منهم الروم والقبط وقد أسلم بعض عظماء الروم الملكانيين مثل « ميناس » حاكم مصر السفلى ، و « شنوده » حاكم الريف ، و « فيلوخينوس » حاكم أركاديا (الفيوم)^(٢) .

ومن أقدم من دخل في الإسلام جماعة من القبط ، أخذوا بعد صلح بابليون « يختارون الإسلام ، ويفضلون الدخول فيه على دفع الجزية ؛ فقد رأى هؤلاء أن الإسلام يجعل لهم ما للمسلمين ، وعليهم ما على المسلمين ، ويساويهم بالفاتحين في شرف محلهم ، ويجعلهم إخوانهم في كل شيء ، ويسهم لهم في الفيء ، ولا يفرض عليهم الجزاء ، فكان في ذلك باعث قوى لكثير منهم على الدخول في الإسلام ، لا سيما وقد طحن المقوقس عقيدتهم طحنا ، وحطم يقينهم باضطهاده . وكذلك دخل في الإسلام كثير من الروم ، بعضهم جنود وبعضهم ممن حل في مصر ... وكان هؤلاء المسامة يتظاهرون بأنهم من أشد الناس في أمر الدين ، فيدفعهم ذلك إلى مساعدة إخوانهم العرب المسلمين على استصفاء أموال المسيحيين الذين أخرجتهم الحرب من ديارهم ، وصاروا يستبيحون لهم ، ويصفونهم بأنهم أعداء الله^(٣) .

وأسلم طائفة كبيرة من الأسرى عند مدينة بلهيب ، وقد جاء إلى عمرو وهو يحاصرها رد من الخليفة عمر بإقرار صلح الإسكندرية ، فقرأ عمرو كتاب الخليفة على الناس . وقد جاء فيه أن يخير الأسرى ، فمن رضى الدخول في الإسلام منهم أطلق سراحه ، وصار للمسلمين أخا^(٤) .

وقيل إن عمر بن عبد العزيز كان له وال على مصر كتب إليه يقول : إن

(٢) ص ٣٨٤

(١) فتح العرب لمصر ص ٣١٤

(٤) ص ٣٠٣

(٣) ص ٢٤٣

الإسلام أضر بالجزية حتى لقد نقص عشرون ألف دينار من عطاء أهل الديوان . فكتب إليه عمر بن عبد العزيز كتاباً شديداً قال فيه ^(١) :

« أما بعد فقد بلغنى كتابك . فقد وليتكم جند مصر وأنا عارف بضعفكم ، وقد أمرت رسولى أن يضربكم على رأسك عشرين سوطاً ، فضع الجزية عن أسلم ، قبح الله رأيك . فإن الله إنما بعث محمداً صلى الله عليه وسلم هادياً ، ولم يبعثه جانياً ، ولمعمرى لعمري أشقى من أن يدخل الناس كلهم الإسلام على يديه . »

ويستدل بقر ^(٢) على كثرة من أسلم بتناقص الجزية ، لأنها كانت في عهد عمرو اثني عشر ألف ألف دينار (١٢ مليوناً) وصارت في عهد ابن أبي السرح أربعة عشر ألف ألف دينار (١٤ مليوناً) ، ثم صارت في عهد معاوية خمسة آلاف ألف (٥ ملايين) ، بعد أن أسلم عدد عظيم من القبط ، وصارت في خلافة الرشيد أربعة آلاف ألف (٤ ملايين) .

وهؤلاء دخلوا في الإسلام بلا ضغط ولا إرهاب ، وكان القبط أحراراً في عقيدتهم كما يقول مؤرخ منهم اسمه حنا النقيوسى (وهو لا يتورع عن أن يصف الإسلام بأبشع الأوصاف ويتهم من دخلوا فيه بأشد التهم ^(٣)) ، يقول عن عمرو : ولكنه لم يضع يده على شيء من ملك الكنائس ولم يرتكب شيئاً من الغصب أو النهب .

وخلاصة ما تقدم أن كثيراً من الروم والقبط أسلموا منذ أول الفتح راغبين ، وأن عددهم كان يزداد شيئاً فشيئاً ، وأن إيمانهم بالإسلام كان عظيماً ، وأنهم رحبوا كثيراً من وراء اعتناق الإسلام .

ويترتب على ذلك انتشار اللغة العربية بينهم ، لأنها كانت ضرورة لازمة لفهم

(١) خطط المقرئ ج ١ ص ٧٨

(٢) ص ٣٨٦ المصدر نفسه .

(٣) فتح العرب بأمر ص ٤٠٣

الدين ؛ ومن الأئمة من يجعلها فرضاً في بعض العبادات مثل الخطابة والصلاة . وإذا كان هؤلاء المسلمون كما وصفهم « بشار » ، من رغبة في الإسلام وحب له ، فنتيجة ذلك أن يعكفوا على دراسته ، ووسيلتهم الأولى هي تعلم لغته ، يتعلمونها للتفاهم مع إخوانهم المسلمين ، ويتعلمونها ، ويتعلمها غيرهم من القبط لأنها لغة الفاتحين السادة ، والضرورة تدعو إلى التفاهم معهم .

أما الأمر الثاني المهم في انتشار اللغة العربية بمصر فقد كان نزوح العرب بعد الإسلام من جزيرتهم أفراداً وجماعات إلى هذه البلاد وإقامتهم فيها ، ومخالطتهم لسكانها ، وانتشارهم في البلاد من أقصاها إلى أقصاها^(١) . وخلاصة القول في هذه الهجرات :

١ — أنها ابتدأت منذ الفتح العربي واستمرت بعده قروناً :

جاء في الولاة والقضاة أن عمرو بن العاص قدم مصر بثلاثة آلاف وخمسمائة ، ثلهم من « غافق »^(٢) . وأكثر من ثلث الجند كانوا من « عك »^(٣) .

ثم نزلت همدان بالجيزة وكتب عمرو في شأنهم إلى الخليفة ، فرد عليه أن يجمعهم معه ، فإذا أبوا بني عليهم حصناً ، ففعل ؛ وسكن الجيزة مع همدان نافع وذو أصبح وغيرهم ، وبرزوا إلى أرض الحرث والزرع^(٤) . وفي هجرة بليّ يقول المقرئ :

(١) تشير إلى ذلك كتب الخطط مثل خطط المقرئ في « ذكر نزول العرب مصر واتخاذهم الزرع معاشاً وما كان في نزولهم من الأحداث ج ١ ص ١٢٨ » ومثل كتابه « البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب » وفي « صبح الأعشى » جزء ٣ ص ٣٣١ بيان عن هذه الهجرات من جزيرة العرب واستقرار أهلها في نواحي مصر كما تجد في كتاب « الولاة والقضاة » للسكندی وغيره حديثاً عن هذه القبائل غير مقصود لذاته ، يذكر فيه منازلها في مصر أو مواطنها الأولى في جزيرة العرب ، أو ظروف هجرتها ، أو تنقلها من مكان إلى مكان في البلاد وهكذا .

(٣) فتح العرب ص ١٧٦

(٢) ص ٨

(٤) حسن المحاضرة ج ١ ص ٥٩ وخطط المقرئ — القسطنط

« وبلى قبيل عظيم فيه بطون كثيرة . وكانت بلى بالشام ، فنادى رجل من بلى بالشام بالقضاة ، فبلغ ذلك عمر بن الخطاب رضى الله عنه فكتب إلى عامل الشام أن يُسَيِّر ثلث قضاة إلى مصر ، فنظروا فإذا « بلى » ثلث قضاة ، فسيروا إلى مصر ^(١) ويقول : « وجذام من قدماء عربان مصر قدموا مع عمرو بن العاص ^(٢) » .

ولما عرض المقرزى لقيس قال ^(٣) : « وبنو سليم من قيس . وكان نزول سليم وعدة قبائل من قيس في أرض مصر سنة تسع ومائة ، وأمير مصر إذ ذاك الوليد ابن رفاعه بن خالد بن ثابت الفهمي ، ولم يكن بأرض مصر أحد من قيس قبل ذلك إلا من كان من فَنَهم وعدوان ، فإنهما من قيس في جديلة .

وعن الهيثم بن عدى قال حدثني غير واحد أن عبيد الله بن الحبحاب لما ولاه هشام مصر قال : ما أرى لقيس حظا فيها إلا لناس من جديلة — وهم فهم وعدوان — فكتب إلى هشام : إن أمير المؤمنين أطال الله بقاءه قد شرف هذا الحى من قيس ونَعَشَهم ورفع من ذكركم ، وإنى قدمت مصر ، فلم أر لهم فيها حظا إلا أبياتا من فهم ، وفيها كور ليس فيها أحد ، وليس يضر بأهلها نزولهم معهم ، ولا يكسر ذلك خراجا ؛ وهى بلبيس ، فإن رأى أمير المؤمنين أن ينزلها هذا الحى من قيس فليفعل . فكتب إليه هشام : يترك الأمر إليه ، فبعث إلى البادية ، فقدم عليه مائة أهل بيت من بنى نصر بن معاوية بن بكر بن هوازن ، ومائة أهل بيت من بنى عامر بن صعصعة ، ومائة أهل بيت من هوازن ... فَأَتَهم بلبيس ، وأمرهم بالزرع ، ونظر إلى الصدقة من العشور فصرفها إليهم ، فاشترؤا إبلًا ، فكانوا يحملون الطعام إلى القُنَزم ، فكان الرجل يصيب في الشهر العشرة دنانير وأكثر ، ثم أمرهم باشتراء

(٢) ص ٣٣ البيان والإعراب .

(١) ص ٣٧

(٣) ص ٦٤ البيان والإعراب .

الخيول ، فجعل الذى يشتري المهر لا يملك إلا شهراً حتى يُركب ، وليس عليهم
مئونة فى أعلاف إبلهم ولا خيلهم لجودة مراعيهم .

فلما بلغ ذلك عامة قومهم تحمل إليهم خمسمائة أهل بيت من البادية فكانوا على
مثل ذلك . فأقاموا سنة فأتاهم نحو ألف وخمسمائة أهل بيت من قيس ، حتى إذا كان
زمن مروان بن محمد ، وولى الحوثة بن سهيل الباهلى مصر ، مالت إليه قيس ، فأت
مروان وبها ثلاثة آلاف أهل بيت ، ثم توالدوا . وقدم عليهم من البادية من قدم ،
فأحصوا فى ولاية محمد بن سعيد ، فوجدوا خمسة آلاف ومائتين ، ما بين صغير وكبير .
وبعين زمن قدوم أولاء الكنز فيقول^(١) أصلهم من ربيعة وكانوا ينزلون
اليامة وقدموا أرض مصر فى خلافة المتوكل على الله أعوام بضع وأربعين ومائتين
فى عدد كثير ، وانتشروا فى النواحي ، ونزل طائفة منهم بأعلى الصعيد ، وسكنوا
بيوت الشعر فى براريها الجنوبية وأوديتها . وكانت « البجة » تشن الغارات على
القرى الشرقية فى كل وقت حتى أخبروها ، فقامت ربيعة فى منعهم من ذلك حتى
كفوهم ، ثم تزوجوا منهم واستولوا على معدن الذهب العلاقى ، فكثرت أموالهم
واتسعت أحوالهم ، وصارت لهم مرافق ببلاد « البجة » واختطوا قرية تعرف
بالتامس ، وحفروا بها آباراً .

وسنُبَس من طي ، نزلوا بالبلاد سنة ٤٤٢هـ ، وثعلبة وطائفة من جرم جاءوا
إلى هذه البلاد زمن صلاح الدين . وعدة القبائل التى كانت بمصر عند مجيئ الغز
مع أسد الدين شيركوه كثير^(٢) .

٢ — وترح المهاجرون من أماكن متفرقة فى بلاد العرب . قيس وبلي من
الشام ، ورهط كلب بن عدى من الحجاز ، وقريش من الحجاز من مكة ، والأنصار

(١) البيان والإعراب ص ٤٨

(٢) ص ٣٣

من المدينة ، ولخم وجذام وبنو هلال بن عامر وجهينة من اليمن ^(١) ، وأولاد الكنز أصلهم من اليمامة ^(٢) وهكذا .

٣ — أما منازلهم بأرض مصر فهي كثيرة كذلك ، وتسكاد تشمل البلاد كلها من أسوان إلى البحر الأبيض ، مثل سنيس الذين نزلوا بالبحيرة في ديار بني قرة ^(٣) ، والعمرين الذين نزلوا البرلس ^(٤) ، وجذام الذين سكنوا بالحوف ^(٥) ، وسعود جذام الخمسة الذين نزلوا من منية غمر إلى زفيتا ^(٦) .

ونزل ببلاد الصعيد عدة قبائل من العرب : ففي بلاد أسوان وما تحتها بنو هلال ، وفي بلاد إخميم وما تحتها بلي ، وفي بلاد منفلوط وأسيوط جهينة ، وفي بلاد الأشمونين قريش . وكانت دور بني سهم حول جامع عمرو بن العاص من الفسطاط إلى أن دثرت ^(٧) . وكانت عيذاب لبني يونس من ربيعة ، ملكوها عند قدومهم من اليمامة ، فخرى بينهم وبين بني بشر حروب انهزموا فيها ، ومضوا من عيذاب إلى الحجاز ^(٨) . ثم وقعت حروب بين بني بشر قتل فيها اسحق بن بشر . فأحضروا إليها من بلبيس الشيخ أبا عبد الله محمد بن علي ^(٩) فنزل إلى أسوان وأنشأ مكانه المعروف بساقية شعبان .

وكانت للعرب عدة إقطاعات منها هريبط وتل بسطه وغير ذلك . وكان إقطاع ثعلبة جميعه في مناشير جذام . وإنما السلطان صلاح الدين وسع لثعلبة في بلاد جذام .

ونزل بالصعيد طائفة من الأنصار منهم بنو محمد وبنو عكرمة وديارهم بحري منفلوط .

(١) البيان والإعراب ص ٣٨	(٢) ص ٤٨	(٣) ص ٢٥
(٤) ص ٢٦	(٥) ص ٢٩	(٦) ص ٣٢
(٧) ص ٤٨	(٨) ص ٤٩	(٩) ص ٤٩

٤ — وبعضهم نزل في أكثر من جهة من مصر ، وقد تشمل القرية الواحدة عدداً من البطون : فجدام نزلت في أما كن متفرقة وامتزج من كان منهم مصر بولد زيد ، وهم بحرى الخوف إلى ما يلي أشموم ، وكانت قرارة بنى سعد تل طنبول إلى نوب طريف ، ومنهم بدقدوس ودمريط ، وضواحي القاهرة إلى أطراف الشرقية ، وبالإسكندرية جماعة من لحم وجدام^(١) .

وكان بنو هلال أهل بلاد الصعيد إلى عيذاب . وبأخميم منهم بنو قُرّة ، وبساقية قلته بنو عمرو . وبأصفون وإسنا بنو عقبة وبنو جميلة ، ومن بنى غافق بطن يعرفون بالقرافة ، سكنوا سفح المقطم ثم تركوا أما كنهم . وتفرقوا في البلاد المصرية ، وصار مكانهم مقبرة للمسلمين فسميت المقبرة في مصر بالقرافة ، نسبة إليهم^(٢) . وجهينة نزلت في أما كن متفرقة^(٣) وقرش كذلك .

وبنو الليث من كنانة سكان ساقية قلته وياقيهم فيما يليها^(٤) . وعوف بن سليم في بلاد الصعيد ، وفي الفيوم والبحيرة^(٥) . وفزارة قيس منها جماعة بالصعيد وجماعة بضواحي القاهرة في قليوب وما حولها^(٦) ، ولحم نزلت أما كن متعددة^(٧) وفي الدقهلية والمرتاحية عرب كثيرون وبنو سهم منهم أشتات بالصعيد^(٨) .

٥ — بل إن بعضهم كان يلحق بالقبائل لقلّة عدده ثم تأتي ظروف فيستقلون ؛ يقول الكندى^(٩) :

ولما رأى بشر بن صفوان افتراق قضاة كتب إلى يزيد بن عبد الملك يسأله الإذن له في استخراج من كان منهم في القبائل فيجعلهم دعوة منفردة ، فأذن له

(١) ص ٣٥

(٢) وفيات الأعيان ج ١ ص ٣٣٨ الأدب المصدر الإسلامى ص ١٨

(٣) ص ٣٨ (٤) ص ١٥ (٥) ص ٥٢

(٦) ص ٥٣ (٧) ص ٦١ — ٦١ (٨) ص ٤٧

(٩) ص ٧١ الكندى

يزيد بن عبد الملك بذلك ، فأخرج مهرة من كندة ، وأخرج تنوخا من الأزد ، وأخرج آل كعب بن عدى التنوخى من قريش ، وأخرج جهينة من أهل الراية ، وأخرج خشينا من نخم فجعلهم مع سائر قضاة دعوة منفردة^(١) .

وتدوين بشر هذا هو التدوين الرابع ، لأن الأول تدوين عمرو بن العاص ، والثانى تدوين عمرو بن عبد العزيز ، والثالث تدوين قرة بن شريك ، والرابع هو هذا ، ولم يكن بعد هذا فى الديوان شىء له ذكر إلا ما كان من إلحاق قيس فيه زمن هشام . وأشياء أحدثها المسودة من أرباعهم التى أحدثوها منه^(٢) .

٦ — وأما أعمالهم فى مصر فكانت متعددة ، وأول عملهم كان الحرب والمراطة ، ثم تملكوا وزرعوا ، أو اشتغلوا بغير ذلك .

كأولاد الزبير — رضى الله عنه — صاروا أكثرهم صاحب معاش وأهل زرع وفلاحة وماشية وضرع^(٣) .

٧ — وكانت هناك هجرة من الغرب أيضاً من لواته ، ومن أشهر قبائلها هوارة ، وقد نزلت منازل متفرقة ، فنزل بعضهم بالبحيرة ، ونزل بالصعيد جماعة ، أنزلهم الظاهر سنة ٧٨٢ هـ وذلك أنه أقطع إسماعيل بن مازن ناحية جرجا وكانت خراباً فعمرها وأقام بها^(٤) . وفى المنوفية من لواته وأحلافهم كثير .

كثرة العرب بمصر :

ومما يدل على كثرة العرب بمصر أن أعدادهم كانت كبيرة فى الحوادث والحروب ، فقد جاء عمرو إلى مصر ففتحها بأربعة آلاف ، واستمد أمير المؤمنين عمر

(٢) ص ٧١ الكندى

(١) ص ١٠٢ الكندى

(٤) ص ٦٠

(٣) ص ٤٧

فأمدّه بالزبير بن العوام على اثني عشر ألفاً^(١) وتتابعت الجنود بعد ذلك كلما احتاج إليهم ، وكانوا مرابطين حتى مات عمر رضى الله عنه ، وكان من سياسة عثمان ألا يمنع الناس من تملك الأراضي فاستقر قوم من العرب في مصر ، ولكنهم كانوا بالفسطاط وما حولها والإسكندرية وما يتلوها^(٢) ثم كثرت العرب حتى أن عتبة عقد لعلقة بن يزيد العطيفي على الإسكندرية^(٣) في اثني ألفاً من أهل الديوان يكونون بها رابطة ، فكتب لعلقة « يشكى » قلة من معه من الجند وأنه يتخوف على نفسه وعليهم^(٤) .

وبلغ من قوتهم أن انتصروا على الروم في ذات العواري وهي أول حرب بحرية لهم ، ثم غزوا بعد ذلك في البحر فغزا عتبة بن نافع رودس^(٥) فكم كان عدد جند المسلمين في تلك الغزوات ؟ .

ومن قصيدة عبد الرحمن بن الحكم التي قالها في فتح مروان لمصر ترى أن كثيراً من القبائل كانت بمصر مع عدوه بن حجّدم وإلى مصر لابن الزبير وقد قتل يومئذ خلق كثير من الجانيين ، يقول عبد الرحمن :

وجاشت لنا الأرض من نحوهم بحبيّ تحيّب ومن غافق
وأحياء مذحج والأشعرين وحسير كالحلب المحرق
وسدت معافر أفق البلاد بمرعد جيش لها مبرق^(١)

وفي قتل الأكدر بن حمام على يد مروان يقول الكندي^(٢) : « وتنادي الجند قتل الأكدر ! فلم يبق أحد حتى لبس سلاحه ، فحضر باب مروان منهم .

(١) ص ٩٠٨ الكندي عن ابن وهب عن لبيعة عن يزيد ابن أبي حبيب أن عمرو ابن العاص قد بثلاثة آلاف وخمسمائة نلّهم من غانق ، ثم مد بالزبير بن العوام في اثني عشر ألف .

(٢) البيان للمقرئ ص ٤٧

(٣) الكندي ص ٣٦

(٤) ص ٣٨ الكندي .

(٥) ص ٤٦ .

(٦) خطط المقرئ ج ٢ ص ٨٧

(٧) الولاة والقضاة .

زيادة على ثلاثين ألفاً » وكان الأكدري سيد نخم وشيخها ، فإن كان هذا العدد من أنصاره فهو كثير ، وإن كان من نخم وحدها فهو دليل أقوى على كثرة العرب بمصر ونحن ما زلنا في سنة ٦٥ هـ . ثم إن امرأته كانت معه فهذا دليل الإقامة والاستقرار .

وعبد العزيز بن مروان ينشئ مدينة أخرى غير الفسطاط هي « حلوان » ويحيطها بأبهة الأمانة ، وينزل بها معه كثير من الناس ^(١) .

وأدل من ذلك على كثرة القبائل بمصر ما يرويه الكندي ^(٢) عن كرم عبد العزيز بن مروان قال : وكان لعبد العزيز ألف جفنة كل يوم تنصب حول داره ، وكانت له مائة جفنة يطاف بها على القبائل ، تحمل على العجل إلى قبائل مصر وقد استأذن الحرب يوسف من هشام في أن يبنى الناس في أرض انكشف عنها النيل ليست لمسلم ولا لمعاهد ، وهم مضطرون إليها ، فأذن له في بناء قيسارية هشام ، فابتدأ فيها في رجب سنة ١٠٧ هـ ، وهذا أيضاً دليل الاستقرار والعمل عليه وضيق البلاد بالناس .

وقد انتجع العرب ريف مصر من أول الفتح ^(٣) فكان إذا جاء الربيع تفرق العرب في البلدان فيذهب آل عمرو بن العاص وآل عبد الله بن سعد إلى منوف ووسيم ، وكانت هذيل تذهب إلى بيا وبوصير ، وتذهب عدوان إلى بوصير . وكانت فهم تذهب إلى « إتريب » وعين شمس ومنوف الخ وفي عهد العباسيين في سنة ١٦٧ خرج من الحوف قيس واليمن على موسى بن مصعب ^(٤) ، ونسمع بقيس في ثورات كثيرة بالحوف منها ثورتهم التي أدت إلى مقتل عمير بن الوليد سنة ٢١٤ هـ ^(٥) .

(٢) ص ٥١ .

(١) ص ٤٩ .

(٤) ص ١٢٥ الكندي .

(٣) خطط القرظي ج ٢ ص ٢٦٠ .

(٥) ص ١٨٦ الكندي .

ونسلم بلخ في ثورة الجروى حوالى سنة ٢٠٠ ، وفي ثورة الصوفية
والأندلسيين بالإسكندرية فقد عاضدوا هذين في ثورتهم على عمر بن هلال^(١) ، ثم
فسد أمر نخم والأندلسيين ووقعت بينهم حرب انهزمت فيها نخم^(٢) .

ونسلم بمُدْج تحارب الأندلسيين^(٣) ويُغلبون وينفيهم الأندلسيون من
الإسكندرية ونسلم بهم يمدون القبط بسخا في خروجهم على الجروى سنة ٢٠٢
وفي ثورة على الأفشين سنة ٢١١^(٤) .

ونسلم في هذا التاريخ الطويل بحروب وانتقالات جيوش ، وثورات من
أهل البلاد في أنحاء مختلفة . ويذهب الجند لإخمادها ويقومون بين الناس لحفظ
الأمن ، وقد يتصلون بهم في البيع والشراء ويشاركونهم في الدور والغلات
ويجمعون منهم الخراج والجزية ، ويقضون بينهم بالعدل في الخصومات ، ويحدثونهم
بلسان عربى ، ويخاطبهم هؤلاء بهذا اللسان ، لأنه لسان الدين ، ولسان الحاكمين .
ومما شجع العرب على الاستيطان أو دفعهم إليه دفعا أن المعتصم قطع أعطيائهم
وأسقطهم من الديوان وأرسل بذلك إلى كيدر^(٥) واليه على مصر فتار عليه تحيى بن
الوزير الجروى في جمع من نخم وجذام ، وقال : هذا أمر لا تقوم في أفضل منه
لأنه منعنا حقنا وفيئنا ، فهزمهم مظفر بن كيدر في تنيس سنة ٢١٩ هـ^(٦) .

ونحسن باشتراك المصالح بين القبط والمسلمين ونُصرة بعضهم لبعض ، فقد
نصرت مدج القبط في ثورة سخا سنة ٢٠٢ هـ ، ولما ثار المصريون على المأمون
سنة ٢١٦ هـ كان القبط والمسلمون جنبا إلى جنب^(٧) .

أثر هذه الهجرات في اللغة :

وكان من هذه الهجرات ، والتنقل بين الريف والحضر ، وفي السلم والحرب

(١) ص ١٦٢ الكندى . (٢) ص ١٦٣ (٣) ص ١٦٤

(٤) ص ١٩١ (٥) ص ١٩٣ (٦) ص ١٩٤ (٧) ص ١٩٠

واختلاط القبائل المختلفة اللهجات بعضها ببعض ، وبأهل البلاد مسلمين وغير مسلمين :

١ — أن صارت العربية لغة البلاد في حديثها وأدبها وعلمها ؛ وإذا كانت القبطية ظلت أزماناً تستعمل في بعض الجهات لغة حديث وكتابة وعبادة ، فإن مغالبة العربية لها ، واستعانة هذه بكثرة المهاجرين ، وكثرة من أسلم من أهل البلاد أضعفتها شيئاً فشيئاً حتى خلا الميدان للغة القرآن الكريم . وكانت مزاحمة العربية مبكرة ، فإن ساويرس ابن المقفع كتب كتابه « عن تاريخ حياة البطارقة » حوالى القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) ، وقال في مقدمته التى كتبها بنفسه إنه كان يلجأ إلى بعض القبط ليترجوا له الوثائق اليونانية والقبطية إلى العربية ؛ إذ أن اللغتين المذكورتين كانتا ، حتى عند ذلك الوقت ، غير معروفتين لأكثر المسيحيين ، ومنه يظهر مدى الاضمحلال الذى أصاب اللغتين ^(١) .

والحق أن اليونانية التى كانت لغة علم ودولة ، قد ضعفت بدخول الإسلام مصر ، وإن ظلت مستعملة قليلا في بعض المدارس بالإسكندرية وفى بعض الأديرة الملبكانية .

وأما السريانية فكانت لغة العلم وبخاصة الطب ، وظلت مستعملة حتى جاء عهد العباسيين ، فارتحلت إلى مدارس شمال العراق والشام وفارس وأودعت العربية ذخايرها الأصلية والمنقولة ، وبخاصة ما كان عن اليونانية .

٢ — وحلت بالبلاد لهجات عربية متعددة مع هؤلاء الفارحين تشبه لهجاتهم في موطنهم الأول ، وتأثرت في وطنها الجديد بما جاورها من اللهجات العربية ، وباللغة المحلية التى كانت قبلها في ذلك الوطن . أما مدى تأثرها فيختلف على قدر الاختلاط بغيرها ، وكثرة من يجاورها .

(١) فتح العرب لمصر من ٢٩ — ٣٠

٣ — ولم تتأخر العربية عن استخدام بعض الألفاظ والكلمات المحلية أو اليونانية إذا دعت إليها حاجة ، ولا عن الإكثار من كلمات عربية يكثر مدلولها في مصر مما يتصل بالنيل والخصب والزراعة والحصاد والفيضان والمقاييس والخلجان والترع وغير ذلك .

ثم هؤلاء القوم الذين ورثوا البلاد من بعد أهلها ، وبدلوا دينها ولغتها ، وصاروا أصحاب تاريخها وحضارتها قد مهدوا للأدب العربي سبيلا إليها ، حتى صار الأدب الوحيد فيها بعد حين . وقد تنوعت فنونه ، وتعددت رجاله ، وكثرت الرحلة به ، وعظم الجزاء عليه ، وهذا حديثنا عنه في الفصول التالية .

الفصل الثاني

الخطابة والوصايا في مصر

(١) الخطابة :

كان من الطبيعي أن ينتقل البيان العربي إلى مصر مع الفاتحين ، وأن يكون استخدام هذا البيان بقدر ما تدعو إليه الضرورة أولاً .

وكانت حاجة العرب في أول هذا الفتح شديدة إلى خطابة يثبت بها القائد قلوب جيشه ، ويبعث بها الحمية والإقدام في جنوده ، ويهون بها شأن أعدائهم ، ويدكرهم بما خرجوا من أجله وهو النصر أو الشهادة .

وكانت الجمعة فرصة مواتية يخطب فيها كل أسبوع ، فيتحدث في الشؤون العامة التي تشغلهم ، فإذا دعت الضرورة إلى خطابة في أي وقت آخر كان القائد أو أحد أعوانه أسرع إليها ، وأقدر عليها ، وكانت استجابة الجند وغيرهم سريعة إليها .

وروى أن المسلمين كانوا في يوم الجمعة قد اجتمعوا للصلاة ، فسار بينهم عمرو بن العاص يحرضهم على القتال ، وكان ذلك في أثناء حصار « بابلون » ، فرآهم ربيعة القوم ، وحمل إلى قومه في الحصن خبر اجتماعهم ، فلما انتهى عمرو من خطبته نزل عن منصته الساذجة التي كان يخطب عليها ، وأم المسلمين في الصلاة .

وفي هذا دليل على أن خطبة الجمعة كانت تدور حول ما يشغل المسلمين من أمهم ، وأهم ما كان يشغلهم يومئذ فتح الحصن ، فكانت خطبة عمرو في التحريض على القتال .

وكان قائد الفتح عمرو بن العاص رضي الله عنه ، أول خطباء العرب بهذه الديار وقد كان قائداً منصوراً ، وخطيباً فصيحاً ، ورسولاً معروفاً بالكياسة والدهاء .

وكان له في مصر صفة القائد والحاكم والإمام ، فتنوعت خطابه بين الحرب والسياسة والدين ، وكثرت هذه الخطب وتعددت ، ولكن ما بقى منها قليل إذ كان التدوين قليلا ، وكان حفظ الخطب عسيرا . وإن ما بقى من هذه الخطب يدل دلالة كبيرة على بلاغة قائلها ، ووضوح عقله وصراحته . فتراه في إحدى خطبه يقرر العلاقة بينه وبين أهل البلاد في إيجاز وصراحة .

روى أنه رضى الله عنه خطب مرة على المنبر فقال : « لقد جلست مجلسي هذا في هذا البلد ، وليس لأحد فيه على عهد ولا عقد ، إن شئت قتلت ، وإن شئت سبيت » .

وفي صفات عمرو أنه كان فصيحاً فصاحة جعلت سيدنا عمر رضى الله عنه يذكره لما رأى رجلاً يتعثر في كلامه ، فيقول « أشهد أن خالق هذا وخالق عمرو ابن العاص واحد » ، ومعنى ذلك أن الله خلق الفصيح مثل عمرو : والتمام مثل ذلك الرجل ، وأن عمراً كان معروفاً بهذه الفصاحة حتى كان أقرب من يخطر ببال عمر عندما أراد المقارنة .

ومما يدل على اهتمامه ، واهتمام الناس جميعاً بالقول ، ما ورد عنه بعد فتح الإسكندرية ، فقد أراد أن يرسل معاوية بن حديج إلى الخليفة يبشره ، فطلب منه رسالة مكتوبة : فقال له عمرو : ألسنت امرأ عريباً تقدر على وصف ما شهدته !

خطبة لعمر

وتبدو حكمة فاتح مصر في خطبته التي قالمها في مسجده ، في يوم الجمعة ^(١) ، بعد أن استقرت الأمور .

قام عمرو فحمد الله وأثنى عليه ، وصلى على نبيه ، ثم أمر الناس بالإحسان

(١) حسن المحاضرة ج ١ ص ٥٣ .

والصدقة وطاعة الوالدين : وأمرهم بالقصد ، ونهي عن الإفراط والفضول ، وقد قال فيها :

« يامعشر الناس إياي وخلافاً أربعاً ، فإنها تدعو إلى النَّسَب بعد الراحة ، وإلى الضيق بعد السَّعة ، وإلى الذل بعد العز : إياي وكثرة العيال ، وانخفاض الحال ، وتضييع المال ، والقليل بعد القال ، في غير دَرَك ولا نوال . إنه لا بد من فراغ يؤول المرء إليه في توديع جسمه والتدبير لشأنه ، وتخليته بين نفسه وشهواتها ، فمن صار إلى ذلك فليأخذ بالقصد والنصيب الأقل ، ولا يضيع المرء في فراغه نصيب نفسه من العلم ، فيكون من الخير عاطلاً ، وعن حلال الله وحرامه عادلاً .

يامعشر الناس قد تدلت الجوزاء ، وارتفعت الشَّعْرى ، وأقلعت السماء : وارتفع الوباء ، وقل الندى ، وطاب المرعى ، ووضعت الحوامل ، ودرجت السخائل ، وعلى الراعى حسن النظر ، فَحَسَى بكم على بركة الله إلى ريفكم ، فتناولوا من خيرهِ ولبنه ، وخرافه وصيده ، وَأَرْبَعُوا خيلكم وأسمنوها ، وصونوها وأكرموها ، فإنها جنتكم من عدوكم ، وبها تملون مغانمكم وأنفالكم . واستوصوا بمن جاورتم من القَبْط خيراً ، وإياكم والمسوَّات والمعسولات فإنهن يفسدن الدين ويُقَصِّرْنَ المهم .

حدثني أمير المؤمنين أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن الله سيفتح عليكم بعدى مصر ، فاستوصوا بقبطها خيراً : فإن لكم فيها صهراً وذمة » فكفوا أيديكم وفروجكم : وغضوا أبصاركم .

فلا أعلمنَّ ما أتى رجلٌ آمن جسمه وأهزل فرسه ، واعلموا أنى معترض الخيل كاعتراض الرجال . فمن أهزل فرسه من غير علة حططته من فريسته قدر ذلك . واعلموا أنكم في رباط إلى يوم القيامة ، لكثرة الأعداء حولكم ولإشراف قلوبهم إليكم وإلى داركم ، معدن الزرع والمال والخير الواسع والبركة التامة .

« حدثني عمر أمير المؤمنين أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إذا فتح الله عليكم مصر فاتخذوا فيها جنداً كثيفاً فذلك الجند خير أجناد الأرض » . فقال له أبو بكر : ولم يارسول الله ؟ قال : لأنهم وأزواجهم في رباط إلى يوم القيامة فاحمدوا الله معشر الناس على ما أولاكم ، فتمتعوا في ريفكم ما طاب لكم ، فإذا ببس الزرع ، وسخن العمود ، وكثر الذباب ، وحمض اللبن ، وصَوَّح البقل ، وانقطع الورد من الشجر ، فحى إلى فسطاطكم على بركة الله . ولا يقَدَمَنَّ أحدٌ منكم ذو عيال على عياله إلا ومعه تُحَفَةٌ لعياله على ما أطاق من سَعَتِهِ أوْ عُسْرَتِهِ . أقول قولى هذا وأستَحْفِظُ الله عليكم » . (١)

هذه الخطبة من أطول الخطب التي حفظت لنا من تاريخ الولاية بمصر ، وأشملها ؛ فقد جمعت بين الموعظة والتحذير ، وبين الآداب العامة والخاصة ، ودعت إلى الراحة بعد النصب ، وإلى متابعة العلم في وقت الفراغ ، وإلى تمتع المرء بالشهوات مع القصد والاعتدال .

ثم دعت المخاطبين إلى أن يذهبوا إلى الريف ، وأن يحسنوا الاستمتاع بخيره ، وأن يرعوا خيلهم حق رعايتها . ثم وصاهم عمرو بالقبط خيراً وذكر وصية النبي صلى الله عليه وسلم فيهم . ثم عاد إلى العناية بالخيول ، وما قاله صلى الله عليه وسلم في جند مصر : وأمرهم بعد ذلك بالعودة إلى الفسطاط ومع كل منهم ما قدر ، تحفة لعياله .

وإذا كان هناك ما يؤخذ عليها فهو ترك الكلام قبل أن يكتمل ، والحديث في نقطة ثم العودة إليها ، بعد الكلام في مسألة أخرى ، كالوصية بالقبط والحديث عن الخيل . وهذا اضطراب لا يتفق مع ما عرف به عمرو من حضور البديهة ، ولباقة الحديث . وربما كان جمعها من السنة الرواة عند تدوينها سبباً في هذا القلق البادى فيها

فإذا نظرنا إليها مجزأة وجدنا في معانيها ما يبابه الطبع العربي ، فكيف ينهى عن كثرة العيال والله هو الرزاق . ثم إن العرب يفخرون بكثرة الولادة . وإذا كانت حاجتهم إليها في الجاهلية شديدة فحاجتهم إليها في زمن الفتوح أشد . لكنها كانت في جملتها دستوراً طيباً لو سار عليه العرب لحفظوا لأنفسهم هيبتها ، وغرسوا في قلوب جيرانهم من القبط محبتها ، وأخذوا للطواريء عدتها ، وكان من الطبيعي أن تثير أحداث هذه الفترة روح الخطابة في الجانب الآخر أيضاً ، ومن أشهر خطبائهم « قيرس » المقوقس بطريق المذهب الملكاني ومبعوث الإمبراطور . ومن أشهر خطبه خطبة ألقاها في كنيسة « القيصريون » ، وقد أقيمت فيها صلاة التحية بمناسبة عودة هذا الطريق من القسطنطينية يوم الاحتفال بعيد الصليب . وفي حديث بترل^(١) عن قيرس « إنه رب البيان والبلاغة » وكان موضوع خطبته تذكيراً للناس بجهاد هرقل في سبيل الصليب حتى استرده من الفرس وأقامه في بيت المقدس .

ويرى بترل في هذه الإشارة إلى بيت المقدس غرضاً خفياً ، وهو تذكير السامعين بأن بيت المقدس قد صار الآن في يد المسلمين ، يريد بذلك أن يوهن قلوبهم والمسلمون على أبواب الإسكندرية .

وهناك خطيب آخر من رجال الدين الأقباط وهو البطريق بنيامين الذي ذهب لمقابلة عمرو بعد فتح الإسكندرية فخطب بين يديه « خطبة جليلة » ، وكان عذب المنطق في تؤدة ورزانه ، ولا شك أن عمراً لم يفهم منها حرفاً واحداً كما يقول بترل ، ولكنه عندما عرف ما يقصده ، وفهم مراميها ، أحسن تلقيها وقبولها ، وجعله أميراً على قومه . ولا شك أن خطبة بنيامين قد ترجمت له فعرف منها ما يقصده^(٢) .

(٢) ص ٣٨٤ المصدر نفسه .

(١) فتح العرب لمصر ص ٢٧٢

الصلح بين عمرو والمقوقس:

خرج المقوقس ليلاً من الحصن ، والسلمون محاصرون له ، وعبر النيل إلى جزيرة الروضة ، ثم أرسل إلى عمرو جماعة ، كان منهم أسقف بابليون ، فلقبهم عمرو وأكرمهم ، فأدوا رسالتهم ، فقالوا : « إنكم قد ولجتم في بلادنا وألحتم على قتالنا وطال مقامكم في أرضنا ، وإنما أنتم عصابة يسيرة ، وقد أظلتكم الروم ، وجهزوا إليكم ، ومعهم من العدة والسلاح ، وقد أحاط بكم هذا النيل ، وإنما أنتم أسارى في أيدينا ، فابعثوا إلينا رجلاً منكم نسمع من كلامهم ، فلعله أن يأتي الأمر فيما بيننا وبينكم على ما تحبون ونحب ، وينقطع عنا وعنكم القتال قبل أن تغشاكم جوع الروم ، فلا ينفعنا الكلام ولا تقدر عليه ، ولعلكم أن تندموا إن كان الأمر مخالفاً لطلبكم ورجائكم ، فابعثوا إلينا رجلاً من أصحابكم نعاملهم على ما نرضى نحن وهم به من شيء » .

فلم يبعث عمرو جواب ما أتوا به ، وحبس الرسل عنده يومين حتى يروا حال المسلمين ، إذ أيسح لهم أن يسيروا في العسكر ويروا ما فيه ، ثم بعث عمرو برده مع الرسل وقال : « ليس بيني وبينكم إلا إحدى ثلاث خصال : إما أن دخلتم في الإسلام فكنتم إخواننا : وكان لكم ما لنا ، وإن أبيتُم فأعطيتُم الجزية عن يد وأنتم صاغرون ، وإما أن جاهدناكم بالصبر والقتال حتى يحكم الله بيننا وبينكم ، وهو خير الحاكمين ^(١) .

وعاد الرسل وقد وقع في نفوسهم ما عند العرب من بساطة وإيمان فقالوا : « رأينا قوماً الموت أحب إلى أحدهم من الحياة ، والتواضع أحب إلى أحدهم من الرفعة . ليس لأحدهم في الدنيا رغبة ولا نهمة ، إنما جلوسهم على التراب . وأكلهم على ركبهم ، وأميرهم كواحد منهم ، ما يعرف رفيعهم من وضيعهم ، ولا السيد

منهم من العبد ، وإذا حضرت الصلاة لم يتخلف عنها منهم أحد . يغسلون أطرافهم بالماء ، ويخشمون في صلاتهم » (١)

فأقسم المقوقس : لو أن هؤلاء استقبلوا الجبال لأزالوها ، وما يقوى على هؤلاء أحد ، ولئن لم نقتم صلحهم اليوم وهم محصورون بهذا النيل لم يجيئونا بعد اليوم إذا أمكنتهم الأرض وقووا على الخروج من موضعهم .

وأرسل المقوقس إلى عمرو كي يرسل إليه وفداً للمفاوضة فأرسل إليه جماعة فيهم عبادة بن الصامت ، وكان أسود شديداً ، وأمره أن يكون متكلم القوم ، ولا يجيب الروم إلى شيء دعوه إليه إلا إحدى هذه الخصال الثلاث .

فركب العرب السفن إلى الروضة ، فلما دخل عبادة على المقوقس هابه وقال : « نحوا عني ذلك الأسود وقدموا غيره يكلمني » فقال العرب جميعاً : « إن هذا الأسود أفضلنا رأياً وعلماً ، وهو سيدنا وخيرنا والمقدم علينا ، وإنما رجع جميعاً إلى قوله ورأيه ، وقد أمره الأمير دوننا ، وأمرنا ألا نخالف رأيه وقوله . ثم قالوا ، فكان قولهم عجيباً عند المقوقس : إن الأسود والأبيض سواء عندهم لا يفضل أحد أحداً إلا بفضلته وعقله وليس بلونه ، فدعا المقوقس عبادة أن يتكلم برفق حتى لا يزججه ، فقال له عبادة :

« إن فيمن خلفت من أصحابي ألف رجل أسود ، كلهم أشد سواداً مني ... وإنني ما أهاب مائة رجل من عدوي نو استقبلوني جميعاً ، وكذلك أصحابي ؛ وذلك إنما رغبتنا وهمتنا في الجهاد في الله ، واتباع رضوانه ، وليس غزونا عدونا ممن حارب الله لرغبة في دنيا ، ولا طلب للاستكثار منها ... لأن غاية أحدنا من الدنيا أكلة يأكلها ، يسد بها جوعه ليله ونهاره . وشملة يلتحفها ... لأن نعيم الدنيا ليس بنعيم ، ورخاؤها ليس برخاء . إنما النعيم والرخاء في الآخرة » .

فوقع هذا القول في نفس المقوقس وقال لأصحابه : هل سمعتم مثل كلام هذا الرجل ! إن هذا وأمثاله قد أخرجهم الله لخراب الأرض» ثم أقبل على عبادة فقال : «أيها الرجل الصالح ، قد سمعت مقاتلك وما ذكرت عنك وعن أصحابك ، ولعمري ما بلغتم ما بلغتم إلا بما ذكرت ، وما ظهرتم على من ظهرتم عليه إلا لطلبهم للدنيا ورغبتهم فيها ، وقد توجه إلينا لقتالكم من جمع الروم مما لا يحصى عدده : قوم معروفون بالنجدة والشدة ، ما يبالي أحدهم من لقي ولا من قاتل ، وإنا لنعلم أنكم لن تقدرُوا عليهم ولن تطيقوهم لضعفكم وقلتكم ... ، ونحن تطيب نفوسنا أن نصالحكم على أن نفرض لكل رجل منكم دينارين دينارين ولأميركم مائة دينار ، ونخليفتكم ألف دينار ، فتقبضونها ، ونصرفون إلى بلادكم [قبل أن يغشاكم ما لا قوة لكم به]

فقال عبادة :

« يا هذا ، لا تفرن نفسك ولا أصحابك ، أما ما تخوفنا به من جمع الروم وعددهم وكثرتهم ، وأنا لا نقوى عليهم ، فلعمرى ما كان هذا بالذى تخوفنا به ، وإن كان ما قلتم حقاً فذلك والله أرغب ما يكون في قتالهم ، وأشد لحرصنا عليهم ، لأن ذلك أعذر لنا عند ربنا ، إذا قدمنا عليه ؛ إن قتلنا عن آخرنا كان أمكن لنا في رضوانه وجنته ، وما شيء أقر لأعيننا ولا أحب لنا من ذلك ، وإنا منكم حينئذ لعلى إحدى الحسينين ، إما أن تعظم لنا بذلك غنيمة الدنيا إن ظفرنا بسكم ، أو غنيمة الآخرة إن ظفرتم بذا ، وإنها لأحب الخصلتين إلينا بعد الاجتهاد منا ، وإن الله عز وجل قال لنا في كتابه : « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله ، والله مع الصابرين » وما منا رجل إلا وهو يدعو ربه صباحاً ومساءً أن يرزقه الشهادة ، وألا يرده إلى أهله وولده ، وليس لأحد منا هم فيما خلفه ، وقد استودع كل واحد منا ربه أهله وولده ، وإنما همنا ما أمامنا . . . فانظر الذي تريد ، فليس بيننا وبينك

خصلة تقبلها منك ولا نجيبك إليها إلا خصلة من ثلاث ، فاختر أيتها شئت ، ولا تطمع نفسك في الباطل ؛ بذلك أمرني الأمير ، وبها أمره أمير المؤمنين ، وهو عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من قبل إلينا .

جرت هذه المفاوضة بين العرب وعلى رأسهم عبادة ، وبين الروم وعلى رأسهم المقوقس ، وقد كان طابع هذه المفاوضة أدبياً سياسياً دينياً من جانب العرب ، تتجلى فيه صراحة الحق ووضوح البيان وقوة التعبير ، كما تتجلى فيه قوة الإيمان ، واليقين بالنصر ، والثقة فيما وعد الله به ، والرغبة فيما عنده من عاجل الثواب وآجل النعيم .

ولا أدري كيف خوفهم المقوقس بكثرة العدد ثم عرض عليهم مالا لينصرفوا ألم يكن يعلم مواقفهم في الشام ، وكيف يخاف من سواد عبادة وما جاءه إلامفاوضاً ، وما شأنه برياسة وفد المسلمين ، ربما كان ذلك كله فرصة استطاع فيها عبادة ورجاله أن يقدموا للمقوقس صورة من المساواة والإخاء مع اختلاف اللون ، وأن يبينوا له ما في الإسلام من مثل عالية في معاملة العدو والصديق . أما دستورهم الذي ثبتوا عليه فهو دستور الإسلام : واحدة من ثلاث : الإسلام أو الجزية أو القتال .

ومن أحسن ما يعجبك في هذه المفاوضة لباقة هذا البدوي الأسود وهو يرد على الرومي الأبيض . فقد حسب المقوقس أنه ينفذ إلى شجاعة العرب إذ يذكر لهم كثرة العدد ، وحسب أنه يغريهم بالمال فيصرفهم عما قصدوا إليه ، فكان رد عبادة على هذا التخويف والإغراء رداً صريحاً بعيداً عن المخادعة والمداورة ولمزماً له وللمقوقس إذ يقول له : « أما ما نخوفنا به من جمع الروم وعددهم فلعمرى ما كان هذا بالذي نخوفنا به » . ثم يبين له أن ذلك ادعى للإقدام على الروم فإن هزمهم العرب كثرت الغنيمة ، وإن ماتوا في سبيل الله ففي رحمته ورضوانه خير الجزاء ، وتلك أحب الخصلتين إليهم ، وبمثل هذا الإيمان ثبت في نفس المقوقس أن هؤلاء لو استقبلوا الجبال لأزالوها .

وقد كان العرب عند حسن ظنه فأزالوا ملك الروم وثبتوا أركان الإسلام في البلاد .

توالى على هذه البلاد أحداث بعد عمرو بن العاص ، فقد عزله عنها عثمان رضى الله عنه ، وثار فيها الفتن ، ونشطت الخطابة في هذه الفتن ، ثم قتل عثمان بيد المصريين كما يقال ، وأرسل على كرم الله وجهه والياً من قبله هو قيس بن سعد بن عباد . فلما بلغ مصر صعد المنبر فجلس عليه وأمر بكتاب معه من أمير المؤمنين فقرئ على أهل مصر^(١) . وقد ذكر في هذا الكتاب فضل الإسلام والرسول الكريم ، وأن أبا بكر وعمر رضى الله عنهما قاما بأمر الإسلام بعد الرسول وعملا بالكتاب والسنة ، « ثم ولى بعدهما وال فأحدث أحداثاً ، فوجدت الأمة عليه مقالا فقالوا ، ثم تقوموا عليه فغيروا ، ثم جاءوني فبايعوني ، فاستهدى الله عز وجل بالهدى ، ألا وإن لكم علينا العمل بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، والقيام عليكم بحقه ، والتنفيذ لسنته والنصح لكم بالغيب ، والله المستعان ، وحسينا الله ونعم الوكيل » . وأخبرهم أنه بعث إليهم قيس بن سعد أميراً . وختم الكتاب بتاريخه صفر سنة ٣٦ هـ .

ثم إن قيس بن سعد قام خطيباً فحمد الله وأثنى عليه وصلى على محمد صلى الله عليه وسلم وقال^(٢) :

« الحمد لله الذى جاء بالحق ، وأمات الباطل وكبت الظالمين . أيها الناس إنا قد بايعنا خير من نعم بعد محمد نبينا صلى الله عليه وسلم . فقوموا أيها الناس فبايعوا على كتاب الله عز وجل وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم فإن نحن لم نعمل لكم بذلك فلا بيعة لنا عليكم » . فقام الناس وبايعوا واستقامت له الأمور زمناً حتى

(١) ص ٤٢٥ تاريخ الإسلام « النجار » ، النجوم الزاهرة ج ١ ص ٩٧

(٢) تاريخ الإسلام ص ٤٢٤ — ٤٢٧ .

أوقع معاوية به عند على فعزله . وتحركت جيوش معاوية بعد ذلك إلى مصر بقيادة عمرو بن العاص فاستولى عليها وظل بها حتى مات سنة ٤٣ هـ .

خطب عتبة :

ثم وليها عتبة بن أبي سفيان من قبل أخيه معاوية سنة ٤٣ هـ . وكان عهده على قصره كثير الخطب ، وهو أكثر من روى له التاريخ خطباً في ولاية مصر ، وقد روى ابن عبد ربه في العقد الفريد^(١) له ست خطب . يصرح في خمس منها بأنها كانت في مصر ولأهل مصر ، ويتحدث في السادسة حديث الوالي القادر إلى الرعية العاصية ، ولم نسمع بأنه ولي ولاية أخرى غير مصر . وهذه هي نصوصها كما أوردها ابن عبد ربه ، مع خلاف في الترتيب :

١ — خطبة عتبة بن أبي سفيان :

بلغه عن أهل مصر شيء فأغضبه ، فقام فيهم فقال^(٢) بعد أن حمد الله وأثنى عليه : يا أهل مصر إياكم أن تكونوا للسيف حصيداً ، فإن الله فيكم ذبيحاً لعثمان أرجو أن يولينى الله نسكه ! إن الله جمعكم بأمر المؤمنين بعد الفرقة ، فأعطى كل ذى حق حقه ، وكان والله أذكركم إذا ذكر بخطه ، وأصفحكم — بعد المقدرة — عن حقه ؛ نعمة من الله فيكم ، ونعمة منه عليكم . وقد بلغنا عنكم نجم قول أظهره تقدم غفومنا ، فلا تصيروا إلى وحشة الباطل بعد أنس الحق ، بإحياء الفتنة وإمالة السنة ، فاطأكم لله وطأة لا رmq معها ، حتى تنكروا منى ما كنتم تعرفون ، وتستخشنوا ما كنتم تستلينون ، وأنا أشهد عليكم الذى يعلم خائنة الأعين ، وما تخفى الصدور .

(١) ج ٢ من ص ٣٨٩ — ٣٩١ .

(٢) ص ٣٨٩ العقد الفريد ج ٢ .

٢ — وخطبة لعتبة :

قدم كتاب معاوية إلى عتبة بمصر: إن قبلك قوماً يطعنون على الولاة، ويعيبون السلف، فخطبهم فقال (١) :

يا أهل مصر؛ خَفَّ على ألسنتكم صدع الحق ولا تفعلونه، وذم الباطل وأنتم تأتون، كالبحار يحمل أسفاراً أثقله حملها: ولم ينفعه ثقلها، وأيم الله، لا أداويكم بالسيف ما صلحتم على السوط، ولا أبلغ السوط ما كفتني الدرة، ولا أبطل عن الأولى ما لم تسرعوا إلى الأخرى، فالزموا ما أمركم الله به تستوجبوا ما فرض الله لكم علينا. وإياكم وقال ويقول، قبل أن يقال: فعل ويفعل! وكونوا خير قوس سهماً، بهذا اليوم الذي ما قبله عقاب، ولا بعده عتاب.

٣ — وخطبة لعتبة بن أبي سفيان :

سعد القصير قال: وجه عتبة بن أبي سفيان، ابن أخت أبي الأعور السلمي إلى مصر فتمعهو الخراج، فقدم عليه عتبة فقام خطيباً فقال (٢) :

يا أهل مصر، قد كنتم تعذرون لبعض المنع منكم ببعض الجور عليكم، فقد وليكم من يقول ويفعل، ويفعل ويقول، فإن رددتهم ترادكم بيده، وإن استصعبتم ترادكم بسيفه، ثم رجا في الآخر ما أمل في الأول. إن البيعة متتابعة، فلنا عليكم السمع والطاعة، ولكم علينا العدل. فأينا غدر فلا ذمة له عند صاحبه، والله ما انطلقت بها ألسنتنا حتى عقدت عليها قلوبنا، ولا طلبناها منكم حتى بذلناها لكم ناجزاً بناجز، ومن حذر كمن بشر. «
قال: فنادوه: سمعاً وطاعة، فناداهم عدلاً عدلاً.

(١) العقد الفريد ج ٢ ص ٣٩١.

(٢) العقد الفريد ج ٢ ص ٣٩١، الولاة والقضاة ص ٣٥، النجوم الزاهرة ج ١

٤ — وخطبة لعتبة :

العتبي ، قال سعد القصير : احتبست عنا كتب معاوية بن أبي سفيان حين أرجف أهل مصر بموته ، ثم قدم علينا كتابه بسلامته ، فصعد عتبة المنبر والكتاب في يده ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

يا أهل مصر قد طالت مُعابقتنا إياكم بأطراف الرماح وظلمات السيوف ، حتى صرنا شَجسى في لهاكم ما تسيغه حاوِلكم ، وأقضاء في أعينكم ما تطرف عليها جفونكم ، أخفين اشتدت عرى الحق عليكم عقداً ، واسترخت عقد الباطل منكم حلا ، أرجفتم بالخليفة ، وأردتم تهوين الخلافة ، وخضتم الحق إلى الباطل . وأقدم عهدكم به حديث ، فأريحوا أنفسكم إذ خسرتم دينكم . فهذا كتاب أمير المؤمنين بالخبر السار عنه والعهد القريب منه . واعلموا أن سلطاننا على أبدانكم دون قلوبكم فأصلحوا لنا ما ظهر ، ونكلكم إلى الله فيما بطن ، وأظهروا خيراً وإن أضمرتم شراً ، فإنكم حاصدون ما أنتم زارعون ، وعلى الله أتوكل وبه أستعين . ثم نزل .

٥ — وخطبة لعتبة بن أبي سفيان في أهل مصر :

يا حاملي الأم أنوف ركبت بين أعين ! إنما قلتم أظافري عنكم ليلين مسى إياكم ، وسألتكم صلاحكم إذ كانت فسادكم راجعاً عليكم ، فأما إذ أبيتم إلا الطعن على الولاة ، والتنقص للسلف ، فوالله لأقطعن على ظهوركم بطون السياط فإن حسمت داءكم وإلا فالسيف من ورائكم ، ولست أبخل عليكم بالعقوبة ، إذا جدتم لنا بالعصية ، ولا أويسكم من مراجعة الحسنى إن صرتم إلى التي هي أبر وأتقى ^(١) .

٦ — خطبة لعتبة بن أبي سفيان :

لما اشتكى شكاته التي مات فيها تحامل إلى المنبر فقال :

(١) في صبح الأعشى ج ١ ص ٢١٦ والأمالى ج ١ ص ٢٤٥

يا أهل مصر ، لا غنى عن الرب ، ولا مهرب من ذنب ، إنه قد تقدمت منى إليكم عقوبات كنت أرجو يومئذ الأجر فيها ، وأنا أخاف اليوم الوزر منها ، فليتنى لأكون اخترت دنياى على معادى ، فأصلحتكم بفسادى ، وأنا أستغفر الله منكم وأتوب إليه فيكم ، فقد خفت ما كنت أرجو نفعاً عليه ، ورجوت ما كنت أخاف اغتيالاً به ، وقد شفى من هلك بين رحمة الله وعفوه ، والسلام عليكم ، سلام من لا ترونه عائداً إليكم .

قال : فلم يعد .

تعليق على هذه الخطبة :

فالخطبة الأولى قد بدأت بالتحذير من السيف ، ووضحت أن لهذا السيف ثأراً فى رقابهم بما قتلوا عثمان ، وأن الأخذ بهذا الثأر قرابة إلى الله يتمناها . ويعود فيذكر أمير المؤمنين وفضله فى جمع الشمل ، وأهم من ذلك عنده وعندهم « العطاء » ، ثم يصل إلى ما كان حقه أن يبدأ به وهو ما بلغه عنهم ، ثم يحذر وينهى عن الخروج على الطاعة . وكأنه يلمس ناحية حساسة فى قلوبهم إذ يشهد عليهم الله الذى يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور .

ومما قدمت تظهر قوة خطبته من حيث ترتيب معانيها وعلاقتها بالسامعين . فإذا أضيف إلى ذلك جمال الأسلوب ، وحسن التصوير وبديع الزخرف بلا تكلف ولا تعمل زادت قوة . ففيها سجع لا تكلف فيه : وطباق فى وحشة الباطل وأنس الحق ، وإحياء الفتن وإماتة السنن ، والإنكار والمعرفة ، ويستخشنون ويستلينون . ويقوى الخطبة ويترك لها آثاراً فى النفوس إستناده إلى الحق ، وأنه إن وطئهم وطأة لا رmq معها فذلك « لله » .

وليس من المعقول أن يحلل السامع كل هذه تحليلاً دراسياً ، ويفعل ما نفعه نحن : ولكن هذه الآثار تسرى إلى نفسه على هذا النحو الذى قدمته فترك فعلها

في قرارتها ، وتصل به إلى الإذعان رغبا ورهبا ، وهذا هو سر قوتها .
والخطبة الثانية : أقرب إلى اللين من السابقة ، وفيها تنديد قبل التهديد ،
تهديد مشوب بروح العدل ، فهو لن يبدأ بالشدة ، ولن يلجأ إليها ما استقاموا
على سبيل الهدى : ولن يتأخر عن أداء الحق إلى من يلزم حدود الله ، ولعله يقصد بما
أمرهم الله به طاعة أولى الأمر المطلوبة في قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا
الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم »^(١) ، وتشبيهمهم بالحمار يحمل أسفارا تشبيه
غامض ، وإن فصله بعد ذلك ، والمراد به أن علمهم بالحق والباطل لم ينفعهم ، وهي
في جملتها أضعف من الخطبة الأولى تركيا .

أما الخطبة الثالثة فلها ظرف خاص جاء به الكندي إذ يقول إن عتبة بعد
إقامته في الولاية أشهراً ، « وفد على أخيه بوفد من أشرف أهل مصر ، واستخلف
على مصر عبد الله بن قيس بن الحارث ... وكانت أمه أخت أبي الأعور السلمي ،
وكانت فيه شدة على أهل مصر ، فكرهوا ولايته وامتنعوا منها ، فبلغ ذلك عتبة
فرجع إلى مصر » .

وفي رواية : « فكتب إلى عتبة ، فقدمها فدخل المسجد ورقى المنبر فحمد الله
وأثنى عليه » وقال الخطبة وفيها المعاني المكررة في الخطبتين السابقتين تقريرا ،
فهي تهديد مشوب بالترغيب في الطاعة ، وكأنما كانت سياسته معهم قوله تعالى :
« وإن تنهوا فهو خير لكم ، وإن تعودوا نعد »^(٢) .

وكانت عاقبة الخطبة خيراً ، فقد نادوه من جنبات المسجد سمعاً سمعاً ، فناداهم
عدلاً عدلاً .

أما الرابعة ، وهي خاصة بما أرجفوا به من مرض أخيه وموته ، فظاهر فيها

(١) سورة النساء آية ٥٩ .

(٢) سورة الأثقال آية ١٩ .

السخط على طول عصيانهم ، وعدم إيمانهم بحق الخلافة المقدس ، وفيها إشاعة روح اليأس في نفوسهم ، ورغبة ملحة في أن يستريح من ثوراتهم وأراجيفهم ، وإن أضمرُوا شراً ، فلا شأن له بالضمير .

وروح الخطبة الخامسة تهديد ووعيد وسباب وشم . وختامها دعوة إلى الطاعة ووعد بالثوبة عليها إن حدثت . وهي كالأولى في زخرفها وزينتها وبخاصة الطباق في « ظهور وبطون » والبخل والجود ، ثم حسن التقسيم ، واتساق الفواصل وقوة النعم .

وكل خطبة من هذه الخطب الخمس مثال واضح لعتبة ، وإذا كان هناك ما تجتمع فيه من الصفات فهو دورانها حول التحذير والإنذار بالعذاب الشديد ، والدعوة إلى الطاعة ليجزيهم خيراً بخير ، والإكبار لحق الخلافة وبيان فضلها ، وفي أسلوبه قوة ، وفي عباراته رنين ، وفي ألفاظه انسجام ، وفي زخرف جملة بُعد عن التكلف .

أما خطبته التي لم يعد بعدها إلى المنبر ، فهي خطبة التوبة والندم ، وهي خطبة النفس التي تحس بما قدمت ، وتخشى ما هي مقدمة عليه ، ففيها معنى الحسرة على ما فرط في جنب الله ، وعلى ما يحتمل من ظلمه لعباد الله ، ولكنه واسع الرجاء في المغفرة .

وهذه كلها خطب سياسية ، طابعها الشدة والتحذير والوعيد ، لأنها كانت في عهد تكوين الدولة وتأسيس الملك الأموي ، والناس قريبو عهد بثورة ، ولكنها تتسم بسمات معاوية أخيه ، من اختلاط الوعد بالوعيد ، ومزج اللين بالشدة ، والإغراء بالعفو والجزاء .

ولا يفرقها عن غيرها من خطب هذا العهد في قوة الأسلوب وحسن التصوير إلا أنها مصرية الموطن ، ولو قيلت في العراق أو الشام لما اختلف إلا المخاطبون ،

وهذا يؤيد ما نكرره من أن أدب هذه اليهود أدب عربى الصبغة ، صادف أن قيل
فى أرض مصر فنسب إلى هذه الديار واتَّصل بأدبها .

كلمة عامة عن الخطابة :

وكان عتبة آخر الخطباء الذين حفظ لهم الأدب خطباً من ولاية مصر ، ولكن
الخطابة لم تمت بموته ، فدواعيها ظلت موجودة ، وولى أمر الناس رجال ذوو لسان
وفصاحة ، ولكن النصوص التى تؤيد هذا القول غائبة ، وإن كانت أدلتها شاهدة
من الأحداث الهامة التى حدثت بمصر ثورة محمد بن أبى حذيفة على عتبة بن
عامر ، وإخراجه من القسطنطينية ، والدعوة إلى خلع عثمان . ومثل هذه الثورة على عثمان
لا يمكن أن تنور بلا مثير ، ومن أهم وسائل الإثارة أن يخاطب الساخطون ، بالطمع
على عثمان ، وبيان ما يأخذونه عليه ؛ وكانت لابن أبى حذيفة طريقة ما كره فى التعبير
بالناس ، فقد كان يكتب الكتب على السنة أزواج النبی صلى الله عليه وسلم ،
ثم يأخذ الرواحل فيضممرها ثم يأخذ الرجال الذين يريد أن يبعث بذلك معهم ،
فيجعلهم على ظهور الببوت ، فيستقبلون الشمس بوجوههم لتلوحهم تلويح المسافرين ،
ثم يأمرهم أن يخرجوا إلى طريق المدينة بمصر ، وأن يرسلوا رسلاً يخبرون بهم الناس
ليلقوهم ، وأمرهم إذا لقيهم الناس أن يقولوا : ليس عندنا خبر ، الخبر فى الكتب
ثم يخرج محمد بن أبى حذيفة والناس للقائهم ، كأنه يتلقى رسل أزواج النبی عليه السلام ،
فإذا لقوهم قالوا : لا خبر عندنا ، عليكم بالمسجد ، فيجتمع الناس فى المسجد اجتماعاً
ليس فيه تقصير ، فيقرأ عليهم كتب أزواج النبی ، ثم يقوم القارىء بالكتاب
فيقول : إنا لنشكوا إلى الله وإليكم ما عمل فى الإسلام وما صنع فى الإسلام ...
ثم يقول ، ثم ينزل عن المنبر ، وينفر الناس بما قرئ عليهم ^(١) .

وبعث إليهم عثمان بسعد بن أبي وقاص يعطيهم ما سألوا ، فبلغ ذلك ابن أبي حذيفة فخطبهم ، ثم قال : ألا إن الكذاب — كذا وكذا — قد بعث إليكم سعد بن مالك ليُقل جماعتكم ، ويشتت كلمتكم ، ويوقع التخاذل فيكم ، فانفروا إليه . فخرج إليه منهم مائة أو نحوها ، فلقوه بمرحلة بني سعد وقد ضرب فسطاطه وهو قائل ، فقلبوه عليه ، وشجّوه وسبوه ، فركب راحلته وعاد راحلا من حيث جاء^(١) .

هذه مرة أشير فيها إلى المنبر والخطبة في ثورة ابن أبي حذيفة ، ولا بد أن المنبر والخطبة كانا وسيلتهم لإيقاظ الفتنة وإشعالها .

وكيف يمر النزاع بين علي ومعاوية بلا خطب ، وقد كان لكل منهما أنصار بمصر ؟ وكيف يمر ما كان بين ابن الزبير وبني أمية بلا خطب ، وقد كثر مثيله في الحجاز والعراق والشام !

ونسلم مرة أخرى بالخطابة في عهد عمر بن عبد العزيز^(٢) ، فقد طلب أن يدلوه على رجل من أهل مصر له شرف وصلاح يوليه صلاتها ، فدلوه على أيوب بن شرحبيل ، فكتب إليه بولايته ، وأمر البريد أن تكون موافقته يوم الجمعة ، ففعل . فراح أيوب إلى المسجد فركع قريبا من المنبر : فلما أذن المؤذن صعد أيوب المنبر ، فخطب الناس وصلى بهم الجمعة وانصرفوا .

وهناك موقف ثور فيه العاطفة وتنطلق الألسنة ، كان المنبر أظهر وسائل البيان فيه ؛ فإنه لما قتل زيد بن علي زين العابدين رضي الله عنه قدم أبو الحكم بن أبي الأبيض العباسي إلى مصر سنة ١٢٢ خطيباً برأسه ، واجتمع الناس إليه في المسجد الجامع ، ولعله رثاه وبكاه ، واستنص الناس للقيام بثورة على قاتليه ، وبين لهم عيوبهم وسيئاتهم ، ولكن نص خطبته أو شيء منها ليس مذكورا^(٣) .

وقد يشير الراوى إلى هيئة الخطيب ، ويستترعى اتباعه ملبسه وهندامه ، فيذكر ذلك ولا يذكر خطبته ، قالوا ، كان والى مصر سنة ١٢٤ هـ حنظلة بن صفوان ، وكانت له ربطة مثنية يلبسها ويصلى فيها ، فإذا كان يوم الجمعة احتزم بها على قباء أبيض ، وتقلد السيف ، ثم يصعد المنبر فيخطب^(١) .

وقد يكون المنبر سلم ضراعة ودعاء : روى أن حفص بن الوليد استسقى بالناس في إمارة هشام بن عبد الملك ؛ قال بكر بن مضر فرأيته رقى المنبر ، واستقبل الناس بوجهه يخطب ، ودعا ، ثم حول ظهره إلى الناس ، واستقبل القبلة يدعو . وحول رداءه ودعا الله ، ثم حول وجهه إلى الناس ، ثم نزل فصلى ركعتين^(٢) .

ولا بد أنه كان يدعو بالمأثور فى الاستسقاء ، يسأل الله أن ينزل الغيث عيما ، وأن يجعله حول الناس والدور لا عليهم ، وأن يجعله كثيراً الخ .

وفى عهد مروان بن محمد كان ثابت بن نعيم ممن خالف عليه ، وقدم مصر ومعه نفر من اليمانية ، نخطبوا فى مسجد مصر ، ودعوا الناس إلى خلع مروان . فموضوع الخطبة ظاهر ، وهى خطبة سياسية بلا شك^(٣) .

ولما ولى حوثر بن سهيل الباهلى مصر سنة ١٢٨ ، أرسل الخليفة كتاباً بشأنه يقول فيه : قد بعثت إليكم رجلاً أعرايياً بدوياً فصيح اللسان . فاجمعوا له رجلاً فيه مثل فضاله « لعلها خصاله » يسدده فى القضاء ، وبصوبه فى النظر .

فأجمع الناس كلهم على الليث بن سعد وفيهم معلماء يزيد بن أبى حبيب وعمرو ابن الحارث ، وجمع الجند إلى المسجد نخطبهم الحوثر بشعر بليغ^(٤) ومنه :

دعوت أبا ليلى إلى الصلح كى يبو
برأى أصيل أو يرد إلى حلم
دعانى لشب الحرب بينى وبينه
فقلت له مهلا هـلم إلى السلم

(٢) ص ٨٢

(٤) ص ٨٨

(١) الولاة والقضاة ص ٨٢

(٣) ص ٨٥

ولما وليها عبد الملك بن مروان بن موسى بن نصير ، من قبل مروان بن محمد سنة ١٣٢ هـ ، أمر الناس باتخاذ المنابر في الكور ، ولم تكن قبله ، وإنما كانت ولاية الكور يخطبون على العصى إلى جانب القبلة^(١) .

فهذا الاهتمام بالأشياء المتصلة بالخطابة كرجالها ومنابرها وموضوعاتها يدل على وجود هذه الخطابة ، ومن البديهي أن تكون موجودة ، ولكن النص الأدبي الذي نحتكم إليه عند ما نريد أن نحكم على قوتها أو ضعفها ، أو اتجاهاتها العامة والخاصة ، أو تنوعها ، أو غير ذلك من صفاتها ، ليس بين أيدينا .

والظاهر مما تقدم أنها كانت قوية ، وكانت متنوعة ، فكان منها السياسي كخطبة أيوب بن مريحيل ، ومنها الديني كخطبة حفص بن الوليد ، ومنها الثوري كخطبة ثابت بن نعيم ، ومنها الهادي كخطبة الحوثة .

أما الخطب الحربية فكان لها موضعها في أول الفتح ، وفي عهد النزاع بين علي ومعاوية ، وعند هجوم مروان على جند ابن الزبير بمصر ، وفي عهد زحف العباسيين عليها سنة ١٣٢ هـ .

وقد تشمل الخطبة أكثر من موضوع ، كخطبة عمرو المتقدمة^(٢) . وعند كتب التاريخ من أخبار الفتن والثورات والأحداث إلى قيام العباسيين ما يجعل المؤرخ للخطابة يرجح وجودها وقوتها بسبب هذه الدواعي كاضطراب الأمر على بني أمية ، وهرب مروان بن محمد إلى مصر ، وقدم جيوش المسودة وراءه .

فمقتضى هذه الثورات والفتن والأحداث أن يكون للخطابة شأنها لقلة شأن الكتابة عندئذ ، وعدم غنائها في مثل هذه الظروف ، وعدم غناء الشعر في مناقشة

(١) الولاية والقضاء ص ٩٣ .

(٢) أنظر ص ٢٠ من هذا الكتاب .

آراء ، أو بيان حق ، أو دعوة إلى نصرة ، أو ما شابه ذلك . ولكنها كانت أقل عدداً ورجالاً منها في العراق والشام والحجاز .

وما حفظه التاريخ من هذه الخطب قليل نادر ، وليس هناك نص كامل لخطبة من هذه الخطب . وأسباب قلة المروى من الخطابة العربية تلخص فيما يلي :

١ — كانت بيئة الفصاحة والبيان في جزيرة العرب مهد الفصحى ، والشام والعراق مهاجرها في عهد بني أمية ، فخرج في هذه البلاد مشاهير الشعراء ، كما ظهر فيها مشاهير الخطباء من الخلفاء ، كماوية ، وعبد الملك ، وعمر بن عبد العزيز ، وهشام ، ومن فصحاء الولاة كزياد والحجاج وخالد القسري ، ومن زعماء الغاضبين على بني أمية ، كالحسين وابن الزبير وابن الأشعث ، وزعماء الخوارج كنفاع بن الأزرق ، وقطرى بن الفُجاءة ، وأبي حمزة .

٢ — جد من الحوادث والفتن في تلك البلاد ما جعل الخطابة تشتعل مع هذه الثورات المشتعلة ، وكان بنو أمية في شغل بأمر ولاية العهد ، ولكل منهم هوى في ابنه بدلا من أخيه أو ابن عمه مثلا ، ويبدأ ذلك من عهد معاوية . فتشغل الخطابة في بيعة يزيد طويلا . وابن الزبير يغضب لهذه البيعة وتسنع الفرصة لخروجه بعد معاوية ، ويستولى على أكثر البلاد الإسلامية ، وتشغل الخطابة مؤيدة ومعارضة ، وبخاصة في الحجاز والعراق .

ويغضب الشيعة لما يصيبهم من محن ، فتثور ثوراتهم ، وتعلو منابرهم . ويخرج الخوارج ، ويشغلون بني أمية ، ويكادون يذهبون بملكها ، فيكثر فيهم أعيان الخطباء ، وتشغل الدولة بهم أكثر مما تشغل بغيرهم .

ولا ينال آل البيت على ضميمهم ، فكانوا كلما أصيبوا في ثورة نهضوا الأخرى ؛ وكان البيان من أقوى وسائلهم لنشر دعوتهم ، وبخاصة في بلاد المشرق ، فنهضت هناك خطابة مثيرة ، ولكنها كانت تحاول أن تكون منطقية أيضا . وفي هذه

البلاد الشرقية ، ظهر دعاة بنى العباس من الفرس ، وعلت أصواتهم كما لعت سيوفهم .

٣ — كان للبيان منزلته عند الخلفاء ، وكان مزية من مزايا الولاية . فإذا ظهر وال من ولايتهم بحسن الإدارة ومعالجة الفتن مثل الحجاج ، كانت الخطابة من مزاياه أيضا ، وكانت الحاجة إلى هذا النوع شديدة في العراق لا في مصر ، كما كانت ولاية العراق جزاء وفاقا لإخلاص هؤلاء الولاية وجهودهم ، إذ كانت أهم ولاية في الدولة من حيث الأعباء الملقة على عاتق واليها ، ومن حيث المنزلة العالية التي لها .

٤ — ثم إن الرواة الذين يتحملون الخطب وينقلونها كانوا كثيرين في العراق والحجاز والشام ، حيث يكثر الأدب وتروج سوقه عند الأمراء والولاة والأعيان . فرووا ما كان حولهم من هذا الأدب القوى خطابة وشعراً .

٥ — وتدوين التاريخ الأدبي فيما بعد كان له أثر في إهمال الأدب المصرى ، فقد عني بالشام لأنها مركز الخلافة ، وبالحجاز لأنها موئل العربية ومنبعها ، وبالعراق لأنها مركز حركة أدبية وثورات سياسية أنبتت أدبا عظيما .

في عهد العباسيين :

قامت دولة بنى العباس على أنقاض الدولة الأموية ، واتخذت البيان سلاحاً واعتمد رجالها على البلاغة — بين ما اعتمدوا عليه — ليكسبوا عطف الناس وقلوبهم ، وليثيروا النفوس على أعدائهم حتى إذا مكن الله لهم في الأرض ولوا من أمور المسلمين ما كان يليه الأمويون ، وصارت لهم الإمامة وخطبة الجمعة وقيادة الجيوش ، فقويت دواعي الخطابة في أيامهم وظهر فيهم خطباء مصاقع كما ظهر من ولايتهم ورجال دولتهم من يذكرهم تاريخ الأدب كلما عرض لهذا النوع من البيان . وتوحي ظروف مصر في القرن الثانى وأوائل الثالث بنشاط الخطابة وقوتها

بسبب الأحداث والفتن الكثيرة . وتؤيدنا كتب التاريخ في الإشارة إلى هذه الخطب ورجالها ، لكننا نفتقر إلى نصوص أدبية تجعلها عمادنا في الحديث عن الخطابة المصرية زمن العباسيين .

ومن خطباء الولاية موسى بن كعب^(١) ، وإلى المنصور عليها سنة ١٤١ ، ويؤثر عنه أنه كان يقول في خطبته : « من كان يريد جارية قارهة أو غلاماً فارهاً فليرفع يديه إلى الله » وقال في خطبته « هذا أخوكم عبد الغفار الأزدي كان معكم منذ ثلاث سنوات ثم مات . فلا تغفلوا عما نزل به » .

ولاشي* في خطبته يشير إلى مصر ، ولكنه خطبها في مصر وعلى منابرها . وهو في هذا الأمر المأثور عنه يوجه الناس إلى باب الكريم ، ويأمرهم أن يدعوا الله لغنائم ، ولعله كان ضيق الصدر برغبات المحتاجين . وعبارة الكندي تدل على أنه كان يكرر النص الأول ، أما النص الثاني فهو أقرب إلى الوعظ .

وكان المنبر للطعن في الأعداء وشفاء النفس من المنافسين :

يروى أن محمد بن بجير كان والياً على الشرطة لمحمد بن الأشعث وإلى مصر سنة ١٤١ وكان في نفسه ثورة على أبي عون وإلى مصر قبل ذلك . فكان ابن بجير يصعد المنبر ويقول : النخاس ، الكذاب^(٢) .

ووليها للمنصور يزيد بن حاتم بن قبيصة بن المهلب^(٣) (سنة ١٤٤ — ١٥٢) وفي ولايته ظهرت دعوة بني حسن بمصر ، وتكلم بها الناس ، وباع كثير منهم لعلي بن محمد بن عبد الله بن حسن ، وهو أول علوى قدم مصر ، وإن دعوة كهذه

(١) النجوم الزاهرة ج ٢ ص ٥٥ .

كان موسى من قباء بني العباس وقد اتهم بأنه من المسودة في أيام الأمويين ، فأمر به أسد ابن عبد الله البجلي فألجم بلجام ، ثم كسرت أسنانه ، فلما صار الأمر إلى بني هاشم أمالوا على موسى الدنيا ، فكان يقول : كانت لنا أسنان وليس عندنا خبز ، ولما جاء الخبز ذهبت الأسنان .

(٢) الولاية والقضاء ص ١٠٩ . (٣) النجوم الزاهرة ج ٢ ص ١ .

لتحتاج إلى بيان وخطابة ، ومن طبيعة اجتماعاتها أن يكون فيها مناقشة وجدل ، وحجج تؤيد بعض الآراء وأخرى تدحضها وهكذا .

وقدمت الخطباء إلى مصر برأس إبراهيم بن عبد الله بن حسن في سنة ١٤٥ ، فنصبوه في المسجد الجامع ، وقامت الخطباء فذكروا أمره ، ومنهم شبة بن عقال^(١) . وربما أغرب بعض الخطباء في ملابسهم فروى المؤرخ ذلك وأهمل الخطبة ، فقد روى أن عكرمة بن قحزم كان على شرطة أبي عون فخطب وعليه رداء نارنجي ، وكان ابن بجير على شرطة ابن الأشعب يخطب في قميص وساج . وأول من خطب في السواد عبد بن الله عبد الرحمن بن معاوية بن حديج^(٢) .

ومن التلميحات السريعة عن الخطابة ما روى أن أبا يحيى الصدفي^(٣) قال : « رأيت موسى بن علي بن رباح والي مصر لأبي جعفر يخطب على منبر صغير خارج من المقصورة » .

وفي عهد موسى بن مصعب^(٤) ثارت القيسية واليمانية ، وكتبوا أهل مصر فاتفقوا عليه ، وانهزم عنه أصحابه وقتل ، ولم يتكلم أحد من أهل مصر لأجله كلمة واحدة . وكان موسى هذا ظالماً غاشماً . سمعه الليث بن سعد يقرأ في خطبته : « إنا اعتدنا للظالمين ناراً أحاط بهم سرادقها » فقال الليث : اللهم لا تقه منها . وقال ابن عفير^(٥) : ما رأيت أحداً على هذه الأعواد أخطب من إسماعيل بن صالح (والي الرشيد على مصر سنة ١٨١ — ١٨٢) . وشهادة ابن عفير لها قيمتها ؛ لأنه أديب ومحدث ثقة ، فشهادته مقبولة .

ولما مات موسى الرضا وأنخذل إبراهيم بن المهدي ، كتب المأمون إلى السري

(١) الولاة والقضاة ص ١١٤ .

(٢) النجوم الزاهرة ج ٢ ص ١٧ . (٣) الولاة والقضاة ص ١١٩ .

(٤) النجوم الزاهرة ج ٢ ص ٥٤ . (٥) الولاة والقضاة ص ١٣٨ .

بذلك وبغسل المنابر التي دعى عليها لعلى بن موسى ^(١) .

من الطولونيين إلى الفاطميين :

استمرت الخطابة ولكنه لم يعد يذكر عنها شيء إلا ما كانت تشتمل عليه من دعاء للخلفاء ومن يشار إليهم في سلطانهم . وقد يكون ذلك بصيغ خاصة تدون ثم تتلى في كل خطبة .

روى أن الموفق سجن أخاه المعتمد سنة ٢٩٦ وكتب ابن طولون بذلك إلى نائبه في مصر ، ووصف في كتابه بؤس المعتمد وبكائه مما صار إليه حاله ، نخطب الخطاب يوم الجمعة فذكر ما نزل بالمعتمد ، وزاد في خطبته (اللهم فاكفه من حصره ومن ظلمه ^(٢)) .

وكان يُدعى على الموفق في مصر ، فلما صالح خمارويه دعى له على المنابر بدلاً من الدعاء عليه .

وانتهى أمر الدولة الطولونية ، وأحرقت القطائع ، ونهبت الفسطاط سنة ٢٩٢ وأطلق من في السجون . وأمر محمد بن سليمان ، والي الجديد ، بأن يدعى على المنابر لأمير المؤمنين المكتفي بالله وحده . وهكذا حتى وليها محمد بن طفج ^(٣) وفي سنة ٣٢٧ زيد في لقبه الإخشيد ودعى له بذلك على المنابر .

ثم استبد كافور بأمر البلاد ودعى باسمه على المنابر سنة ٣٥٥ .

وانتهى أمر الطولونيين سنة ٣٥٨ بدخول القائد جوهر فاتحاً باسم المعز لدين الله وخطب له على المنابر ثم جاء المعز نفسه سنة ٣٦٢ هـ .

ولاشك أن الخطابة قد ضعفت في عهد العباسيين ، وكانت بمصر أضعف ، وبخاصة

(١) الولاة والقضاة ص ١٧٠ .

(٢) الولاة والقضاة ص ٢٢٦ .

(٣) الولاة والقضاة ص ٢٨٨ .

في القرن الثالث ، وذلك لقيام الكتابة مقامها ، وعدم الاطمئنان إلى الخطابة في
المواقف التي تحتاج إلى الدقة ، ووزن الكلمات ، والحذر من عثرات اللسان ، كالأمور
السياسية . فإذا أضيف إلى ذلك ضعف ولادة الأمور والناس عامة في اللغة ، عرفنا
أن الخطابة قد صار أمرها إلى الضعف ، وأن الكتابة أغنت غناءها ، وصارت
الكتب تعد بعناية وتقلي من فوق المنابر ؛ ففي خلع الموفق كتب أحمد بن طولون
كتاب الخلع على نسخ ، وأنفذ إلى كل عمل من أعماله نسخة تقرأ على المنبر في
جميع الأمصار ^(١) .

ويقول ابن عبدكان ^(٢) : لقد أمرني أحمد بن طولون يوماً بإنشاء كتاب
يقرأ على المنبر ، فأنشأته ، ودفعته إلى محبوب ليقراه . وفي رسالة ابن طولون إلى
ابنه العباس تهديد من الأب إلى ابنه بأن يرسل إلى الأقطار التي يحكمها
كتباً تقرأ على المنابر فيها لعن العباس والبراءة منه يتناقلها آخر عن أول ،
وتخلد في بطون الصحف ، وتحملها الركبان ، ويتحدث بها في الآفاق ^(٣) .
وفي كتاب ابن طولون هذا ، بيان لفضل الكتابة على الخطابة بأنها أبقى
على الزمن ، وأذيع في الآفاق ، وأدق عند الانتقال من بلد إلى بلد ، أو من جيل
إلى جيل .

ومع هذا فمن العسير أن نسلم بفناء الخطابة أو ذهاب رجالها ، وإنما الذي
نعنيه هو قلة دواعيها وضعف الناس في اللغة ضعفاً يقعدهم عن بديهة الخطابة ،
ولكن ورد في سيرة ابن طولون أن محبوب بن رجاء كان فصيحاً ، وأنه ذكر في
مجلس ابن عبدكان يوماً فقال عنه : إنه كان بين الفضل ، فصيح اللسان ، وإنه لما

(١) سيرة ابن طولون ص ٢٩٥ .

(٣) صبح الأعشى ج ٧ ص ٥

(٢) سيرة ابن طولون للبلوي ص ٢٩٥

تسلم الكتاب المشار إليه قريباً ، وهو الذى كتبه ابن عبدكان ليقراً على المنابر ، دفعه إلى صاحب دواته ليسلمه إليه فى الجامع ، فنسى الغلام وحمل شيئاً آخر ، وهو يظن أنه الكتاب ، وركب الأمير إلى الجامع ، وصعد محبوب المنبر ومعه ذلك الشيء الآخر الذى حمّله إليه الغلام . فلما نشره محبوب علم أن الغلام أخطأ . فاندفع محبوب ، ومضى يقرأ ، وينشر ما فى يده ويبطويه ، ليوهم من يراه أنه يقرأ الكتاب ، وكانت ألفاظه عذبة حسنة فى المعنى الذى كان قصده ، وفطن لذلك ابن عبدكان وحده لأنه صاحب الكتاب الأول^(١) .

ويدل ذلك على أن الخطب قد صارت كتباً تعد وتتلّى من فوق المنابر ، وأن الكتاب هم الذين كانوا ينشئونهم ، وتدل هذه الحادثة التى ظهرت فيها فصاحة محبوب بن رجاء وحسن تصرفه على أن الزمن قد يجود بمن يستطيع القول على البديهة ، والتخلص من المأزق ، والإجادة فوق المنابر . وهذا مثال آخر يدل على أنه كان فى زمن ابن طولون قوم من ذوى البديهة الحاضرة ، والبلاغة الموازية ، والحيلة المنجية :

من ذلك أنه راح فى يوم جمعة إلى المسجد فلما رقى الخطيب المنبر وخطب ، دعا للمعتمد ولولده ، ونسي أن يدعو لأحمد بن طولون ، ونزل عن المنبر مرقةً ، فأشار ابن طولون إلى سوار الخادم أن إذا فرغ من صلاته وخرج اضربه خمسمائة سوط ، فتذكر الإمام وهو على الرقعة الثانية ، فرجع إلى أعلى المنبر وقال : الحمد لله وصلى الله على محمد ، « ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسى ولم نجده له عذراً ما » اللهم وأصلح الأمير أبا العباس أحمد بن طولون . وزاد فى الدعاء له ثم نزل عن المنبر . قال سوار : فنظر إلى مولاي وقال لى : اجعلها دنانير . ووقف الخطيب على ما كان منه فحمد الله جل اسمه على سلامته ، وهنأه الناس بالسلامة^(٢) .

(٢) سيرة ابن طولون ص ١٥٩ ،

(١) سيرة ابن طولون ص ١٤٧

وفى خطط القرى أن هذا الخطيب كان أبا يعقوب البلخى .

(ب) الوصايا

هى نوع من الأدب غايته التوجيه والإرشاد ، والحث على اكتساب المحامد ، والتبصير بحسن السياسة ، والدعوة إلى مكارم الأخلاق .

والوصايا تلحق بالخطب ، لما يجمع بينهما من مشافهة المخاطبين ، والحرص على إقناعهم فى أسلوب قوى محكم ؛ ثم يختلفان فيما عدا ذلك ، فتكون الخطابة لجماعة حاضرة تسمع قول الخطيب ، والوصية لجمع ولواحد ، وللغائب والشاهد ، وتكون ثراً كما تكون شعراً ، وتكون كتابة وقولا . وموضوع الخطب أعم من الوصايا ، فهذه لنفع المخاطبين دائماً ، أما الخطب فقد تبعد عن ذلك ، فتكون تهديداً أو رثاء ، أو مدحاً ، أو دعوة إلى مذهب ...

وهذه الوصايا المتنوعة ، تختلف بين الطول والقصر ، ومنها : الوصايا السياسية ، والحربية ، كوصية أبى بكر رضى الله عنه إلى قواده وقد أرسلهم لفتح البلاد^(١) . ومنها الوصايا الفنية كوصية عبد الحميد بن يحيى إلى أهل صناعة الكتابة^(٢) . ومن أحسن وصايا النساء وصية امرأة عوف بن حلم الشيبانى لبنتها وقد تزوجت ، وهى التى وصتها فيها بزوجها ، وابتدأتها بقولها : « كوني له أمة يكن لك عبداً^(٣) » .

وقد تكون الوصية شعراً وثرأ كوصية عبد الله بن شداد لابنه ، وقد أراد سفراً^(٤) ، وقد تكون شعراً خالصاً كوصية ابن سعيد المغربى لابنه^(٥) أبى الحسن ومطلعها :

(١) ص ٢٥٤ تاريخ الأمم الإسلامية خضرى أول (٢) مقدمة ابن خلدون ص ٢١٥

(٣) العقد الفريد ج ٤ ص ١٤٧ (٤) الأمالى ج ٢ ص ٢٠٢

(٥) هو من شعراء القرن السابع توفى سنة ٦٧٣ هـ .

أودِعَكَ الرَّحْمَنَ فِي غَرْبِكَ مُرْتَقِباً رُحْمَاهُ فِي أَوْبَتِكَ

ومن خير هذه الوصايا وأشمئها وأجلها كتاب مشهور من طاهر بن الحسين إلى ابنه عبد الله ، لما ولاه المأمون الرقة ومصر وما بينهما ، فكتب إليه أبوه ذلك الكتاب ، ووصاه بجميع ما يحتاج إليه في دولته وسلطانه : من الآداب الدينية والخلقية ، والسياسة الشرعية والملوكية ، وحثه على مكارم الأخلاق ، ومحاسن الشيم ، بما لا يستغنى عنه ملك ولا سوقة .

وهو كتاب شامل ، قيل إنه لما علم المأمون به حرص على أن يذاع على الولاة في جميع الأمصار ، فكتب نسخة منه إلى كل مصر في دولته ^(١) .

أما جانبه الأدبي فيمكن في وصفه ، من حيث القوة والوضوح والمسهولة ، والاسترسال ، أنه من إنشاء طاهر بن الحسين .

ولا يختص بالوصايا زمان ولا مكان ، فهي شائعة ما احتاج الناس إلى موعظة . وقد حفظ الأدب قليلا من هذه الوصايا في عهد الولاة بمصر ، ومن أولها وصية قيس بن سعد بن عبادة ، وإلى مصر لسيدنا علي ، يوصي بها محمد بن أبي بكر ، خلفه في منصبه ، وهذه قصتها :

عزل على رضي الله عنه قيس بن سعد بن عبادة عن مصر ، وولى مكانه محمد بن أبي بكر ، ثم إن قيساً لقي محمد بن أبي بكر فقال له ^(٢) :

« إنه لا يمتنعني نصحي لك ولأمير المؤمنين عزله إياي ، ولقد عزلني من غير وهن ولا عجز ، فاحفظ عني ما أوصيك به يدوم صلاح حالك ، دع معاوية بن حديج ، ومسلمة بن مخلد وبسر بن أبي أرطاة ، ومن ضوى إليهم ، على ما هم

(١) الكتاب بتمامه في مقدمة ابن خلدون ص ٢٦٤ .

(٢) ص ٢٧ الولاة والقضاة .

عليه تكشفهم عن رأيهم ، فإن أتوك ولم يفعلوا فاقبلهم ، وإن تخلفوا عليك فلا تطلبهم . وانظر هذا الحى من مضر فانت أولى بهم منى ، فأن لهم جناحك وقرب عليهم مكانك ، وارفع عنهم حجابك ؛ وانظر هذا الحى من مدلج فدعهم وما غلبوا عليه ، يكفؤا عنك شأنهم ، وأزل الناس من بعد على قدر منازلهم ؛ وإن استطعت أن تعود المرضى وتشهد الجنائز فافعل ، فإن هذا لا ينقصك . ولن تفعل ! إنك ، والله ، ما علمت : لتظهر الخيلاء وتحب الرياسة ، وتسارع إلى ما هو ساقط عنك . والله موفقك . »

فعمل محمد بخلاف ما أوصاه قيس ، واشتد مع الخوارج فلاقوه بأشد مما أعد لهم ، فلما علم أنه لا قوة له بهم أمسك عنهم . وهذه الوصية سياسية يرسم فيها منهجاً واضحاً لخلفه ، كي تستقيم له الأمور . وتجتمع عليه القلوب ، ويسكت عنه الأعداء ، وقد أحسن المقدمة إذ تناسى الظرف الذى هو فيه ، ظرف العزل عن الولاية ، وقدم نصيحته خالصة ، ولكنه ختمها بما يحمل على مخالفتها ، إذ قال ل محمد « ولن تفعل فإنك والله لتظهر الخيلاء وتحب الرياسة ، وتسارع إلى ما هو ساقط عنك » فكأنه كان يحرضه فى ختامها على رفضها وليس ذلك محموداً فى النصيحة ، فإذا كانت من معزول إلى خلفه كانت موضع شك واتهام ، وكان الميل إلى الخروج عليها أشد . فكيف يذكر له عيوبه ، ويختم بها وصيته ؟

وأما مروان فقد جاء مصر فاتحاً ، وانتصر ، وولى ابنه عبد العزيز أمرها ، ثم رجع بعد أن وصاه . ويقول صاحب النجوم الزاهرة « ثم خرج من مصر بعد أن أوصى ولده عبد العزيز بوصايا كثيرة مضمونها الرفق بأهل مصر »^(١) . ومن هذه الوصايا التى حفظها التاريخ عن مروان بن الحكم ثلاث وصايا نعرضها هنا :

أولاهها وصية سياسية تبدو فيها مهارة مروان ؛ إذ أوصى ابنه أن يستغل عواطف الناس وطبائعهم ، وأن يرضى فيهم غرورهم ، ليكونوا له عوناً على أموره . وذلك أنه لما انتصر مروان بمصر على حيوش ابن الزبير ، وقبل صالح بن جحدم شروط الصلح ، كتب مروان بيده كتاباً لأهل مصر ، ثم ولى عبد العزيز عليها ، فقال له : يا أمير المؤمنين كيف المقام ببلد ليس به أحد من بنى أبى ؟ فقال له : « يا بنى ، نعمهم بإحسانك يكونوا كلهم بنى أبيك ، واجعل وجهك طلقاً تصف لك مودتهم ، وأوقع إلى كل رئيس منهم أنه خاصتك دون غيره يكن عيناً لك على غيره ، وينقاد قومه إليك . وقد جعلت معك أخاك بشراً مؤنساً ، وجعلت لك موسى بن نصير وزيراً ومشيراً ، وما عليك يا بنى أن تكون أميراً بأقصى الأرض ، أليس ذلك أحسن من إغلاق بابك ، وخمولك في منزلك ^(١) » أوصاه بالجود واشتراء الرقاب ، وتلك خطة طالما أفلحت في حمل الناس على الطاعة ، وأوصاه أن يكون طلق الوجه كي يخلصوا له المحبة ، ولم يقف عند هذا الحد ، بل انقلب سياسياً يريد أن يفرق بين الناس كي لا يجتمعوا عليه ؛ وأخص ما أراه في هذه النصيحة أن قائلها يعرف نواحي الضعف في النفس الإنسانية ، ويريد لابنه أن يستغلها لمنفعته . ومنها حب المال وإرضاء ما في النفس من غرور ؛ وهذه الوصية نتيجة تجارب طويلة في الأعمال التي كان يليها معاوية ، ووحى بصيرة نافذة تعرف ما يصلح للعرب من سياسة .

والثانية وصية دينية . خلقية . يهتم فيها بالشورى ، قال عبد العزيز بن مروان : أوصاني مروان حين ودعته عند مخرجه من مصر إلى الشام فقال ^(١) : « أوصيك بتقوى الله في سر أمرك وعلايتك ، فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ، وأوصيك ألا تجعل لداعى الله عليك سبيلاً ، فإن المؤذنين يدعون إلى فريضة افترضها الله عليك ، » إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً .

وأوصيك ألا تعجل في شيء من الحكم حتى تستشير ، فإن الله عز وجل لو أغنى أحداً عن ذلك لأغنى نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم بالوحي الذي يأتيه ؛ قال الله عز وجل « وشاورهم في الأمر » .

إنها وصية أب صالح يرقب ربه ، ويرعى أوامره ، ويدرك أن ابنه في عمله هذا ذو سلطان مستمد من الدين ، فهو أولى الناس باتباع أوامره ، ومن أول هذه الأوامر أداء الصلاة في وقتها .

والوفاء بالوعد صفة حميدة يدعو إليها الدين ، ويدعو إليها الخلق العربي ، والشورى لها مزاياها ، والدين يأمر بها ويمدحها .
وتراه يقوى هذه الوصية بآيات القرآن الكريم . فهي في مجملها وصية صالحة من خليفة المسلمين ، إلى من يلي أمراً من أمور المسلمين .

ولما انصرف « مروان بن الحكم » من مصر إلى الشام ولي « عبد العزيز » ابنه على مصر ، وقال له حين ودعه :

« أرسل حكيماً ولا توصه » ، أي بني ؛ انظر إلى عمالك فإن كان لهم عندك حق غدوة ، فلا تؤخرهم إلى عشيّة ، وإن كان لهم عشيّة فلا تؤخرهم إلى غدوة ، وأعطيهم حقوقهم عند محلها ، تستوجب بذلك الطاعة منهم ، وإياك أن يظهر لرعيّتك منك كذب [فإن تعلقوا عليك بكذبة ^(١)] لم يصدقوك في الحق ، واستشر جلساءك وأهل العلم ، فإن لم يستبن لك فاكتب إلى يأتك رأيي فيه إن شاء الله تعالى ، وإن كان بك غضب على أحد من رعيّتك فلا تؤاخذ به عند سورة الغضب ، واحبس عنه عقوبتك حتى يسكن غضبك ، ثم يكون منك ما يكون وأنت ساكن الغضب ، مُطفئاً الجرة ، فإن أول من جعل السجن كان حليماً ذا أناة ، ثم انظر إلى ذوى الحسب والدين والمروءة ، فليكونوا أصحابك وجلساءك ،

(١) زيادة يتم بها المعنى وهي غير موجودة في الأصل .

ثم اعرف منازلهم منك على غيرهم . على غير استرسال ولا انقباض . أقول قولى هذا واستخلف الله عليك^(١) .

هذه الوصية الثالثة أطول وصايا مروان وأتملها ، فهي سياسية : توصى بالعمال خيراً ، لما لهم من فضل فى إدارة البلاد ، وأول ما يجب لهم أن ينالوا جزاءهم فى وقته ، وأن يأخذوا حقهم فى مواعده ، فانهم إذا شبت بطونهم عفت نفوسهم ، ودامت طاعتهم .

وهى خلقية توصى بالصدق فى معاملة الرعية ، واستشارة أهل الشورى من الجلساء والعلماء . وإذا كانت هذه منزلتهم فعلى الوالى أن يحسن اختيارهم من أهل الحسب والدين والمروءة ، وأن يعرف منازلهم مع احتفاظه بوقاره . أما الدعوة إلى الحكيم فى وقت الهدوء والسكينة فذلك لأن سورة الغضب قد تحمل على مجاوزة الحد . والأخذ بأكثر من الذنب ، وتلك الدعوة مصدرها أوامر الدين وروحه .

ولا أستطيع أن أقول بشمول هذه الوصايا لكل ما يجب أن يوصى به . وإنما هى آراء رآها « مروان » صالحة لمستقبل ابنه فى ولايته ، فصاغها هذه الصياغة الفنية الجميلة .

وقد جعل « السكندى » الوصية الثانية عند خروج مروان من مصر عائداً إلى الشام ، وجعل « ابن عبد ربه » الوصية الثالثة عند انصراف « مروان » من مصر كذلك . فهما وصيتان لا وصية واحدة ، لما بينهما من اختلاف فى النصائح والأسلوب ؛ وكأن أباه أدرك حاجته إلى كثرة الوصايا فكررهما .

هذه هى كل ما وجدت من عهد بنى أمية بمصر ، ثم يسكت الأدب طويلاً بعد ذلك حتى يأتى عهد ابن طولون فيحفظ مؤرخو دولته من وصايا السياسية الأبوية شيئاً كوصايا مروان ، وهذه وصية دعت إليها رغبته فى دوام الألفة بين أولاده : وصى أحمد بن طولون ولده العباس حينما رضى عليه ، وأطلقه من قيده ، وخلع

عليه ، وقلده جميع الأعمال الخارجة عن أعمال مصر من الشامات والثغور . وقال له ^(١) « أنا أوصيك يا بني بتقوى الله عز وجل ، ومكافأة أخيك ، والإمساك عن الاستطالة عليه ، بزيادة سنك على سنه ، فلا تترك لمن يقصدك من العراق مدخلا بينكما ، يتأتى منه لكما ، ولا تسمع ممن يطلب صلاح نفسه بفساد ما بينكما ، ولا تضمرن لأخيك غير ما تظهره ، فان القلوب مخدنة . واعلم أن جوار أخيك لك أصلح من جوار غيره ، ولا تضمر له خلافا فتبسطا ما بينكما ، ويحدّ عدوكا بذلك سبباً إلى هلاككما . وقد تقدمت بإزاحة علل رجالك ، فأحرص أن يكون خروجك إلى عملك قبل وفاي ، فان الراغب عنك كثير ، أكثر من المائل إليك ، وأخاف أن تتلوّم على الطمع في موضعي وتترث ، فتذهب نفسك ! بصرك الله رشداً ووفقك ، ووقاك ما أخافه عليك ، وأحاذره فيك ، بمنّه » .

وأرى في هذه الوصية حرصاً من الوالد على هدوء الحال ، وإصلاح ما بين الإخوة ، وتنبهها إلى خطر الساعين بالفساد .

ودعته إلى الوصية الثانية رغبة ملحّة في دوام الملك في بيته ، وعماد ذلك رضا الرعية ، بلين الجانب وحسن المعاملة ، ثم بحسن تدبير المال ، والإنفاق منه عند الضرورة فقط : وهذه هي : ^(٢)

وصى « أحمد بن طولون » ولده « أبا الجيش خمارويه » قبل وفاته فقال له : يا بني لا تعدلن عن مشورتى عليك ، فلن تجد أبداً أنصح لك منى ، قد خلفت دَخْل بلدك يزيد على ما ينوبك بجيشك وسائر مؤوتتك ، فلا تطلقن فيه يداً بجور ، فيختل أمرك بخرابه ، ولا تقبل نصيحة من ينتصح لك ، بما يؤول إلى خراب بلدك ، والإجحاف بمعامليك فيه ، فانه عدو مبين من حيث لا تعلم ، فانبذه عنك ، ولا تقربه منك . وقد خلفت لك رعيتك لا يطلبون منك إلا لين الجانب ، والأمن من المخاوف ؛

ولم أكن أمنهم لين جانبي بخلاً به عليهم ، ولكني آثرتك على نفسي ، بمنعني لهم لين جانبي ، والأمن من مخافتى ، فاستعمل أنت ذلك معهم فتملك قلوبهم ، ويبادروا إلى طاعتك ، ويهشوا إلى التصرف بين أمرك ونهيك ، فى صغير أمرك وكبيره ، ولم أتركك عدواً أخافه عليك ، واعلم يا بنى أن كل سرف يسئول إلى اختلال وتلف . ولا تمد يدك إلى المال المخزون عند خير الخادم ، واجعله ذخيرة لمملكته ، وأقمه مقام جارية من جوارحك ، لا تبذلها إلا فى شدة تخاف معها فسأد سائر جسدك ، أو عندما تقدر بإخراجها صلاح سائر جسدك » — وكان خير الخادم هذا خادم المتوكل — ثم قال له : « واسلك يا بنى سبيلى ، واقتف آثارى فى سائر من خلفت ، يأنسوا بناحيته ، ويحسنوا طاعتك ، ولا يميلوا إلى عدو يخالفك ، ولا تقبلن مقال السعاة فيما تقوى به سوءهم عندك ، فكل شر وسوء يثول إلى اضمحلال وزوال ، ويهلك فى ذلك من سلكه » .

وإذا كان مروان سخيّاً فى وصيته ، فقد كان ابن طولون حذراً ممسكاً ، يذكر المال شحيحاً به ، داعياً إلى الحرص عليه ، والجانب الأدبى فى وصايا مروان لابنه أقوى منه عند ابن طولون ، وسهولة الموعظة وصراحتها واضحة عند مروان ، أما ابن طولون فقد شاب وصيته أحياناً شئ من غرابة المعنى ، وغرابة تعليقه ، إذ يقول فى وصيته لخمارويه : « ولم أكن أمنهم لين جانبي بخلاً به عليهم ، ولكني آثرتك على نفسي بمنعني لهم لين جانبي »

وإذا كان مروان قد رأى فى وصيته الأولى أن يعمهم ابنه باحسانه ليكونوا جميعاً بنى أبيه ؛ فقد كان ابن طولون يرى اللين مؤدياً إلى نفس الغاية ، أما المال فلا يدعو إلى بذله إلا عندما تشتد الأمور ، ولا يكون هناك مفر من بذله ، وكان مروان أصح رأياً ، وأعمق إدراكاً للنفس .

الفصل الثالث

القصص

في أدب كل أمة قصص يروونها ، وهم يقصدون التسلية وقطع أوقات الفراغ ، أو يبنون إشاعة السرور والبشر ، أو يريدون تهذيب النفس وتلقين الأخلاق وآداب السلوك . وقد يقصدون القيمة الفنية التي تشتمل عليها هذه القصص ، فيعيدون ما يعيدونه منها في مجالسهم ومجتمعاتهم ، ويلقونه إلى خاصتهم وعامتهم ، رغبة في إمتاع السامع بجمال البيان ، وحسن السبك ، ولطف التنميق ، ودقة المعنى ، وطرافة الخيال ، وسمو الفكرة ، ونبل المقصد ، وغير ذلك مما يشتمل عليه هذا الأدب ، ويفيده بلفظه ومعناه .

وكان لمصر حظها من القصص ، وهو حظ لا بأس به ، إنه لا يقارب حظ الشام أو العراق أو الحجاز ، من حيث الكثرة والتنوع والذيع ! ولكنه لا يقل عنه في ناحيته الفنية ، فالتمط واحد في قوة الأسلوب ، والمذهب واحد في طريقة العرض ، والشبه قوى في الغاية .

متى ظهر القصص في الإسلام :

ظهر القصص في الإسلام مبكرا . ونسب إلى « تميم الداري ^(١) » أنه أول من قص في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم . وأنه استأذن « عمر » أن يذكر الناس فأبى عليه ، ثم أذن له في آخر ولايته أن يذكر الناس في يوم الجمعة

واستأذن « عثمان » فأذن له أن يذكر يومين في الجمعة . وقيل إن القصص أحدث في زمن « عثمان » . وأن « تميم الداري » أول من قص ، وأن هذه النزعة نصرانية بقيت عنده بعد الإسلام^(١) .

أول من قص بمصر :

إذا كان « تميم » أول من قص في الإسلام فإن « سليم بن عتر الشجبي » كان أول من قص بمصر . وقد قام بذلك في سنة تسع وثلاثين . ثم لما كان عام الجماعة سنة ٤٠ ولاء « معاوية » القضاء أيضاً ثم عزل عن القضاء وأُفرد بالقصص^(٢) ، وروى أنه كان يقص على الناس وهو قائم . فلم يرض بذلك القصص « صلة بن الحارث الغفاري » من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وقال له : والله ما تركنا عهد نبينا ، ولا قطعنا أرحامنا حتى قت أنت وأصحابك بين أظهرنا^(٣) .

وكان ظهور « سليم بن عتر » وأصحابه رداً من « معاوية » على ما فعله سيدهنا « علي » بعد صفين ، فقد روى أنه قُت ، فدعا على من خالفه ، فبلغ ذلك معاوية ، فأمر من يقص بعد الصبح وبعد المغرب ، أن يدعو له ولأهل الشام ، وكتب بذلك إلى الأمصار .

وروى عن سعيد بن عفير عن أبيه قال : كان سليم بن عتر قاص الجند زمان عمرو بن العاص ، وكان ممن شهد خطبة عمر رضي الله عنه بالجابية ، وحضر فتح مصر^(٤) .

(١) كان تميم من نصارى اليمن . أسلم سنة ٩ هـ وذكر للنبي صلى الله عليه وسلم قصة الجساسة والدجال . الإصابة ج ١ ص ١٩١ .

(٢) حسن المحاضرة ج ١ ص ١٢٩ .

(٣) ابن عبد الحكم ص ٢٣٢ ، ١٠٤ .

(٤) الولاة والقضاة ص ٣٠٣ ، ٣٠٤ .

وقد ظل والياً على القضاء حتى موت معاوية سنة ٦٠ هـ فمزل عنه ، وبقي له القصص حتى مات سنة ٧٥ هـ .

ويظهر أن طريقته في القصص كانت ترضى عبد الله بن عمرو بن العاص . فإنه قد ذهب إليه في جماعة يريد أن يأخذ عليه البيعة ليزيد . فقال له : « وأما أنت يا سليم بن عتر فكنت قاصاً ، فكان معك ملكان يُفتيانك ويُذَكِّرانك ، ثم صرت قاضياً فمعك شيطانان يُزيفانك عن الحق ويفتنانك .

صورة هذا القصص :

وكانت صورة هذا القصص أن يجلس القاص في المسجد وحوله الناس فيذكرهم بالله ، ويقص عليهم حكايات وأحاديث وقصصاً عن الأمم الأخرى ، وأساطير ونحو ذلك . لا يعتمد فيها على الصدق بقدر ما يعتمد على الترغيب والترهيب^(١) . وقد روى عن الليث بن سعد^(٢) أنه جعل القصص نوعين : قصص العامة ويجتمع النفر من الناس إلى القاص يعظهم ويذكرهم ، فذلك مكروه لمن فعله ولمن استمعه ، وأما قصص الخاصة فهو الذي جعله « معاوية » : ولي رجلا على القصص ، فإذا سلم من صلاة الصبح جلس ، وذكر الله عز وجل ، وحمده ومجده ، وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم ، ودعا للخليفة ولأهل ولايته وحشمه وجنوده ، ودعا على أهل حربه ، وعلى المشركين كافة .

وقول الليث بن سعد : « إن قصص العامة مكروه لمن فعله ولمن استمعه » . فذلك لأن القصص أكثر من الكذب ، وأضافوا من الأخبار والقصص ما لم يحدث ، وربما أضافوا ما لا يقره العقل من خرافات وسخافات ، حتى روى أن

(١) نجر الإسلام ج ١ ص ١٩١ .

(٢) خطط المقرئ ج ٢ ص ٢٥٣ .

علياً رضى الله عنه طردهم من المساجد . ولم يسلم كثير منهم من الطعن ، حتى الصالحون ، مثل سليم بن عتر . فإذا كان عبد الله بن عمرو شهد له بحسن القصص فإن شهادة صلة بن الحارث الغفارى لم تكن طيبة .

وفى كلام السيوطى عن يزيد بن أبى حبيب الأزدى (توفى سنة ١٢٨ هـ) يقول^(١) : إنه أول من أظهر العلم فى مصر والمسائل فى الحلال والحرام . وقبل ذلك كانوا يتحدثون فى التريغيب والملاحم والفتن . ويقصد بالترغيب المواعظ والقصص ، وبالملاحم والفتن الكلام فى التاريخ .

ولم يكن يزيد بن أبى حبيب خدأ فاصلاً ، فإن الكلام فى القصص والمواعظ كان سابقاً له ومتأخراً عنه . ونحن نسمع بالقصص فى عهد الطولونيين : فإنه حينما ترايدت العلة على أحمد بن طولون أمر الناس بالدعاء له ، فغدوا إلى مسجد بسفح القطم سنة ٢٧٠ هـ وحضر معهم القصص فدعوا له^(٢) .

والتاريخ لم يخل من « الفتن والملاحم » فيما بعد ، ويكفى أن نقرأ فتوح مصر لابن عبد الحكم — وهو أول كتاب عنى بتاريخ مصر — فنجد فيه بعض القصص عن تاريخ مصر قبل الإسلام وبعده ، لا تتفق مع الواقع ، وقد يرفضها العقل أحياناً ، كما نجد فيه بعض القصص المحتملة الوقوع فى جملتها ، ولا تخفى الزيادة القصصية فيها ، ثم عرف كثير من تلك القصص طريقه إلى التدوين فجمعه المؤرخون .

ومن القصص التى رويت فى تاريخ مصر ، قصة بحى عمرو إلى مصر فى الجاهلية ، أو قصة عمرو والكرة ، وهذه هى :

(١) حسن المحاضرة ج ١ ص ١٣١ .

(٢) الولاة والقضاة ص ٢٣١ .

قصة عمرو والكرة :

قال القضاى ومن عجائب مصر الاسكندرية وما بها من العجائب ، فمن عجائبها المنارة ، والسوارى ، والملاعب الذى كانوا يجتمعون فيه فى يوم من السنة ، ثم يرمون بأكرة ، فلا تقع فى حجر أحد إلا ملك مصر ، وحضر عيداً من أعيادهم عمرو بن العاص ، فوقعت الأكرة فى حجره ، فلك البلد بعد ذلك فى الإسلام^(١) . وكان عمرو قد دخل فى الجاهلية مصر ، وعرف طرقها ، ورأى كثرة ما فيها ، وكان سبب دخوله إياها أنه قدم إلى بيت المقدس لتجارة فى نفر من قريش ، فإذا هم بِشَّمَّاس من شمامسة الروم من أهل الاسكندرية ، قدم للصلاة فى بيت المقدس؛ فخرج فى بعض جبالها يسبح ، وكان عمرو يعرى إبله وإبل أصحابه ، وكانت رعية الإبل نوبا بينهم ، فبينما عمرو يعرى إبله إذ مر به ذلك الشماس وقد أصابه عطش شديد فى يوم شديد الحر ، فوقف على عمرو فاستسقاء ، فسقاه عمرو من قربة له ، فشرب حتى روى ، ونام الشماس مكانه ؛ وكانت إلى جنب الشماس حيث نام ، حفرة ، فخرجت منها حية عظيمة ، فبصر بها عمرو فزع لها بسهم فقتلها . فلما استيقظ الشماس نظر إلى حية عظيمة قد أنجاه الله منها . فقال لعمرو : ما هذه ؟ فأخبره عمرو أنه رماها فقتلها ، فأقبل إلى عمرو فقبل رأسه وقال : قد أحيانى الله بك مرتين ، مرة من شدة العطش ، ومرة من هذه الحية : فما أقدمك هذه البلاد ؟ قال قدمت مع أصحاب لى نطلب الفضل فى تجارتنا . وكم تراك ترجو أن تصيب فى تجارتك ؟ قال رجائى أن أصيب ما أشتري به بغيراً ، فإنى لا أملك إلا بغيرين ، فأمل أن أصيب بغيراً آخر فتكون ثلاثة أبعرة . فقال له الشماس : أرايت دية أحدكم بينكم كم هى ؟ قال مائة من الإبل : فقال له الشماس : لسنا أصحاب إبل ، وإنما نحن أصحاب

دنائير . قال تكون ألف دينار : فقال له الشماس : إني رجل غريب في هذه البلاد ، وإيما قدمت أصلى في كنيسة بيت المقدس ، وأسيح في هذه الجبال شهراً ، جعلت ذلك نذرا على نفسي ، وقد قضيت ذلك ، وأنا أريد الرجوع إلى بلادي ، فهل لك أن تتبمنى إلى بلادي ، ولك على عهد الله وميثاقه أن أعطيك ديتين ؛ لأن الله عز وجل أحياني بك مرتين ؟ فقال له عمرو : أين بلادك ؟ قال مصر ، في مدينة يقال لها الاسكندرية . فقال له عمرو لا أعرفها ولم أدخلها قط . فقال له الشماس : لو دخلتها لعلمت أنك لم تدخل قط مثلها ، فقال له عمرو : وتنى لى بما تقول ، ولى عليك بذلك العهد والميثاق ؟ فقال له الشماس : نعم ، لك والله على العهد والميثاق أن أفى لك ، وأن أردك إلى أصحابك . فقال له عمرو : وكم يكون مكثي في ذلك ؟ قال شهراً ، تنطلق معي ذاهبا عشرا ، وتقيم عندنا عشرا ، وترجع في عشر ، ولك على أن أحفظك ذاهبا ، وأن أبعث معك من يحفظك راجعا ، فقال له عمرو : أنظرني حتى أشاور أصحابي في ذلك .

فانطلق عمرو إلى أصحابه فأخبرهم بما عاهد عليه الشماس ، وقال لهم تقيمون حتى أرجع إليكم ، ولكم على العهد أن أعطيكم شطردلك ، على أن يصحبني رجل منكم آنس به . فقالوا نعم ، وبعثوا معه رجلا منهم فانطلق عمرو وصاحبه مع الشماس حتى انتهوا إلى مصر ، فرأى عمرو من عمارتها وكثرة أهلها . وما بها من الأموال والخير ، ما أعجبه ، فقال عمرو للشماس ما رأيت مثل ذلك ، ومضى إلى الاسكندرية ، فنظر عمرو إلى كثرة ما فيها من الأموال والعمارة ، وجودة بنائها ، وكثرة أهلها ، فازداد عجباً .

ووافق دخول عمرو الاسكندرية عيداً فيها عظيماً ، يجتمع فيه ملوكهم وأشرافهم . ولهم كرة من ذهب مكللة ، يترامى بها ملوكهم ، وهم يتلقونها بأكلامهم ، وفيما اختبروا من تلك الكرة ، على ما وصفها من مضى منهم ، أنه من وقعت الكرة في مكه واستقرت

فيه لم يمت حتى يملكهم . فلما قدم عمرو الاسكندرية أكرمه الشماس الإكرام كله وكساه ثوب ديباج ألبسه إياه ، وجلس عمرو والشماس مع الناس في ذلك المجلس ، حيث يترامون بالكرة ، وهم يتلقونها بأكلهم . فرمى بها رجل منهم ، فأقبلت تهوى حتى وقعت في كم عمرو ، فمجبوا من ذلك وقالوا : ما كذبنا هذه الكرة قط إلا هذه المرة ، أترى هذا الإعرابي يملكنا ؟ هذا ما لا يكون أبداً . ثم إن ذلك الشماس مشى في أهل الاسكندرية وأعلمهم أن عمراً أحياء مرتين ، وأنه قد ضمن له ألفي دينار ، وسألمهم أن يجمعوا ذلك فيما بينهم ، ففعلوا ودفعوها إلى عمرو ، فانطلق عمرو وصاحبه ، وبث معهما الشماس دليلاً ورسولاً ، وزودهما واكرهما حتى رجع هو وصاحبه إلى أصحابهما .

فبذلك عرف عمرو مدخلها ومخرجها ، ورأى منها ما علم أنها أفضل البلاد وأكثرها أموالاً . فلما رجع عمرو إلى أصحابه دفع إليهم فيما بينهم ألف دينار ، وأمسك لنفسه ألفاً ، قال عمرو : وكان أول مال اعتقده وتأملمته .

هذه القصة تروى في كتب التاريخ ، ولسنا هنا بصدد تأييد وقوعها أو نفيه ، فذلك من عمل النقد التاريخي ، أو التحقيق التاريخي ، الذي يناقش وقائعها هي وأمثالها من الآثار الأدبية .

وإنما الذي يهم مؤرخ الأدب في هذه الآثار الأدبية أن تكون صحيحة النسبة إلى عصرها الذي تنسب إليه ، فإن كانت تاريخية وقعت حوادثها ، كان عليه أن يدرس مدى تأثير الأدب بهذه الحوادث ، وإن كانت مخترعة درس مبلغ الإبداع فيها ، وقوة الخيال في إنشائها ، والعوامل الخاصة والعامة التي أثرت فيها .

وإذا خالف الأديب التاريخ ، أو نسب إليه ما ليس منه لم يطعن ذلك في أدبه ، فقد يخترع شخصيات يكمل بها قصة ، وقد يزيد حوادث يصورها بطولية ، أو يوضح بها فكرة ، فلا يؤخذ عليه هذا ، فالأدب يعتمد على الخيال كما يعتمد على الواقع .

وإذا كانت قصة كقصّة « عمرو والسكر » محلا للأخذ والرد عند المؤرخ ، فهي مقبولة عند الأديب ، ينظر إلى فكرتها العامة ، وهي أن عمرأ جاء إلى مصر قبل الإسلام ، ودل طالعده على أنه سيحكم هذه البلاد ، وللوصول إلى هذه الغاية جرى بعمره من الشام إلى الإسكندرية ، وأحسن ابن عبد الحكم^(١) سبك المقدمة في روايته فقد كان عمرو في الشام يرعى إبلا فلاقى هناك شماسا جاء لزيارة الأماكن المقدسة ، وأتقذ عمرو ذلك الشماس من خطرين : خطر الموت عطشا ، وخطر الحية ، فأحسن إليه مرتين . فأراد الشماس جزاءه على معرفه ، واتفقا على طريقة الدفع ونوعه ومقداره ومكانه ، فجاء عمرو إلى مصر ليقبض ثمن معرفه ، وأخذ الشماس إلى الاسكندرية ، وذهب به إلى تلك الحفلة ، وبقي مع الخاصة حتى لعبوا بالكرة فوقعت في حجره ، فاستنكر اللاعبون ذلك وقالوا : أنى لهذا الأعرابي أن يملك الاسكندرية أو مصر ! ولكن جرت المقادير بغير ما قدروا وضحكت منهم الأقدار فزال سلطانهم على يد هذا الأعرابي العظيم .

متى ظهرت هذه القصة ؟ ؟

إن أقدم كتاب رأيتها فيه هو كتاب فتوح مصر لابن عبد الحكم المتوفى سنة ٢٥٦ هـ ، ثم رواها الكندى بعده بحوالى قرن (توفى الكندى سنة ٣٥٠ هـ) ويرجعها كل منهما إلى رجل يقال له خالد بن يزيد ، وهو خالد بن يزيد الجحى المصرى كان فقيها مفتيا ، قال النسائى عنه : إنه ثقة وتوفى سنة ١٣٩ هـ^(٢) .

ولكن الكندى يشرك معه عبيد الله بن أبى جعفر ، ويقول إنهما رواها عن أدركا من مشايخهما ، وابن أبى جعفر معاصر لخالد إذ توفى سنة ١٣٢ هـ ، وربما نسبها خالد إلى رجل يقال له : حنش بن عبد الله^(٣) ، وهو شامى قدم مصر بعد

(١) فتح مصر طبع اوربا ص ٥٢

(٢) تهذيب التهذيب ج ٢

(٣) الكندى ص ٨

قتل على ، وغزى المغرب والأندلس ، وكان له عقب بمصر^(١) ، وتوفى بمصر سنة ١٠٠ هـ ، وذلك في خلافة عمر بن عبد العزيز .

وابن أبي جعفر ثالث ثلاثة جعل عمر بن عبد العزيز الفتيا إليهم بمصر ، وهو يروى بعض أخبار مصر في ذلك العهد^(٢) .

فابن أبي جعفر ، وحشش كانا متعاصرين ، وكانت مصر دار إقامة لكل منهما ، وإذا كانت الرواية قد وقفت عند حشش هذا ، فمن المحتمل أنها تسبق ذلك وإن لم يصلها الرواة ، وأرجح أنها كانت مما قصه سليم بن عتر ، إذ كان حشش يعرفه ويقدره . فقد روى عن حشش هذا أنه سئل عن قول الله عز وجل : « كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون » ، فقال : هذه والله صفة أبي عبد الله الحلي وسليم بن عتر . ولا بد أنه قد رآه ، فهما مصريان ، والفرق بين موتها خمسة وعشرون عاماً (توفى سليم بن عتر سنة ٧٥ بدمياط) .

فإذا أضفنا إلى ذلك أن سليم بن عتر كان قاص الجند زمن عمرو بن العاص رجحنا أن تكون هذه القصة معروفة بمصر قبل الرواة الذين انتهى عندهم الكندى وابن عبد الحكم .

أما حذف الجزء الأول في الكندى ، فيرجع إلى رغبته في الإيجاز كما هو ظاهر في الكتاب من أوله إلى آخره ؛ أو لعله استكثر أن يقع هذا الجزء الأول وأبى أن يصدقه فحذفه ؛ أما أن تكون الرواية التي وصلت إليه مختصرة ، فأنا أستبعد هذا ، إذ أن ابن عبد الحكم يسبقه ، وكان الكندى يعرف ما في كتابه .

وأما تناسق هذه القصة ، واثتلاف أجزائها ، وتسلسل حوادثها ، فواضح في رواية

(١) تاريخ ابن عساكر ج ٥ ص ٧ — ٩

(٢) الكندى ص ٣٣٣ و ٣٣٤ و ٣٣٥

ابن عبد الحكم لها ، فإنك إذا قرأتها لا تحس باضطراب في سير الحوادث ، ولا بغموض في أسلوبها ، ولا بغرابة في أشخاصها ؛ وترى أن مؤلفها قد أحسن صنماً عند ما جعل عمراً وحشاً يتلاقيان في الشام ولكل منهما غاية من رحلته .

وقد أرحلها معاً إلى الإسكندرية لغاية غير ما تنتهي إليه القصة ، أرحلها ليقبض عمرو جزاء ما قدم لهذا الشماس ، ولكن الرجل أراد أن يزيد في إكرام عمرو فأشهره حفلة من حفلات الخاصة ، مبالغة في إكرامه ، فاهتدت إليه الكرة في هذا الحفل ، وتنبأت بأنه سيكون حاكم البلاد . وقد صح ما تنبأت به وكان له في تاريخها أثر خالد . أما حسن العرض ، وجمال التصوير ، وسلامة الأسلوب ، وحسن الانتقال من نقطة إلى نقطة ، فظاهرة كلها فيما تقدم .

عمرو في مأزق :

وهذه قصة أخرى عن عمرو ^(١) لا تقل طرافة وقوة ، مع إيجازها :

وروا عنه أنه كان في الاسكندرية وأنه اقتحم بعض حصونها مع فريق من الجند ثم رجعوا وبقي هو وثلاثة من صحبه ، فعرض عليهم الروم أن يخرجوا إليهم ليبارزوه واحداً لواحد ، فتصدى هو للمبارزة لولا أن منعه صاحبه مسلمة بن مخلد ، وقف دونه وهو يقول : ما هذا ؟ « نخطي مرتين فتشذ عن أصحابك وأنت أمير ، وإنما قوامهم بك وقلوبهم معلقة نحوك ، لا يدرون ما أمرك ، حتى تبارز وتعرض للقتل ، فإن قتلت كان ذلك بلاء على أصحابك ! مكانك وأنا أ كفيك إن شاء الله » . قالوا ومثل بين يدي البطريق فمجب هذا من أنفته وقوة جوابه ، فالتفت إلى من في مجلسه وقال لهم باليونانية : « يظهر من أنفة هذا الرجل وكبر نفسه أنه من وجوه العرب ، وربما كان من كبار قوادهم ، فلا ينبغي أن نتخلى عن قتله . .

وكان مولاه وردان يفهم اليونانية ، فأحب أن يريهم خطأهم ، ويبين لهم أن الذي يكلمهم إنما هو رجل من عامة الجند ، فأسرع إليه فلطمه صائحاً به : ما أنت وهذا

يا لکم . دع هذا المقال لمن هو أولى منك بالكلام عن قومه :
فكانت هذه اللطمة سبب نجاته .

اليامة والفسطاط :

وقد رويت قصة أخرى أو أقصوصة فيها مثال سام من أخلاق العربي ورعايته لحق الجار ، ولو كان طيرا ، تلك قصة الفسطاط واليامة ^(١) وقد روى سعيد بن عفیر عن أشياخه أنه لما حاز المسلمون حصن بابلین بما فيه ، أجمع عمرو على المسير إلى الإسكندرية ، فسار إليها في ربيع الأول سنة ٢٠ هـ ، وأمر بفسطاطه أن يقوض ، فإذا يامة قد باضت في أعلاه ، فقال : « لقد تحرمت بجوارنا . أقروا الفسطاط حتى تنقف وتطير فراخها » . فأقروا الفسطاط ووكل به ألا يهاج حتى تستقل فراخها فلذلك سميت الفسطاط فسطاطا .

وكم في تاريخ مصر من قصص رواها الرواة من قديمها وحديثها ، بعضها ياباه التاريخ وينسكه ، مثل كثير من الخرافات التي رواها ابن عبد الحكم في القسم الأول من كتابه فتوح مصر ، وذكر فيها فضائل مصر وتاريخها . وبعض هذه القصص صحيح تاريخي . ولكن الخيال لم يزينه ولم يزد فيه فضل مقصوراً على الحقائق . وأذكر من ذلك قصة وقعت في عهد علي بن الحسين بن حرب الذي ولي قضاء مصر سنة ٢٩٣ بعد زوال الدولة الطولونية وهي :

قصة التومين السجينين :

وقد رواها الكندي ص ٥٢٨ قال :

كان بمصر تومان تكهلا ، ولا يفرق بينهما من رأها ، من قوة الشبه بينهما ، فوجب على أحدهما دين ، فحبسه القاضي . وكان أخوه يحبى إليه زائراً فيجلس في الحبس عَوَضَه ، ويتوجه ذلك ، فاشتهر هذا حتى بلغ أبا عبيد علي بن حرب ،

فأحضرهما فقال لهما : أيكما المحبوس ؟ فبادر كل منهما فقال : أنا هو . فأتى ، ثم طلب الغريم فدفن إليه الدين الذى ثبت له ، فراراً من الشفعة والغلط فى الحكم . وكثيراً ما يحدث هذا التشابه بين الإخوة ، والتوائم منهم خاصة ، وكثيراً ما يخلط الناس بين هؤلاء المتشابهين ، فإذا قيس الله أديبا عبقريا لمثل هذه الأخطاء المتكررة ، استطاع أن يخلق منها قصة عظيمة ، أو مسرحية لطيفة ، كما فعل شكسبير فى مسرحية « فكاكة الأخطاء » « The Comedy of Errors » . وتدور حوادث هذه المسرحية حول ما يجره التشابه بين التوائم من أخطاء ؛ فقد ولد أحد السادة فى بلد من البلاد توءمين متشابهين تشابها عظيما جدا ، وكان له عبد ، فولد توءمين على نفس الصفة ، ثم فرقت الأيام بين الأولاد ، وعاش سيد وعبد صغيران منهما فى بلد ، وسيد آخر وعبد فى بلد آخر ، ثم التقوا لما بلغوا مبلغ الرجال ، فحدث من الأخطاء والمشكلات ما حير عقولهم ، وعقول كثير معهم ؛ حتى ظنوا بأنفسهم الظنون . وأخيرا عُرف مبدأ القصة فخلت المشكلات ، وزال ما حدث من سوء التفاهم ، وعرفت شخصية كل واحد وعلاماته المميزة .

فأين قصتنا الساذجة البسيطة من هذه القصة الفنية ، ذات العقدة والحل ، والربط المحكم بين الحوادث حتى تصل إلى غايتها ؟

إن عناصر القصص وموادها الأولى موجودة فى حياة الشعوب وحوادث الأمم وصروف الدهور ، ولكن بعض الأمم تسعد بمن يستطيع أن يصوغ من هذه العناصر قصصا جميلة محكمة ، ذات طابع فنى يميز كاتبها من غيره ، أو يميزها من فنون الأدب الأخرى ، وقد استخدمت القصة فى ظروف كثيرة للتهديب والتربية ، أو للهو والتسلية ؛ أولنشر المبادئ والآراء ، أو لمحاربة بعض العقائد والعادات أو غير ذلك وقد ظهر فى الأدب العربى كتاب قصص منظم ، يعد من أقدم كتب القصص عندنا ، وهو كتاب مصرى فى القرن الرابع الهجرى ، أعنى به :

كتاب المكافأة :

» وقد ألفه أحمد بن يوسف بن إبراهيم من كتاب مصر في أواخر القرن الثالث وأوائل القرن الرابع . ولأبيه شهرة في الكتابة والتأليف . قال ياقوت^(١) عن أبيه إنه « كان من جِلَّة الكتاب بمصر » . وكان بغدادياً ، ولا يدري كيف جاء إلى مصر . ولكنه لما جاء اتصل بابن طولون وخدم دولته ، وذاق أذاه حياً وميتاً ؛ فقد قبض عليه مرة ، ولكن أسرى معروفه استعطفوا الأمير فغفاه عنه ؛ ووردت قصة هذا الأذى في كتاب المكافأة ، الحكاية الثالثة عشرة من قسم « مكافأة الحسن بالحسن »

أما الحكاية التي قصها أحمد بن يوسف عما نال والده من الأذى ميتاً فهي الخامسة والعشرون من هذا القسم : أرسل ابن طولون من يهاجم دار يوسف بن إبراهيم حين وفاته ، فلم يجدوا فيها شيئاً إلا دفتر عطاياه ، فأخذوه ، وأخذوا ولديه إلى ابن طولون فلم يجد شيئاً يأخذ يوسف به ، وكان عند الأمير أحد أشرف الطالبين فاعترف بفضل يوسف عليه . فترحم عليه أحمد بن طولون ، وأطلق سراح ولديه . وانصرف الطالبين معهما فحضر الجنائز وأحسن مكافأة ولديه .

وعُرف أحمد بن يوسف بان الداية ، وإن كان هذا اللقب أكثر صلة بأبيه لأنه كان ولد داية إبراهيم بن المهدي ورضيع إبراهيم ؛ وذكره ابن زولاق فقال : « كان أبو جعفر — رحمه الله — في غاية الافتنان ، أحد وجوه الكتاب الفصحاء والحساب والمنجمين ، مجسطى أوقليدسي ، حسن المجالسة ، حسن الشعر ، قد خرج من شعره أجزاء .

وله مؤلفات كثيرة منها : سيرة أحمد بن طولون ، وأخبار غلمان أحمد بن طولون

(١) معجم الأدباء ج ٥ ص ١٥٤ — ص ١٦٠

وأخبار الأطباء ، وكتاب الطبيخ . ومنها موضوع حديثنا وهو : « كتاب المكافأة وحسن العقبي » .

أقسام الكتاب :

والكتاب ثلاثة أقسام : القسم الأول قصص غايتها مكافأة الحسن بالحسن ، وهي إحدى وثلاثون قصة ، والثاني قصص غايتها مكافأة القبيح بالقبيح ، وهي إحدى وعشرون قصة ، والثالث قصص ابتلى أصحابها فصبروا ، فكانت عاقبة أمرهم خيراً ، وعددها تسع عشرة قصة .

وهو يقدم لكل مجموعة بمقدمة عامة تبين فضل هذه القصص في حمل الناس على تقليدها ؛ كأن يقول في القسم الأول :

« وقد رأيتك لا تريد من رغبت إليه فيما تحدوه على برك ، وتحثه لما أغفل من أمرك ، على نص مكارم من سلف . وترى أنه يهش إلى مساجلتهم ، فلا يبلغ في هذا أكثر من إحراز الفضيلة للمرغوب إليه الخ » .

ويقول في ختام القسم الأول وبدء القسم الثاني :

« وقال أفلاطون : من حسنت مكافأته لم تغضبه خيئته فيما التمسه ؛ لأنه يقيم العوارف مقام ديون يتحملها ، لا يسمعه إغفال قضائها . وإنما يغضب من المنع من أثر تحصيل العارفة وإغفال المكافأة عليها . ولأن المرغوب إليه إذا كان يحتاج إلى مطالعة حسن المكافأة للاحسان فيثابر عليه ، وسوء المكافأة على الإساءة فيتأخر عنه ؛ كان الراغب محتاجاً أن يكون في خلده من أخبار من أساء الصنيع فسأت مكافأته ، ما يوازي ما أثبتناه من حسن المكافأة للاحسان .

ويقدم للقصص التي أوردها في حسن العقبي بقوله :

« وإذ وفينا ما وعدناك به من أخبار المكافأة على الحسن والقبيح . ما رجونا

أن يكون عوناً للاستكثار من مواصلة الخير ، وتطلب العارفة في الحسن ، وزجر النفس عن متابعة الشر ، وإبعادها عن سورة الانتقام في القبيح — وقد قالوا :
 الخير بالخير والبادى أخير ، والشر بالشر والبادى أظلم — رأيت أن أصل ذلك ،
 حفظك الله ، بطرف من أخبار من ابتلى فصبر ، فكان ثمرة صبره حسن العقبي ،
 لأن النفس إذا لم تمن عند الشدائد بما يحدد قواها تولى عليها اليأس فأهلكها .
 وقد علم الإنسان أن سفور الحالة عن ضدها حتم لا بد منه ، كما علم أن انجلاء الليل
 يسفر عن النهار ، ولكن خور الطبيعة أشد ما يلزم النفس عند نزول الكوارث ،
 فإذا لم تعالج بالدواء اشتدت العلة ، وازدادت المحنة . والتفكر في أخبار هذا الباب
 مما يشجع النفس ، ويبيئها على ملازمة الصبر . وحسن الأدب مع الرب عز وجل
 يحسن الظن في موآنة الإحسان عند نهاية الامتحان ، والله ولى التوفيق .

آثرت نقل هذه النصوص الثلاثة ليستبين القارىء منها غاية المؤلف في كل
 قسم . وقد كانت مقدمة القسمين الأول والثاني غامضة تحتاج إلى وقفة عندها قبل
 أن يظهر المراد منها . أما هذه الفقرة الأخيرة فأسلوبها واضح ، والمفهوم منها معين .
 وكذلك القصص التي أوردتها في كتاب المكافأة فإنها تسير على نحو هذا القسم
 الأخير في الوضوح والسهولة غالباً .

تخير المؤلف قصصه من أمم وعصور وبيئات مختلفة ، فكان منها العراقي
 والمصرى ، وكان منها العربى والفارسى والرومى ، وكان منها الطولونى والعباسى ،
 والإسلامى والجاهلى . كما اشتملت على قصص من أخبار السادة والعامة ، والصالحين
 والطالحين ، ولكنها كلها كانت مختارة ، بحيث تؤدي إلى الغاية المقصودة منها
 في القسم الذى تضمنها .

وتصويرها قوى للعصر الذى أخذت منه ، كالقصة الحادية والعشرين من
 مكافأة القبيح بالقبيح ، وانظر كيف تحدث في القصة الثانية عشرة عن الغلاء

واضطراب الرعية بسببه في زمن احمد بن طولون ، وأنه ركب ، وتقدم بمقوبة القماحين وازدحمت النظارة من السطوح عليه .

وترى فيها صوراً من عادات الناس وأخلاقهم ، كاهتمام قابلة أولاد خمارويه بحلوى العيد من أجل صبيانها ، وذهابها إلى أختها كي تقترض منها مالاً تشتري به هذه الحلوى (١) .

وقد يصور النفس الإنسانية على حقيقتها في بساطة وسهولة ، كما صور محبة الأم لابنتها ، وحرصها على جهازها ، وإن أدى بها ذلك إلى احتيالها على زوجها حتى فرط في ودعة عنده ، ولم تعبأ به عندما جاء صاحب الودعة يطلبها ، واكتفت بالنجاح الأول في أخذ الودعة وشراء الجهاز بها « وسوف تأتي هذه القصة » .

وتراه يحاول أن ينقل صورة الحوار الذي يجري بين اثنين من أبطال القصة ، فيزيدها بذلك قوة ؛ وانظر إلى هذا الحوار بين الأختين ، الغنية والفقيرة (٢) :

تقول الفقيرة : « فسكنت أجاهد في مؤونة ولدى ، وإذا وقف أمرى صرت إلى أختي فقلت : أقرضيني كذا وكذا ، استحياء من أن أقول لها : هي لى . ودخل رمضان فلما مضى نصفه اشتهوا على صبياني حلوى في العيد ، فصرت إلى أختي فقلت لها : أقرضيني ديناراً أعمل به للصبيان حلوى في العيد . فقالت : يا أختي تعيظيني بقولك أقرضيني ! وإذا قرضتك من أين تعطيني ؟ أمن غلة دورك أو بستانك . لو قلت : هي لى كان أحسن ! فقلت لها : أفضيك من لطف الله تعالى الذي لا يحتسب ... فتضاكت وقالت : يا أختي هذا والله من المنى ، والمنى بضائع النُّوكى (٣) . فانصرفت عنها أجرة رجلى إلى منزلى » .

وتكاد تلمس في هذه الفقرة وحوارها استحياء الفقيرة وأدبها ، ونحس حرصها

(٢) قصة ١٦ حسن العقي .

(١) قصة ١٦ حسن العقي .

(٣) الحقي .

على ألا تكسر قلوب أولادها في العيد . وترى فيها حرص الغنية على مالها وعلى الظهور بمظهر المحسن المتفضل ؛ وسخريتها من الاعتماد على الآمال .

وفي هذه الفقرة أيضاً طريقة التعبير العامية ، في إثبات واو الجماعة مع الفاعل ، « اشتهاوا على صيباني » وحذف النون من المضارع المتصل بياء المخاطبة ، مثل « يا أختي تعيظيني بقولك : أقرضيني . وإذا قرضتكَ من أين تعطيني » .

فإذا كان ابن يوسف قد أراد بهذا التعبير العامي مطابقة القول للغة القائل ، كان غريباً في حرصه على دقة التصوير وهو ينقل عبارات المتكلم العامية . أما إذا كان ذلك لهجة مصرية في اللغة العربية الأدبية بمصر ، في زمن أحمد بن طولون ، فهو نص تاريخي نستدل به على وجود هذه اللهجة في ذلك الحين .

وفيها من الكلمات والأمثال ما لا يزال باقياً في عاميتنا كقوله : فوجدناه قد ركب فحَصَلْني على الباب^(١) . ويستعمل كلمة « حاصل » بمعنى خزانة فيقول : لم يصبح في حاصل درهم واحد^(٢) « وأسباب السلطان بمعنى عماله » . وكلمة السَّلَيس بمعنى الزكينة مكررة مرات في قصة إليون ملك الروم^(٣) . والمثل العامي « من عمود لعمود يأتي الله بالفرج » له أصل عنده إذ يقول : « إن من عمود إلى عمود فرجا^(٤) » . وكذلك قول المستيقظ من حلم « خير إن شاء الله^(٥) » .

ويستفهم بلا أداة إن كانت هل أو الهمزة كأن يسأل « ها هنا منزل محمد الغوري ؟ » في ثالث قصة نذكرها ، وكقوله : يحسن لشيخ مثلي أن يترخ في المعروف ؟^(٦) .

وتمتاز قصصه بالإيجاز والسهولة ، وقلة الحوادث والشخصيات ، والوصول إلى

- | | |
|-------------------------|----------------------------------|
| (١) قصة ١٥ القسم الأول | (٢) قصة ١٨ القسم الأول |
| (٣) قصة ١٦ القسم الثاني | (٤) قصة ٥ القسم الثاني |
| (٥) ١٢ القسم الثاني | (٦) القصة الثالثة من القسم الأول |

الغاية من أقرب طريق ، وقوة الربط بين القصة وغايتها غالبا .

وهذه قصص ثلاث ، واحدة من كل نوع :

(١) من مكافأة الحسن بالحسن ^(١) .

« وحدثني أحمد بن سقلاب قال :

كان بمصر رجل من الفقهاء مشهور الاسم ، وله حلقة عظيمة بالجامع . فبينما هو في صدرها إذ وافى إعلان بن المغيرة ، فلما رآه مقبلا نحوه قام إليه على رجليه ، ثم خطا إليه حتى لقيه . فأكثر الجماعة قيام شيخ مثله إلى حدث مثل إعلان ، وتحفّيه به ، وعرض نفسه عليه ، وأنه لم يدع شيئا يفعله تابع بمتبوع إلا بذله ، وأسررنا المودة عليه . فلما قام إعلان . قال لجماعتنا : ما أعلمني بما أضمرتم ، ولكني أريكم عذري فيما خرجت إليه :

كانت عندي ألف دينار ، وديعة لرجل بالمغرب ، قد طال مقامها ، وطالب زوج ابنتي بإدخال امرأته عليه . فجلست أمها بحضرتي ، فقالت لي : ما الذي تراه فيما قد ألح فيه هذا الرجل ؟ فقلت لها : نستعمل فيه التجوز . فقالت لي : لنا حساد نخاف شماتتهم ، ولا بد من أن تعينني على التجميل . فقلت : إن كان ما تريدن في قدرتي لم أبخل به عليكم . قالت : هو في قدرتك . قلت : ما هو ؟ قالت : تمكنني من هذه الوديعة ، ونحتاط فيما نبتاعه من الجهاز حتى يصل إلينا ثمنه في أي وقت أردناه ، وندخل هذه الصبية على زوجها ، فإن جاء صاحب الوديعة بعنا ما اشتريناه ولم نوضع فيه إلا ما يسهل عُمره . قلت : هذا قبيح عند الله وعند خلقه . فلم تزل تلح بي وتحتال على حتى أجبته . فجهزت ابنتها بجميع المال ، وأدخلتها على زوجها .

فلم يمض بنا بعد ذلك إلا شهران حتى وافى صاحب الوديعة يطلبها . فقلت لها

ما تفعلين ؟ فقالت : أمضى فأحمل المتاع وأبيعهُ ، فمضت إلى ابنتها ورجعت إلى
 فقالت : لا تشغل نفسك بهذا المتاع ؛ فقد حلف زوجها بطلاقها أنه لا يخرج منه
 شيء عن منزله . فسقط في يدي ، ورأيت الفضيحة في الدارين متصدية لي .
 فوضع إفطاري بين يدي فلم أطعمهُ ، واعتراني ما خفت منه على عقلي ، وبت ليلة
 ما بتُ بمثلها ، وأنا أتبين سهولة ذلك على زوجتي في جنب ما أحرزته لبنتها . ثم
 انتبهتُ قبل الفجر بمنازل ، فصحت بالغلام : أَسْرِجْ لي . فقام وأسرج وقال :
 ياسيدي ، أين تمضي ! فقلت : ليس لك الاعتراض على . وركبت وسرت بطوع
 عناني ، فلم يزل بغلي يسير حتى دخلت زقاق علان بن المغيرة . فوقفت على باب داره
 وصاح الغلام بالبواب وعرفه بموضعي . فسمعت حركة في داره ، ثم فتح الباب
 وأذن لي بالدخول ، فدخلت عليه فوجدت بين يديه شمعة وهو يكتب جوابات
 كتب وكلائه . فلما رأيته قام إلى ، وقال لمن حضره من الغلمان : تنحوا . وأقبل
 على فقال : والله لو بعثتُ إلى لسرت إليك ، ولم أجشمتك السعي إلى ، فأشرح لي
 أمرك . فغلبتني العبرة ، وحالت بيني وبين الكلام ، فما زال يسكنني حتى قصصت
 له إنفاق الوديعه . وهو مغموم بأمرى . ثم قال : فكُم هذه الوديعه ؟ فقلت ألف
 دينار . فضحك وقال : فرجت والله عني ! ما توسمتُ أني أملكها ، فكان الغم
 يقع بها ! فأما وهي في القدرة فما أسهلها علي ، وأخفها لدي ! ثم قال لغلامه : جئني
 بتلك الصرار التي وردت علينا من المغرب في هذا الشهر ، فجاء بأربع صرار ، فنظر
 فيما عليها وجمعه ، وقال هذا ألف وخمسمائة دينار ، ألف للوديعه ، وخمسمائة تصلح بها
 ما بينك وبين من عندك . ثم قال لي : متى أشكر أفرادك إياي ، بعد الله عز وجل
 ذكره ، بتأملي في حادثة حدثت عليك ، فأعاني الله على مكافأتك ؟ وأضاف إلى
 من خفرتني إلى منزلي .

فقالت الجماعة : قد سمعنا عذرک ، وعلينا عهد الله إن لقيناه أبدا إلا قياما .

ب — ومن مكافأة القبيح بالقبيح ، ما رواه أحمد بن يوسف قال :

« حدثني نسيم الخادم أيضاً^(١) .

أن أحمد بن طولون كان مذعوراً من خروج أبي عبد الرحمن العمرى ، فوافاه الخبر بقتل غلمان أبي عبد الرحمن إياه ، وانتشار أمره . ثم صار إليه جماعة تقارب العشرة ومعهم رأس . فقالوا : نحن غلمان العمرى وهذا رأسه . فجمع الخاص والعام وأدخلهم إليه ، واستحضر قوما استأمنوا إليه فسألهم عن الرأس . فأجمعوا على أنه رأس أبي عبد الرحمن ، وأن الغلمان من خاصته .

فقال أحمد بن طولون لهم : هل كان مسيئاً إليكم . قالوا : لا والله ولقد كان محسناً إلينا ، ومفضلاً علينا . قال : فما حملكم على قتله ؟ قالوا : طلبنا الحظوة عندك والمكانة منك . فقال : قتلتم مولاكم المحسن إليكم بالتطرب إلى المزيدي . ثم أمر بهم فشق عن جماعتهم ، وأخذتهم السياط حتى سقطوا ، وضربوا على رؤوسهم بالشدوخ^(٢) حتى ماتوا جميعاً ، وأمر بدفن رأس أبي عبد الرحمن .

ح — ومن قصص حسن العقبي .

حدثني محمد بن صالح الغورى قال^(٣) :

كانت لى بضاعة أعود بفضلها على شملى . فافترقت فى معاملات فى الصعيد ، وخرجت إلى من عاملته فجمعتها ، وكان مقدارها خمسمائة دينار . وخرجت أريد القسطنطين فى رفقة كثيرة الجمع . فلما كان منتصف طريقنا وافى جمع من الصعاليك فسلب الناس جميعاً . ودهشت ، فرأيت منهم شاباً حسن الصورة . فقلت له : والله ما أملك غير هذا الكيس فارفعه لى عندك . فقال : وأين بيتك بالقسطنطين ؟ فقلت فى دور عباس بن وليد . فقال : ما اسمك ؟ قلت : محمد الغورى . قال : امض لشأنك

(٢) الشدوخ أداة يكسر بها .

(١) ص ٦٤ المكافأة

(٣) ص ٩٩ المكافأة

وجاء منهم من قلع ثيابي وسراويلي وانصرفوا عنا . ولم أزد أن سوغت واحدا منهم جميع ما كان معي . ودخلنا إلى الفسطاط ونحن فقراء . فرجع كل واحد منهم إلى ما تخلف له ، وبقيت ليس معي درهم أنفقه .

وإني لجالس على درجة المسجد بين المغرب وعشاء الآخرة حتى رأيت رجلا قد وقف بي . فقال لي : ها هنا منزل محمد الغوري ؟ قلت : أنا هو ولا والله ما اهتديت إلى الرجل الذي أعطيته المال ، لأنه كان عندي أول مال ذاهب^(١) . فقال لي : عنيتني . وأخرج الكيس فدفعه إلي . فرُدَّتْ عليَّ جِدَّتِي وتطعمتُ الحياة . وكان بالقرب منا قائد يعرف بابن قرا ، كنت معاملا له وكان له محل . فسألت اللص المبيت عندي ففعل . فأصبحت وصرت إلى ابن قرا ، وقصصت عليه قصة الرجل . فقال لي : ألفت لي فيه ، فوالله لأنوّهنَّ باسمه ، ولأُكافئنّه عنك . فرُحْتُ إليه فأخبرته ، فوالله ما ارتاع ولا اضطرب ومضى معي . فأحسن تلقيه ، وخلع عليه ، وصيرته سيارَة لعمله ، وضم إليه عدةً وافرة . ولم يزل في حيزه إلى أن توفي .

وكان يعاصره أبو محمد عبد الله بن محمد المديني البلوي ، واقتبس في كتابه « سيرة أحمد بن طولون » نحو خمسين قصة من قصص ابن الداية المذكورة في كتابيه : « سيرة ابن طولون ، والمكافأة » ، وزاد من عنده نحو أربعين قصة . وكثير من حكايات البلوي مفصلة فيها زيادات^(٢) .

وقد قابلت بين القصة الثالثة من القسم الأول مكافأة الحسن بالحسن ، ومثيلتها في صفحة ٢٣- سيرة ابن طولون للبلوي وعنوانها « أعرابي أراد أن يفدى صاحبه بماله ودمه » ، فلم أجد فرقاً في عناصر القصة ، وكل ما هنالك اختلاف في التعبير ،

(١) العبارة غامضة .

(٢) كتابه « سيرة أحمد بن طولون » مطبوع بتحقيق العلامة محمد كرد علي سنة ١٣٥٨ هـ .

فقد يورد ابن الداية المعنى فى جملة كقولہ : « فكتب إلى يستخبرنى عن حاله » ويوردها البلوى مع إضافة يسيرة كقولہ فى نفس القصة ، « فكتب إلى يستخبرنى عما أف عليه من حاله » . وقد يزيد على جملة ، ويفصل فى بعض المواقف ، ولكنه لا يخرج عن الحوادث والغاية والأشخاص ، ويقل الاختلاف فى أول القصة ، ثم يكثر فى أثنائها .

وقابلت بعض قصص أخرى فى المكافأة بمثلها فى سيرة أحمد بن طولون للبلوى ، فتبين لى دقة الحكم الذى جاء به العلامة محمد كرد على عندما قارن بين سيرة ابن طولون ، وبين كتابى أحمد بن يوسف « سيرة ابن طولون ، والمكافأة » فى مقدمة الكتاب الأول^(١) .

ويظهر من قوله أن ابن الداية أسبق من البلوى ، وأن البلوى ناقل أحيانا ؛ وله بعض التصرف ، وحسن التعبير وشيء كثير أو قليل من الزيادة أحيانا أخرى ، ويأخذ عليه أنه لم يشر إلى الأصل الذى أخذ منه .

أما قوله عن أحمد بن يوسف : « وَحَوْكُ ابْنِ الدَايَةِ مِنْ أَجْمَلِ مَا حَاكَ بَلْغَاءُ الْعَرَبِيَّةِ » ، فهو قول صحيح فى جملة . وإن أخذ عليه بعض الغموض أحيانا . ومن ذلك ما قدمته بين يدى القسم الأول والثانى من قصص الكتاب^(٢) .

وها نحن أولاء نرى مصر فى أوائل القرن الرابع قد شهدت ظهور قصص أدبى حى له غاية ، وفيه تصوير قوى . مع السهولة والإيجاز .

(١) ص ١٠ ، ١١

(٢) ص ٦٧ من هذا الكتاب .

الفصل الرابع

كتابة الرسائل

— ١ —

من عمرو إلى ابن طولون

كتابة الرسائل ، أو الكتابة الإنشائية ، نوع من النثر الفني المسطور الذي يعتمد على الأفكار المنظمة تنظيماً جيلاً ، وعلى صياغة هذه الأفكار في عبارات وألفاظ متخيزة ويكون التراسل به بين طرفين غالباً ، وله رسوم في البدء والختام تميزه عن غيره من أنواع النثر الأخرى .

ويطلق مؤرخو الأدب العربي كلمة الكتابة على هذا النوع ، ومن ذلك القول الشائع : « بدئت الكتابة بعبد الحميد وختمت بابن العميد » — وإن لم تختم إلى الآن — .

ويقسمون الرسائل قسمين عامة وخاصة ، وتسمى الأولى الديوانية ويقصدون بها الرسائل الإنشائية التي تصدر عن الخلفاء والأمراء والسادة والقادة ، في شأن من شؤون الدولة ، أو في مسألة عامة يهتم بها الحاكمون . والثانية الإخوانية ويقصدون بها الرسائل الخاصة التي تجري بين الناس في أمور تعينهم . وتطور هذا النوع من الكتابة حتى شمل مختلف الشؤون التي تهتم الأفراد والجماعات . وتغير لفظه ومعناه ، وأساليبه وعباراته وموضوعاته ؛ فصار من العسير أن تعين له موضوعاً ، أو أن تقتصره على نوع من المعاني ، أو أن تخصه بطائفة من الأفكار ، ووصل إلى غاية سامية من التنوع والقوة في القرن الرابع الهجري ، وشمل من المعاني

ال عاطفية رسائل العتاب والشفاعة والاعتذار والشكوى والتهديد والاشتياق والمدح وغير ذلك .

وولى أمر الكتابة رجال عرفوا بسعة المعارف ، وجودة الروية ، وحسن التصرف ، وجمال التعبير .

وكان استقلال ابن طولون فاصلا بين عهدين من عهود الكتابة الإنشائية بمصر ؛ أولهما من عمرو بن العاص إلى ابن طولون ، وثانيهما من ابن طولون إلى قيام الفاطميين .

وفي هذا الفصل حديث الكتابة إلى زمن ابن طولون :

(١) فى زمن الراشدين .

لما قدم عمرو بن العاص بجنوده لغزو مصر ، وقادهم إلى نصر مؤزر ، وفتح مابين فدانت لهم البلاد ، وفتح الله عليهم هذا الوادى الخصيب . كان أهم ما يشغلهم فى عهدهم الأول -- عهد عمر -- أن تكون صلتهم بالمدينة المنورة متصلة ، وأن تجرى بينهم وبينها مراسلات ، يخبرون الخليفة فيها بأخبار الحرب والصلح والنصر والغنائم والخراج ، وبكل ماله ارتباط بإدارة البلاد وسياستها مما يحتاجون فيه إلى رأى الخليفة وأوامره ، فكانوا يطلبون منه العون عند الحاجة ، ويخبرونه بشروط الصلح إذا كان صلح ، ويخبرونه بالنصر إذا جاءهم به الله ، وقد يصفون له أحوال البلاد ، ويذكرون له طبيعة أرضها ، وما تنبت من زروع وثمار ؛ ويصفون أحوال النهر الذى يسقى هذه البلاد ، وزمان فيضه وغيبضه ، ويذكرون له أزمان الحصاد ، ومقدار الخراج ومواعيد الجباية ، وغير ذلك من شئون السياسة والحرب والإدارة .

وكان العرب فى مصر ، كما كانوا فى الحجاز والشام والعراق ، حديثى عهد بالكتابة ، ليس لهم فيها نظام قديم ، ولا تقاليد سابقة ، ولا فروق معينة بين نوع

منها ونوع . فكانوا من أجل هذا أحراراً في رسائلهم ، يكتب كل منهم على سجيته ، لا يقيد به إلا عبارات البدء والختام الدينية وفكرته عن الموضوع ؛ كان حراً في أن يكتب عن المعاني التي تدور في خاطره عندما يعترزم الكتابة ، مع الإيجاز وحسن الأداء . فامتزج الأدب برسائل السياسة والإدارة ، وصبغت هذه الرسائل بصبغة أدبية ، حتى في الموضوعات التي تبدو إدارية خالصة . ونذر أن تشذ رسالة أو عهد أو وصية عن هذا . وليس غريباً أن تكون كتاباتهم على هذه الصفة إذا عرفنا أن الذين كانوا يتولونها هم سادتهم وكبرائهم من الخلفاء وقواد الجيوش ، ومستشاريهم وأعوانهم .

ويمثل هؤلاء السادة في مصر عمرو بن العاص رضي الله عنه . وقد رويت عنه رسائل قوية الأداء جميلة التعبير . ومن أقوى رسائله وأشهرها رسالته في وصف مصر كتب إليه عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، يسأله وصفها ^(١) ، فكتب إليه : « إن مصر تربة غبراء ، وشجرة خضراء ، طولها شهر ، وعرضها عشر ، يكتنفها جبل أغبر ، ورمل أعفر ، يخط وسطها نهرٌ ميسمون الغدوات ، مبارك الروحات ، تجري فيه الزيادة والنقصان كجري الشمس والقمر ، له أوانٌ ، تظهر به عيون الأرض وينابيعها ، حتى إذا عَجَّ عَجَّاجه ، وتعظمت أمواجه ، لم يكن وصولٌ بعض أهل القرى إلى بعض إلا في خفافِ القوارب وصغار المراكب ، فإذا تكامل في زيادته نكص على عقبه ، كأول ما بدا في شدته ، وطما في حدته ، فعند ذلك يخرج القوم ليحرثوا بطون أوديته ورواييه ، يبدرون الحب ويرجون الثمار من الرب ، حتى إذا أشرق وأشرف ، سقاه من فوقه الندى ، وغداه من تحت الثرى ، فعند ذلك يدِرُّ حلاله ، ويغنى ذبابه . فبينما هي يا أمير المؤمنين ورقةٌ بيضاء ، إذا هي عنبرةٌ سوداء وإذا هي زرجدة خضراء ، فتعالى الله

الفعال لما يشاء .

« والذي يصلح هذه البلاد وينميتها ألا يقبل قول خسيسها في رئيسها .
والألا يستأدى خراج ثمرة إلا في أوانها ، وأن يصرف ثلث ارتفاعها في عمل جسورها
وترعها .

فإذا تقرر الحال مع المال في هذه الأحوال ، تضاعف ارتفاع المال ، والله
تعالى يوفق في المبتدأ والمآل .

وأظهر ما في هذه الرسالة غلبة السجع عليها ، لكنه سجع لا تكلف فيه
ولا تَعْمَل ، فهو عذب سائغ ؛ وتظهر فيها دقة الوصف وشموله أيضاً ، فقد وصف
جانبيها الجديب والخصيب ، وبين ذرعها طولاً وعرضاً ، وتحدث عن نهرها في
حالتها ، فوصفه خالياً وطامياً ؛ ووصف الناس وأعمالهم زمن الفيضان وبعده . إلى
آخر ما جاء فيها .

وقد وُجِه إلى هذه الرسالة طعون تنكر نسبتها إلى عمرو وإلى هذا العصر؛
وتنسبها إلى غيره من العصور المتأخرة التي نضجت فيها الكتابة العربية ، واهتم
رجالها بالحليلة اللفظية ، وترتيب المعاني واستقراءها . ونسبت بعض الروايات^(١) إلى
هذه الرسالة دعاءً في أولها لأمر المؤمنين . وأنها لم تبدأ بحمد الله ولا بسلام على
المرسل إليه في تلك الرواية .

وعندى أن هذا كله لا يكفي لإنكار نسبتها في جملتها لعمرو بن العاص ؛ فهذا
الوصف الذي كتبه وصف حسي ، يستطيع أن يكتبه كل من عنده قدر من الملاحظة .
وقد عرفها عمرو قبل الإسلام ، ثم زلها فاتحاً فوجب أن يعرف شيئاً عن طبيعة
البلاد ، وطاف في كثير من أرجائها عند فتحها^(٢) .

وطالت إقامته فيها فشاهد كل ما وصفه في رسالته . وكان وصفه لها بعد أن

(١) النجوم الزاهرة ج ١ ص ٣٢ (٢) ص ٤ من هذا الكتاب .

استوصفه عمر ؛ إذ كان حريصاً على معرفة أحوال المسلمين ، والبلاد التي ينزلون بها ؛ ليرى رأيه في أحوالهم ومنازلهم ، ويأمر بما يراه صالحاً لهم . وشبيه ذلك ما فعله بالعراق ، فقد أرسل إلى سعد بن أبي وقاص أيضاً وهو في القادسية يقول له : « فصف منازل المسلمين ، والبلد الذي بينكم وبين المدائن ، صفة كَأَنِّي أنظر إليها واجملني من أمركم على الجَلِيلَةِ » ^(١) . فكتب إليه سعد يصف القادسية وما حولها . أما ميل عمرو رضي الله عنه إلى الوصف فله أكثر من مثال : منها الوصف الذي تقدم ، ومنها وصفه للإسكندرية ^(٢) بعد فتحها ، ومنها وصفه للبحر .

وما علينا من حرج في أن نذكر قصة هذا الوصف :
 روى أن معاوية — وهو وال على الشام — أرسل إلى الخليفة عمر يستأذنه في فتح قبرص ، ويذكر له قربها من الساحل ، حتى قال له : « إن قرية من قرى حمص ليسمع أهلها نُبَاحَ كلابهم ، وصياحَ دَجَاجِهِمْ (يقصد قبرص) » ، فكاد ذلك يأخذ بقلب عمر ؛ ولكنه أتهمه ، وكتب إلى عمرو بن العاص : أن صف لي البحر وراكبه ؛ فإن نفسي تنازعني إليه .
 فكتب إليه عمرو :

إني رأيت خلقاً كبيراً يركبه خلق صغير ، إن ركنَ خرَّقَ القلوب ، وإن تحركَ أزاغَ العقول ، يزداد فيه اليقين قلة : والشك كثرة ، هم فيه كدود على عود إن مال غمِرِقَ ، وإن نجا بَرِقَ ^(٣) .

وكتب هذا الوصف للبحر وهو وال على مصر .
 وقد عرف عن عمرو أنه وصف نفسه أيضاً ^(٤) .

(١) تاريخ الأمم الإسلامية للخضري ج ١ ص ٢٩٩ .

(٢) المقرئ ج ١ ص ١٦٦ .

(٣) تاريخ الإسلام للنجار ص ٨٨ .

(٤) النجوم الزاهرة ج ١ ص ٦٢ .

فعمرو وصاف للبلاد والمدن والبحر والرجال .

أما الناحية اللفظية أو الناحية الشكلية ، فليست ضعيفة أمام الطعن الذى يوجه إليها ، إذ أن السجع فيها ليس غريبا على عمرو بن العاص ، وأقرأ خطبته السابقة^(١) ووصفه القريب للبحر ؛ ففيهما السجع المقبول ، كما فى رسالته التى نتحدث عنها ، وفى إنشاء عصره كثير من السجع أيضا . فليس السجع غريبا عليه ولا على زمنه . وأما خلو الرسالة من بعض عبارات البدء والختام التى كانت متبعة فى عصره كالبسمة أو الحمدلة أو السلام ، فلا يطعن فى الرسالة أيضا ، إذ أن الرواة كانوا يشيرون إلى ذلك ، وقد يتركونه اكتفاء بما هو معروف من التزام الكتاب والخطباء لهذه العبارات . ولو أن شيئا منها قد أهمل فى رسالة عمرو لالتفت إليه الرواة ونصوا عليه ، كما التفتوا إلى إهمال زياد أن يبدأ خطبته بحمد الله ، فسموها « البتراء » .

لكن هذا الدفاع عنها لا يمنع أن يكون الدعاء لأمر المؤمنين ، الوارد فى بعض رواياتها ، شيئا أضيف إليها فيما بعد ، وكذلك الجزء الأخير منها ؛ لأنه ضعيف السجع متكلف التركيب ، بآدى المزال .

واختلاف الروايات فى هذه الرسالة يقطع بأن بعض التغيير والتبديل قد أصابها إما من فعل الرواة أو من عمل النساخ . كما حدث هذا فى كثير من النصوص الأدبية التى تداولتها الأيام رواية وحفظا .

وكان لعمرو رسائل أخرى يرد بها على أمير المؤمنين فى حسابه العسير الذى كان يصيبه ويصيب غيره من عمال الدولة . ولدينا من ذلك مراسلات بينهما يبدأ الخليفة فيها باتهام عمرو ، ويدفع عمرو عن نفسه بأعذار يراها مبررة ، ولا يقبل الخليفة

(١) ص ٢١ من هذا الكتاب .

منه عذره . وهذه بعض الرسائل :

كتب عمر بن الخطاب :

« من عبدالله عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص . سلام عليك فإنه بلغني أنه فَسَّتْ لك فاشية من خيل وإبل وغنم وبقرة وعبيد ، وعهدى بك قبل ذلك ألا مال لك ، فاكتب إلى من أين أصل هذا المال ولا تسكتهم » .
فكتب إليه :

« من عمرو بن العاص إلى عبد الله أمير المؤمنين ، سلام عليك ، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو ، أما بعد . فإني أتاني كتاب أمير المؤمنين يذكر فيه ما فشا لي ، وأنه يعرفني قبل ذلك لا مال لي . وإني أعلم أمير المؤمنين أني ببلد السمر في رخيص ، وإني أعالج فيه من الحرفة والزراعة ما يعالج أهله ، وفي رزق أمير المؤمنين سعة . والله لو رأيت خيانتك حلالا ما خنتك ، فأقصر أيها الرجل ، فإن لنا أحسابا هي خير من العمل لك ، إن رجعنا إليها عشنا بها ! ولعمري إن عندك من تدم معيشتها ولا تدم له ، فأني كان ذلك ولم يفتح قفلك ؛ ولم نشررك في عملك » .

فرد عليه عمر :

« أما بعد . فإني والله ما أنا من أساطيرك التي تسطر ، ونسقت الكلام في غير مرجع ، لا يعني عنك أن تترك نفسك ، وقد بعثت إليك محمد بن مسلمة فشاطره مالك ، فإنكم أيها الرهط الأمراء جلستم على عيون المال ... تجمعون لأبنائكم ، وتمهدون لأنفسكم . أما إنكم تجمعون العار ، وتورثون النار ، والسلام » .

وذهب إليه محمد بن مسلمة وشاطره ، وأبى أن يشرب عنده شربة ماء ، وغضب عمرو وسخط ؛ فكتب محمد بن مسلمة ذلك ولم يخبر به أمير المؤمنين ^(١) .
وزي في رد عمرو أنه بدأ هادئاً ، يفند التهم ويعتذر عما أخذ عليه . ثم يشور

(١) العقد ج ١ ص ٢٦ ، صبح الأعشى ج ٦ ص ٤٧٧ .

فجأة ، وينفجر انفجارا حين يقول للخليفة : « فأقصر أيها الرجل ! فإن لنا أحسابا هي خير من العمل لك » ، ولم يعبأ الخليفة بهذه اللهجة فكان رده عليه قاسيا ، صريحا في الاتهام بلا خوف ولا مجاملة .

وكان عمرو يتلقى من أمير المؤمنين رسائل عنيفة بين الحين والحين ، وهذه إحداها :
لما استبطأ عمر بن الخطاب رضى الله عنه الخراج من قبل عمرو بن العاص كتب إليه :

« بسم الله الرحمن الرحيم : من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى عمرو بن العاص : سلام عليك ، فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو ، أما بعد ، فإنى فكرتُ فى أمرك والذى أنت عليه ، فاذا أرضك أرضٌ واسعة ، عريضة رفيعة ، قد أعطى الله أهلها عدداً وجَلداً ، وقوة فى برٍّ وبحر ، وإيها قد عاجتها الفراعنة ، وعملوا فيها عملاً محكماً ، مع شدة عُتُوهم وكفرهم ، فعجبت من ذلك ، وأعجب مما عجبت أنها لا تؤدى نصف ما كانت تؤديه من الخراج قبل ذلك ، على غير قحوط ولا جدب . ولقد أكرتُ فى مكاتبتك فى الذى على أرضك من الخراج ، وظننت أن ذلك سيأتينا على غير تريث ، ورجوت أن تفيقَ فترفعَ إلىَّ ذلك ، فاذا أنت تأتبنى بمعاريض^(١) تعابها ، لا توافق الذى فى نفسى ، ولستُ قابلاً منك دون الذى كانت تؤخذُ به من الخراج قبل ذلك ، ولست أدرى مع ذلك ما الذى نفرك من كتابى وقبضك ، فلئن كنت مجرباً كافياً صحيحاً إن البراءة لنافعة ، ولئن كنت مضيعاً نُطعماً^(٢) إن الأمر لعلّى غير ما تحدث به نفسك ، وقد تركتُ أن أبلى ذلك منك فى العام الماضى ، رجاء أن تفيقَ فترفعَ إلىَّ ذلك . وقد علمتُ أنه لم يمنعك من ذلك إلا عمالك عمالُ السوء ، وما توالس^(٣) عليه وتكفف^(٤) . اتخذوك كهفاً ،

(١) معاريض : إجابات غير صريحة . (٢) نطعاً : بضم الطاء والعين ، متشدداً فى كلامك .

(٣) توالس : تحادع . (٤) تكلف : تجمع من هنا وهناك .

وعندى بإذن الله دواء فيه شفاء عما أسألك عنه ، فلا تجزع أبا عبد الله أن يؤخذ منك الحق وتعطاه . فإن النهر يخرج الدر ، والحق أبلج ، ودعنى وما عنه تلجلج ، فإنه قد برح الخفاء ، والسلام ^(١) » .

وهذا رد عمرو :

بسم الله الرحمن الرحيم ، لعبد الله عمر أمير المؤمنين من عمرو بن العاص :
سلام عليك ، فإني أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو ، أما بعد فقد بلغنى كتاب أمير المؤمنين فى الذى استبطأنى فيه من الخراج ، والذى ذكر فيه من عمل الفراعنة قبلى ، وإعجابه من خراجها على أيديهم ، ونقص ذلك منها منذ كان الإسلام ، ولعمري للخراج يومئذ أوفر وأكثر ، والأرض أعمر ؛ لأنهم كانوا على كفرهم وعتوهم أرغب فى عمارة أرضهم منا ، منذ كان الإسلام . وذكرت أن النهر يخرج الدر فخلبستها خلْباً قطعَ درَّها ، وأكثرت فى كتابك وأنسبت ، وعمرت وتربت ، وعلمت أن ذلك عن شئ تخفيه على غير خبير ، فحُت لعمري بالمقطعات المقذعات ، ولقد كان لك فيه من الصواب من القول رصين صارم ، بليغ صادق ، وقد عملنا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولمن بعده ، فكنا بحمد الله مؤدبين لأمانتنا ، حافظين لما عظم الله من حق أمتنا ، نرى غير ذلك قبيحاً ، والعمل به شيناً ، فيُعرفُ ذلك لنا ، ويصدقُ فيه قلبنا . معاذ الله من تلك الطعم ، ومن شر الشيم ، والاجترأ على كل مأثم ، فاقبض عملك ، فإن الله قد زهنى عن تلك الطعم الدنية والرغبة فيها ، بعد كتابك الذى لم تستبق فيه عرضاً ، ولم تسكرم فيه أخاً ، والله يابن الخطاب لآنا حين يرادُ ذلك منى ، أشدُّ لنفسى غضباً ولها إزهاها وإكراماً ، وما عملت من عمل أرى علىَّ فيه متملقاً ، ولكنى حفظت ما لم تحفظ ، ولو كنت من يهود يثرب ما زدت . يغفر الله لك ولنا ؛ وسكتُ عن أشياء

كنت بها عالماً ، وكان اللسان بها مَنى ذلولاً . ولكن الله عظيم من حَقِّكَ
مالاً يُجْهَل ، والسلام^(١) .

فهذا اعتذار من تهمة ، وتنصل من قذف ، ودفاع عن شرف ، وإنك لترى
فيه نفس المغيظ الثائر ، وأدب المردوس التابع ، واعتزازاً بزاوية الولاية ، واستقالة
من سوء ظن الخليفة به ، وعتباً وتذكيراً .

وكان هناك رسائل في عهد عثمان ، كتب بها الثأرون بعضهم إلى بعض ،
يذكرون سيئات عثمان عندهم ، وعيوبه في نظرهم ، ثم جاوزوا النقد إلى الثورة ،
واثتمروا بقتله ؛ وكان قتله باب فتنة كبرى شبت نارها في البلاد الإسلامية لم
يُخمد لهيبها .

وبويع بعده علي ، واتهم بالتهاون في القصاص من قاتليه ، وأبى معاوية أن
يبايعه ، ثم نازعه في الأمر ، وطلب الخلافة لنفسه ، وكان للنزاع بينهما صدى
حربي وأدبي في مصر ، أشرنا إلى جزء منه في حديثنا عن الخطابة^(٢) . واستعان
كل منهما ومن أنصارها بالبيان وسحره ، وأثر لنا من ذلك العهد رسائل صدرت
عن مصر أو وردت إليها ، صارت جزءاً من تاريخها ، وسجلاً من سجلات
أحداثها . تمتاز بقوة بواعثها ، وحرارة النزاع فيها ، وثورة العواطف في سطورها ،
وغليان النفوس في عباراتها ، وحرية القول في ثنائياها ؛ طعنًا أو تهديدًا ، أو دفاعًا ،
أو ثناء ، أو إغراء ، أو غير ذلك مما اشتملت عليه هذه الرسائل .

ومنها رسالة من سيدنا عليّ بعث بها إلى أهل مصر^(٣) مع قيس بن سعد بن
عبادة ، يقدمه إليهم لما ولاه عليهم . فخرج قيس في سبعة نفر من أصحابه حتى دخل

(١) حسن المحاضرة ١ : ٦٤ ، خطط المقرئ ١ : ٨٧

(٢) ص ٢٨ من هذا الكتاب .

(٣) أشير إلى هذه الرسالة في ص ٢٨ من هذا الكتاب أيضاً .

مصر ، فصعد المنبر فجلس عليه ، وأمر بكتاب معه من أمير المؤمنين ، فقرأ ، على أهل مصر ، وفيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله على أمير المؤمنين ، إلى من بلغه كتابي هذا من المؤمنين والمسلمين :

سلام عليكم ، فإني أحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو ، أما بعد ، فإن الله عز وجل ، بحسن صنيعه وتقديره وتدييره ، اختار الإسلام ديناً لنفسه وملائكته ورسله ، وبعث به الرسل عليهم السلام ، إلى عباده ، وخص به من انتخب من خلقه ، فكان مما أكرم الله عز وجل به هذه الأمة ، وخصهم به من الفضيلة ، أن بعث إليهم محمداً صلى الله عليه وسلم ، فعلمهم الكتاب والحكمة ، والفرائض والسنة ، لكي ما يهتدوا ، وجمعهم لكيلا يتفرقوا ، وزكاهم لكي ما يتطهروا ... فلما قضى من ذلك ما عليه ، قبضه الله عز وجل ، صلوات الله عليه ورحمته وبركاته ، ثم إن المسلمين استخلفوا به أميرين صالحين ، عملاً بالكتاب والسنة . وأحسننا السيرة ، ولم يعدوا السنة ، ثم توفاهما الله عز وجل ، رضى الله عنهما . ثم ولي بعدهما والي ، فأحدث أحداثاً فوجدت الأمة عليه مقالا فقالوا . ثم تقدموا عليه فغيروا ، ثم جاءوني فبايعوني ، فاستشهدني الله عز وجل بالهدى ، وأستعينه على التقوى ؛ ألا وإن لكم علينا العمل بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، والقيام عليكم بحقه ، والتنفيذ لسنة ، والنصح لكم بالغيب ، والله المستعان ، وحسبنا الله ونعم الوكيل .

« وقد بعثت إليكم « قيس بن سعد بن عبادة » أميراً ، فوازره ، وكانفوه ، وأعينوه على الحق ، وقد أمرته بالإحسان إلى محسنكم ، والشدة على مريبكم ، والرفق بموامكم وخواصكم . وهو ممن أرضى هدي ، وأرجو صلاحه ونصيحته .

أَسْأَلُ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَنَا وَلَكُمْ عَمَلًا زَاكِيًا ، وَثَوَابًا جَزِيلًا ، وَرَحْمَةً وَاسِعَةً ،
وَالسَّلَامَ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةَ اللَّهِ وَبَرَكَاتِهِ .

« وَكَتَبَهُ « عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي رَافِعٍ » فِي صَفَرِ سَنَةِ ٣٦ » .

وَكُتِبَ مَعَاوِيَةَ إِلَى مُسْلِمَةَ بْنِ غُلْدٍ الْأَنْصَارِيِّ ، وَمَعَاوِيَةَ بْنِ حُدَيْجٍ الْكِنْدِيِّ .
وَكَانَا قَدْ خَالَفَا عَلِيًّا^(١) :

« أَمَّا بَعْدُ . فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَكُمْ لِأَمْرِ عَظِيمٍ ، أَعْظَمَ بِهِ أَجْرُكُمْ . وَرَفَعَ بِهِ ذِكْرُكُمْ ،
وَزَيَّنَّكُمْ بِهِ فِي الْمُسْلِمِينَ ؛ طَلَبَكُمْ بِدَمِ الْخَلِيفَةِ الْمَظْلُومِ ، وَغَضِبَكُمْ اللَّهُ إِذْ تَرَكْتُمْ حُكْمَ
الْكِتَابِ . وَجَاهَدْتُمَا أَهْلَ الْبَغْيِ وَالْعَدْوَانِ ، فَأَبْشِرَا بِرِضْوَانِ اللَّهِ ، وَعَاجِلِ نَصْرِ
أَوْلِيَاءِ اللَّهِ ، وَالْمُؤَاوَاةِ لَكُمْ فِي الدُّنْيَا وَسُلْطَانِنَا ، حَتَّى يَنْتَهَى فِي ذَلِكَ مَا يَرْضِيكُمْ ،
وَنُؤَدِّي بِهِ حَقَّكُمْ إِلَى مَا يَبْصُرُ أَمْرَكُمْ إِلَيْهِ ، فَاصْبِرُوا وَصَابِرُوا عِدْوَكُمْ ، وَادْعُوا الْمُدَبِّرَ إِلَى
هَذَا كَمَا وَحَفَظَكُمْ ، فَكَأَنَّ الْجَيْشَ قَدْ أَطْلَعَ عَلَيْكُمْ فَانْقَشَعَ كُلُّ مَا تَكْرَهُانَ . وَكَانَ
كُلُّ مَا تَهْوِيَانِ . وَالسَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ » .

فَلَمَّا جَاءَ الْكِتَابَ رَدَّ إِلَيْهِ مُسْلِمَةُ عَنْ نَفْسِهِ وَعَنْ مَعَاوِيَةَ بْنِ حُدَيْجٍ .
« أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنَّ هَذَا الْأَمْرَ الَّذِي بَذَلْنَا لَهُ أَنْفُسَنَا ، وَاتَّبَعْنَا أَمْرَ اللَّهِ فِيهِ ، أَمْرٌ
نَرْجُو بِهِ ثَوَابَ رَبِّنَا ، وَالنَّصَرَ مِمَّنْ خَالَفْنَا ، وَتَعْجِيلَ النِّقْمَةِ لِمَنْ سَمِيَ عَلَى إِمَامِنَا .
وَطَاطَأَ الرِّكْضَ فِي جِهَادِنَا ، وَنَحْنُ بِهَذَا الْحِيزِ مِنَ الْأَرْضِ قَدْ نَفَيْتُمَا مَنْ كَانَ بِهِ مِنْ
أَهْلِ الْبَغْيِ ، وَأَنْهَضْنَا مَنْ كَانَ بِهِ مِنْ أَهْلِ الْقِسْطِ وَالْعَدْلِ . وَقَدْ ذَكَرْتُ الْمُؤَاوَاةَ
فِي سُلْطَانِكَ وَدُنْيَاكَ ، وَبِاللَّهِ مَا ذَلِكَ الْأَمْرَ الَّذِي لَهُ نَهَضْنَا ، وَلَا إِيَّاهُ أَرَدْنَا ، فَإِنْ
يَجْمَعُ اللَّهُ لَنَا مَا نَطْلُبُ ، وَيُؤْتِنَا مَا نَتَمَنَّى ، فَإِنَّ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، وَقَدْ
يُؤْتِيهِمَا اللَّهُ جَمِيعًا عَالِمًا مَنْ خَلَقَهُ ، كَمَا قَالَ فِي كِتَابِهِ ، وَلَا خَلْفَ لِمَوْعِدِهِ : « فَأَتَاهُمُ
اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحَسَنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ ، وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ » . عَجَّلْ عَلَيْنَا خَيْرَكَ

وَرَجُلِكَ، فَإِنْ عَدَوْنَا قَدْ كَانَ حَرْبًا عَلَيْنَا، وَكُنَّا فِيهِمْ قَلِيلًا، فَقَدْ أَصْبَحُوا لَنَا هَائِبِينَ وَأَصْبَحْنَا لَهُمْ مُقَرَّرِينَ^(١) فَإِنْ يَؤْتِنَا اللَّهُ بَعْدَ مِنْ قَبْلِكَ يَفْتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ؛ وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ، وَحَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ، وَالسَّلَامُ عَلَيْكَ.

وكان من نتيجة هذا الخطاب أن أمر معاوية عمرًا بالتجهز والخروج، فخرج في جيش، مزوداً بنصيحة من معاوية. فلما نزل مصر كتب إلى محمد بن أبي بكر: «أما بعد. فَتَسَحَّ عَنِّي بِدَمِكَ يَا بَنَ ابْنِ أَبِي بَكْرٍ، فَإِنِّي لَا أَحِبُّ أَنْ يَصِيْبَكَ مِنِّي ظَفَرٌ. إِنْ النَّاسَ بِهَذِهِ الْبِلَادِ قَدْ اجْتَمَعُوا عَلَى خِلَافِكَ، وَرَفَضُوا أَمْرَكَ، وَنَدَمُوا عَلَى اتِّبَاعِكَ، وَهُمْ مُسْلِمُونَ لَوْ قَدْ التَقَّتْ حَلَقَتَا الْبِطَانِ. فَأَخْرَجَ مِنْهَا فَإِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ^(٢)».

وَأَرْسَلَ مَعَهُ بِكِتَابٍ مِنْ مَعَاوِيَةَ إِلَيْهِ. «صُورَتُهُ» :

«أما بعد، فَإِنْ غِيبَ الْبَغْيُ وَالظُّلْمُ الْعَظِيمُ الْوَبَالُ، وَإِنْ سَفَكَ الدَّمُ الْحَرَامَ لَا يَسْلَمُ صَاحِبُهُ مِنَ النِّقْمَةِ فِي الدُّنْيَا، وَمِنَ التَّبْعَةِ الْمَوْبِقَةِ فِي الْآخِرَةِ، وَإِنَّا لَا نَعْلَمُ أَحَدًا كَانَ أَعْظَمَ عَلَى عُمَانَ بَغِيًّا، وَلَا أَسْوَأَ لَهُ عِيًّا، وَلَا أَشَدَّ عَلَيْهِ خِلَافًا مِنْكَ : سَمِعْتَ عَلَيْهِ فِي السَّاعِينَ. وَسَفَكَتْ دَمَهُ فِي السَّافِكِينَ ثُمَّ أَنْتَ تَظُنُّ أَنَّي عَنْكَ نَائِمٌ أَوْ نَاسٌ لَكَ، حَتَّى تَأْتِيَ فِتْنًا عَلَى بِلَادٍ أَنْتَ فِيهَا جَارِي، وَجُلُّ أَهْلِهَا أَنْصَارِي، يَرَوْنَ رَأْيِي، وَيَرْقُبُونَ قَوْلِي، وَيَسْتَصْرِخُونَ عَنِّي عَلَيْكَ ! وَقَدْ بَعَثْتُ إِلَيْكَ قَوْمًا حَنِقًا عَلَيْكَ، يَسْتَسْقُونَ دَمَكَ، وَيَتَقَرَّبُونَ إِلَى اللَّهِ بِجَهَادِكَ، وَقَدْ أَعْطَا اللَّهُ عَهْدًا لِمُتَّسِلِي بَيْتِكَ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ مِنْهُمْ إِلَيْكَ سِوَى قَتْلِكَ مَا حَذَرْتُكَ وَلَا أَنْذَرْتُكَ، وَلَا حَبِبتُ أَنْ يَقْتُلُوكَ بِظُلْمِكَ وَقَطِيعَتِكَ، وَعَدُّوكَ عَلَى عُمَانَ. يَوْمَ طُعِنَ بِمَشَاقِصِكَ بَيْنَ خَشَشَانِهِ وَأَوْدَاجِهِ، وَلَكِنْ أَكْرَهَ أَنْ يُمَثَّلَ بِقَرَشِي وَلَنْ يُسَلِّمَكَ اللَّهُ مِنْ

(١) مطبقين. من «أقرن الشيء» أي : أطاقت.

(٢) ج ١ النجوم الزاهرة ص ١٠٩.

القصاص أبداً أينما كنت ، والسلام^(١) .

وأخبر محمد سيدنا علياً الخبر وطب منه المدد ، ورد عليه سيدنا علي يهون أمر هذه الحملة ، وأن يجيب على رسالتيهما . فكتب إلى معاوية :

« أما بعد . فقد أتاني كتابك . تذكري من أمر عثمان أمراً لا أعتر إليك منه ، وتأمرني التنحي عنك كأنك لي ناصح ، وتخوفني المثلة ، كأنك شفيق ، وأنا أرجو أن تكون لي الدائرة عليكم فأجتاحكم في الوقعة . وإن تَوَّأ النصر ، ويكن لكم الأمر في الدنيا ، فكم لعمري من ظالم قد نصرتم ، وكم من مؤمن قد قتلتم ومثَّلم به . وإلى الله مصيركم ومصيرهم ، وإلى الله مرَدُّ الأمور . وهو أرحم الراحمين . وهو المستعان على ما تصفون » .

وكتب إلى عمرو بن العاص :

« زعمت أنك تنكره أن يصيبني منك ظفر ، وأشهد أنك من المبطلين ، وتزعم أنك لي نصيح ، وأقسم أنك عندي ظنين ، وتزعم أن أهل البلد قد رفضوا رأيي وأمرى ، وندموا على اتباعي ، فأولئك لك وللشيطان الرجيم أولياء^(٢) . »

لقد كانت رسالة معاوية إلى ابن حديج ومسلمه كما ترى ، رسالة مدح وثناء ، وإطعام وإغراء ، ووعد معسول بالمشاركة في سلطانه إذا كانت له الغلبة والعاقبة .

وكان رد مسلمة عن نفسه وعن صاحبه رد المؤمن بعقيدته ، الغاضب لقتل خليفته ، المعرض عن دنيا معاوية ووعوده ، على أنه لقي جزاءه الموفور لما آلت البلاد إلى معاوية ، فحكمها له ، ولابنه يزيد من بعده ، خمسة عشر عاماً (من سنة ٤٧ إلى سنة ٦٢ هـ) .

(١) المشقس سهم فيه نصل عريض . الأصل خششاء ويسكن ويدغم فيصبح خشاء بضم الأول وهو : العظم الناتئ خلف الأذن ، والأوداج جمع ودج وهو عرق الأخدع الذي يقطعه الذابغ فلا يبقى معه حياة ، وقيل هو كل عرق إذا قطع مات صاحبه ، وله أساء : فهو الوريد في العنق ، والودج أيضاً ، والنياط في الظهر والابهري في الصلب وهو متصل بالقلب الخ .

(٢) تاريخ الخلفاء الراشدين للنجار ص ٤٦٣ .

وكانت رسالة معاوية وعمر بن الخطاب إلى محمد بن أبي بكر طعناً وتحذيراً ، ووعيداً وتهديداً ودعوة إلى الاستسلام قبل أن ينزل به أشد الانتقام .

وكان رد ابن أبي بكر عليهما رداً تملؤه الحماسة ، والإصرار على ما فعل ، والإدراك الصحيح لما يرى إليه خصمه ، وفيه تهكم واتهام لمعاوية وعمر وفيما أبدياه من إشفاق عليه ، وما بذلاه من نصيحة له .

وترى في هذه الرسائل صورة واضحة من رسائل العهد الأول ، طابعها الإيجاز وورنين العبارات ، والاستعانة بآيات الله لتكسيبها قوة وزينة ، والمحافظة على الكلمات والعبارات التي كانت تبتدى بها الرسائل وتنتهى .

وهذا الأسلوب الخطابي الذي يسيطر عليها جميعها أسلوب فرضته موضوعاتها ومناسباتها ، فاستعان كاتبها بكل ما يؤثر في القارئ من قوة البيان ، والمهارة في إبداء الحجة ، واللباقة في عرض وجهة النظر والدفاع عنها ، واتهام الخصم وإيعاده وتهديده .

وهي — على إيجازها — تشمل كثيراً من المعاني التي جاشت بها نفوس كاتبها ، وعليها سيما منشئها ، وانظر إلى معاوية في رسالتيه تجده السياسي الماهر الذي يزين لمسلمة أفعاله ، ويستريده منها ، ويفريه بالسلطان لاستمرار الثورة . وهو مع ابن أبي بكر شديد مخيف يرى أنه لا بد من السيف ، ولكنه يخلع قلبه قبل اللقاء . فيذكر له قوة من معه ، وحرصهم على دمه ، ورغبتهم في التمثيل به ، ويبدى له من النصيحة والإشفاق بعد ذلك ما يطعمه في عفوه ، ولكن خاب ظنه في ابن أبي بكر الذي أصر على الحرب وثبت . فدارت عليه الدائرة ، ولله عاقبة الأمور .

ب — في عهد بني أمية :

لم تخرج الكتابة في عهد الأمويين عما رسم لها من قبل من حيث البدء والنهاية والإيجاز وقوة البيان ، وكان يغلب عليها السياسة فهي كتب مبايعات أو أمان

أو أوامر بزيادة في أعطيات الجند أو في شأن الخراج أو ما أشبه ذلك من أمور الدولة . وقل أن تجد فيها رسالة إخوانية أو أن تكون دائرة حول شئون خاصة بين اثنين .

وكان زمامها بيد الولاة والعمال ، فإنما نجد مسلمة بن مخلد يكتب إلى عابس بن سعيد واليه على الشرط أن يأخذ البيعة ليزيد^(١) ، ونجد مروان بن الحكم يكتب أماناً إلى أهل مصر بيده ، يؤمنهم على جميع ما أحدثوه^(٢) .

وكانت ولاية العهد عيباً من عيوب بني أمية ، إذ كان الخليفة يعهد بالأمر بعده إلى أكثر من واحد ، فإذا مات حدث بينهم من النزاع والكرهات شئ كثير وأول من عهد إلى اثنين مروان بن الحكم ، عهد بها إلى ابنه عبد الملك ، ثم عبد العزيز ، فلما شب الوليد بن عبد الملك ، رأى أبوه أن يجعل الأمر له ويخلع عبد العزيز ، وكتب في ذلك إلى أخيه يقول :

« يا أخى إن رأيت أن تُصير الأمر لابن أخيك ، الوليد ، فافعل » . فأبى عبد العزيز فكتب إليه عبد الملك ثانية . « فاجعله من بعدك فإنه أعز الخلق إلى » فكتب إليه عبد العزيز : « إني أرى في أبى بكر بن عبد العزيز ما تراه في الوليد^(٣) » .

وفي رواية السكندی^(٤) أنه كان في كتاب عبد العزيز إلى عبد الملك : « إنك لو رأيت الأصبع لسرك ، ولم تقدم عليه أحداً » .

فكتب إليه عبد الملك الثالثة : « فاحمل خراج مصر إلى » . وكأنه يخرجه . فكتب إليه عبد العزيز : « إني وإياك قد بلغنا سنّاً لم يبلغها أحد من أهلنا ، وإننا لا ندرى أينما يأتيه الموت أولاً ، فإن رأيت ألا تُفثَّ على بقية عمرى ، ولا

(٢) الولاة والقضاء ص ٤٥

(٤) ص ٥٤

(١) الولاة والقضاء ص ٣٩

(٣) النجوم الزاهرة ج ١ ص ١٧٣

يأتيني الموت إلا وأنت واصل ، فافعل » .

فرق له عبد الملك وقال : لا أغث عليه بقية عمره . ومات عبد العزيز قبله وانتقلت الخلافة الى الوليد .

نقل الديوان إلى العربية :

ومن المسائل التي يعرض لها تاريخ الأدب لما نقل الدواوين في مصر إلى اللغة العربية — والمقصود بها دواوين الخراج طبعاً ، فإن ديوان الإنشاء لم يكن موجوداً ، ولو كان موجوداً ما كان إلا بالعربية — والشائع أن نقل الديوان كان في عهد عبد الله بن عبد الملك ، وبأمر منه ، سنة ٨٦ هـ^(١) .

أما الأصل الذي نقلت عنه فهو القبطية عند مؤرخي العرب . ولما أمر عبد الله بنسخها بالعربية صرف أشناس عنها ، وجعل عليها ابن ربوع الفزاري من أهل حمص .

ويرى بعض الباحثين أن هذه الدواوين كانت باليونانية ، وحجتهم في ذلك أن البلاد كانت تابعة للدولة الرومانية الشرقية زمناً طويلاً ، وكانت اللغة اليونانية لغة رسمية في كل بلاد الدولة ، ومنها مصر والشام . فلما جاء العرب لم يغيروا شيئاً من طرق الروم في تدوين دواوينهم وجمع ضرائبهم . ويستدل القائلون بهذا الرأي بدليل آخر ، هو أن أوراق البردي العربية التي اكتشفت حديثاً ، وترجع إلى عهد الوليد بن عبد الملك ، كتبت باليونانية والعربية .

وليس في هذا الاحتجاج من القوة ما يهدم قول المؤرخين العرب . وذلك لأن اليونانية التي بقيت في دواوين الشام حتى ترجم عنها العرب ، لم تكن لها لغة تنافسها في تلك البلاد ، ولا مذهب ديني يخالف مذهب الدولة الحاكمة ، لقي

(١) الولاة والقضاء س ٥٩ . وفي صحح الأعشى ج ١ س ٤٤٢ : أن ذلك كان في عهد عبد العزيز بن مروان .

أهله كل ذل وهوان واضطهاد ، وتعذيب من هذه الدولة . واللغة القبطية كانت لغة قوية ، لها وجودها وأدبها وفلسفتها . الخ . والذين كانوا يلون أمر الدواوين في مصر من الروم قد هجروا البلاد إلا قليلا منهم . يقول بترل^(١) : « على أنه لا بد قد خلت أعمال كثيرة ، إذ زح عمالها الروم الذين لم يرضوا أن يكونوا من رعية الإسلام ، فجعل العرب في مكانهم عمالا من القبط فما مر إلا قليل زمن حتى صار عمال الدولة يكادون يكونون جميعاً من المسيحيين » .

وهناك طريقة كانت تتبع في جباية الخراج . وهى أن زعماء الناس في القرى كان عليهم أن يجتمعوا لينظروا في حال الزراعة ، ويجعلوا جباية المال مناسبة لذلك ، فكانوا بمثابة لجنة خاصة تجتمع لتقدير مقدار ما يجب من الأموال ، فإذا اجتمع من ذلك المال شئ فوق ما فرض على قريتهم أنفق في إصلاح أحوالها . وكانت تجعل في كل بلد قطعة من الأرض يخصص ريعها لإصلاح الأبنية العامة وصيانتها . . . وكذلك كانوا يقدررون ما يفرض على الناس من المال لضيافة العرب وكان هذا حقاً من حقوق العرب عليهم ، وكذلك ما كان يفرض من المال لضيافة الحاكم وإكرامه إذا وفد عليهم^(٢) .

فأين كانت تلك الدواوين المكتوبة باليونانية في عهد عبد الله بن عبد الملك ؟ أما القرى فهذه طريقة تقدير الضرائب فيها . فإذا سجلوا ما قدروه كان تسجيلهم بالقبطية ، وإذا قيل إن العرب كانوا يحتفظون بسجلات يونانية لتدوين الخراج ، ومعرفة ما يجب ومواعيده وشبه ذلك ؛ وإن القائمين بشأنها كانوا من الروم ، فهو قول يضعفه نخلي الروم عن الأعمال وانتقالها إلى أيدي القبط .

(١) فتح العرب لمصر ص ٣٩١

(٢) فتح العرب لمصر ص ٣٩٢ ، حسن المحاضرة للسيوطي ج ١ ص ٦٣ المطبعة الشرقية

قلا عن ابن عبد الحكم .

وما عثر عليه من أوراق البردى في عهد الوليد بن عبد الملك ليس كتابة دواوين ، وفي الورقة الأولى والثانية من مجموعة جروهمان^(١) كلمات دينية معدودة ، باليونانية والعربية . وفي أسفل الورقة الأولى ، أو الطراز الأول كما يسميه ، نص قبضي من عشرة أسطر ، وفي أسفل الطراز الثاني ثمانية أسطر قبضية ، فليس في هاتين الورقتين من عهد الوليد ما يؤكد أن الدواوين كانت باليونانية . وإذا كانت هذه اللغة رسمية في عهد الرومان فقد زالت عنها هذه الصفة في عهد العرب . وربما جاء هذا اللبس من تشابه اللغتين ، فإن القبطية كانت تكتب بحروف يونانية ، وكان فيها كثير من الكلمات اليونانية . أما نظام الدواوين فكان يونانيا ، ولا مانع أن يبقى كذلك حتى بعد كتابتها بالعربية .

وبعد فإن ترجمة العرب لهذه الدواوين كان ضرورة لتقدمهم ورغبتهم في أن يلوأ أمر البلاد بأنفسهم . وكثرت المصطلحات عندهم في أبحاث الفقهاء ، فلم يكن عسيرا عليهم أن ينقلوا الدواوين هنا وفي العراق والشام . ثم مرنوا على هذه الأعمال فاستغنوا في شئونهم المالية عن أن يديرها لهم دخيل .

ومن الرسائل الأدبية رسالة من عبد الله بن عبد الملك ، إلى موسى بن نصير وإلى المغرب ، لما تخطاه وكتب إلى أبيه عبد الملك في دمشق ، فكتب إليه عبد الله يهدده :

« أما بعد . فإنك كنت من عبد العزيز وبشر بين مهادين تملو عن الحضيض مُسُودها ، ويدفئك دثارُها ، حتى عفا مخبرك ، وسمت بك نفسك وإيم الله لا أضمن منك ما رَفعا ، ولا أقرن منك ما كَثَرا ، فصَحَّ رُويدا فكان قد أصبحت سادما ، نَعَضُّ أنا ملك نادما ، والسلام^(٢) . »

وكان جواب موسى بن نصير عليه ^(١) :

« أما بعد . فقد قرأت كتابك ، وفهمت ما وصفت فيه ، من إركاني إلى أبويك وعمك ^(٢) ، ولعمري إن كنت لئلك أهلاً . ولو خبرت مني ما أخبرا لما صغرت مني ما عظم ، ولا جهلت من أمرنا ما علما . . . فأما انتقاصك لهما ، فهما لك وأنت منهما ؛ ولهما مك ناصر ، لو قال وجد عليك مقالا ، وكفالك جزاء العاق . »

فأما ما نلت من عرضي فذلك موهوب لحق أمير المؤمنين لا لك ، وأما تهديدك إياي بأنك واضع مني ما رفعا ، فليس ذلك بيدك ولا إليك ، فأرعد وأبرق لغيري ، وأما ما ذكرت مما كنت آتي به عمك عبد العزيز فلعمرى إنى مما نسبتني إليه من الكهانة لبعيد ، وإنى من غيرها من العلم لقريب ، فعلى رسلك ^(٣) فكأنك قد أظلك البدر الطالع ، والسيف القاطع ، والشهاب الساطع ، فقد تم لها ^(٤) وتمت له . ثم بعث إليك الأعرابي الجلف الجاني فلم تشمر به حتى يحل بعقوتك ^(٥) فيسلبك سلطانك ، فلا يعود إليك ، ولا تعود إليه ، فيومئذ تعلم أكاهن أم عالم ، وتوقن أيننا النادم السادم ، والسلام . »

فلما قرأ عبد الله جواب موسى بن نصير كتب إلى عبد الملك كتاباً وأدرج فيه رد موسى عليه ، ولكن عبد الملك مات قبل أن يتلقى الكتاب ، ووقع في يد الوليد بعد أن عزل عبد الله عن مصر ، فلما قرأه استضحك وقال : لله درّه ! إن كان عنده لأثره من علم ، ولقد كان عبد الله غنياً أن يتعرض له .

(١) الولاة والقضاء س ٦١

(٢) لعل الأصل « إلى أبيك » ليستقيم مرجع الضمائر فيما يأتي .

(٣) الرسل بكسر الراء : الرفق والنؤدة والمعنى ترفق وتمهل .

(٤) الخلافة .

(٥) العقوة والعقاة بفتح العين : ما حول الدار والحلقة ، والمراد ينزل بساحتك .

ويزكرنا هذا بما جرى بعد ذلك بين سليمان بن عبد الملك وهو ولي عهد الوليد ، وبين الحجاج بن يوسف زمن ولايته على العراق ، وإن كانت الرسائل بينهما أشد وأعنف^(١) .

وكانت الرسائل تترى بين دار الخلافة والفسطاط ، وأكثرها كتب رسمية في شئون الدولة . ومن هذه الكتب كتاب من الوليد^(٢) إلى قرّة بن شريك يأمره بالزيادة في المسجد الجامع سنة ٩٢ هـ . وكتاب من عمر بن عبد العزيز إلى أيوب بن شرحبيل بالزيادة في أعطيات الناس عامة^(٣) . ومنها كتابه إلى شريح في وضع الجزية عن^(٤) أسلم . وكتاب يزيد بن عبد الملك بمنع هذه الزيادة لما ولي الخلافة . وقد كتب الحر بن يوسف وإلى هشام بمصر يعلمه « أن النيل قد انكشف عن أرض ليست لمسلم ولا لمعاهد ، فإن رأى أمير المؤمنين أن يأذن بالبناء فيها فإن الناس مضطرون إليها^(٥) » فأذن له في بنائها .

ومنها كتاب عميد الله بن الحجاج إلى هشام كي يسمح له بإزالة قيس في جهة بلبيس^(٦) .

وكثير مثل ذلك حتى تنتهي دولة الأمويين .

(ح) في عهد العباسيين .

واستمرت الرسائل في عهد العباسيين في المسائل العامة كذلك . وكثرت فيها كتب الأمان والتحذير والإشخاص والتهديد ، وكانت تسكثر في أيام الثورات والفتن .

(١) سيف بن مهران المؤلف ص ١١٠ — ١١٣

(٢) الولاة والقضاة ص ٦٥ (٣) الولاة والقضاة ص ٦٨

(٤) هذا الكتاب ص ٧ (٥) شرحه ص ٥١

(٦) هذا الكتاب ص ٩

وفي هذه الرسائل وأمثالها مجال واسع للمواقف الثائرة ، والانفعالات القوية ،
والبلاغة المؤثرة ، والاحتجاج بالدين والعقل ، وإيراد الشواهد والأمثال ، من
القرآن الكريم والحديث ومأثور كلام العرب . ويغلب على هذه الرسائل الطول
إذا قورنت بما كان عليه الحال في العهد السابق .

أما أسلوب الكتابة العلمية فلم يكن واضح الحدود في أول عهد العباسيين ،
إذ أن المصطلحات العلمية كانت في دور التكوين ، وأساليب التأليف كانت
ما تزال وليدة ، فكان للعلماء تصرف في القول ، وحرية في الطريقة ، وكانت
الرسائل العلمية أدبية الأسلوب .

ومن أول هذه الرسائل العلمية التي تنسم بسمه الأدب الرفيع ، والأسلوب
الجميل ، والعفة في الجدل ، والقوة في البرهان ، وتدل على علم غزير ، واطلاع
واسع ، ومعرفة عظيمة بمسائل الدين وآراء السابقين فيها ؛ تلك الرسالة التي
« كتبها سيد فقهاء عصره ، بل سيد فقهاء الأمصار علما ونبلا ، وهو الليث بن
سعد فقيه مصر ، إلى أخيه مالك بن أنس يبين له ما يؤخذ عليه في مذهبه من
جهة الاعتماد على عمل أهل المدينة ، وهذه الرسالة جواب عن كتاب كتبه إليه
مالك ^(١) » .

والرسالة نفسها تشير إلى المكاتبات بينهما في مسائل الفقه ، وقد بدأها
الإمام الليث على طريقة القرن الأول ، من السلام والحمد لله وأما بعد ؛ أما الدعاء

(١) تاريخ التشريع الإسلامي ص ١١٦ وقد نقلت الرسالة بتمامها هناك ، وأصلها في إعلام
الموقعين لابن قيم الجوزية (ج ٣ ص ٨٢ وما بعدها) ، ولم أقف على تاريخ لإنشائها لكن
مالكا مات سنة ١٧٩ ، والليث سنة ١٧٥ ، فكانها كتبت حوالى منتصف القرن الثاني

للمرسل إليه بالعافية وحسن العقبي فطريقة من طرق العباسيين .
قال الإمام الليث رحمه الله :

« سلام عليك ، فإني أحمد الله إليك ، الذي لا إله إلا هو . أما بعد عافانا الله وإياك ، وأحسن لنا العاقبة في الدنيا والآخرة .

« قد بلغني كتابك تذكر فيه من صلاح حاكم الذي يسرنى ، فأدام الله ذلك لكم وأتممه ، بالعمون على شكره والزيادة من إحسانه . وذكرت نظرك في الكتب التي بعثت بها إليك ، وإقامتك إياها ، وختمك عليها بخاتمك . وقد أتنا ، فجزاك الله عما قدمت منها خيرا ؛ فإنها كتب انتهت إلينا عنك ، فأحببت أن أبلغ حقيقتها بنظرك فيها » .

ثم يقول له مشيراً إلى محور الرسالة ، وهو الاعتماد على عمل أهل المدينة .
وذكرت « أنه بلغك أني أفتيت الناس بأشياء مخالفة لما عليه جماعة الناس عندكم ، وأنا يحق عليّ الخوف على نفسي لاعتماد من قبلي على ما أفتيتهم به ، وأن الناس تبّع لأهل المدينة التي إليها كانت الهجرة ، وبها نزل القرآن . وقد أصبت بالذي كتبت به من ذلك إن شاء الله تعالى ، ووقع مني بالموقع الذي تحب . وما أجد أحداً يُنسبُ إليه العلم ، أكره لشواذ الفتيا ، وأشدّ تفضيلاً لعلماء أهل المدينة الذين مضوا ، ولا آخذ لفتياهم فيما انفقوا عليه ، مني . والحمد لله رب العالمين الذي لا شريك له » .

ثم يجادل صاحبه بالتى هي أحسن ؛ ويأتى بأمثلة ظاهرة ، وأدلة متظاهرة ، وحجج متواترة ، تؤيد رأيه .

ويختم الرسالة ختاماً أدبياً عفيفاً ، فيه صادق المودة ، وشريف العواطف ، وكريم الصلات ، وصالح الدعوات ، فيقول :

« وأنا أحب توفيق الله إياك ، وطول بقائك ؛ لما أرجو للناس في ذلك

من المنفعة ، وما أخافُ من الضَّيِّعَةِ إذا ذهبَ رِثْلُكَ ، مع استثناسي بمكانِكَ وإن نأتِ الدارَ ، فهذه منزلتُكَ عندي ، ورأى فيكَ ، فاستيقنهُ . ولا تترك الكتابَ إلى بخبركَ وحالكَ ، وحالِ ولدك وأهلكَ ، وحاجةٍ إن كانت لك أو لأحدٍ يوصل إليك ، فإني أَسْرُّ بذلك » .

« كتبت إليك ونحن صالحون مُعَا فَوْنٌ والحمد لله . نسأل الله أن يرزقنا وإياكم شكرَ ما أولانا ، وتَمَامَ ما أنعمَ به علينا ، والسلام عليك ورحمة الله » .

ومن الكتب التي تركت آثاراً قوية في حياة العرب ولغتهم في مصر تلك الرسالة التي كتبها المعتصم إلى واليه على مصر ، نصر بن عبد الله ، الملقب « كَيْدُر » . وقد أمره فيها بإسقاط من في الديوان من العرب ، وقطع أعطيائهم سنة ٢١٨ هـ^(١) . وكان ذلك سبباً في خروج يحيى بن الوزير الجروي في جمع من نخم وجذام ، وترتب على قطع أعطيائهم ، وإسقاطهم من الديوان أن اضطروا إلى مخالطة أهل البلاد ، ومصاهرتهم ، والاشتغال بمثل أعمالهم ، وأصبحوا ينظرون إلى البلاد على أنها دار إقامة لهم . فآدى ذلك إلى انتشار لغتهم ، ثم سيادتها .

وفي القرن الثالث الهجري ظهر القول بأن القرآن مخلوق ، وأثار المأمون فتنة بين الناس من أجل هذا القول ، وحملهم عليه حملا ، وكتب منشوراً عاماً بامتحان الفقهاء والعلماء ليرى رأيهم فيه ، ويرغم من خالف . وكتب أخوه أبو إسحق « المعتصم » إلى كيدر ، واليه على مصر ، أن يأخذ الناس بالحنة ويختبر عقيدتهم في القرآن^(٢) .

وكان كتاب أبي إسحق :

« بسم الله الرحمن الرحيم . من أبي إسحق بن أمير المؤمنين الرشيد ، أخي

(١) الولاية والقضاة ص ١٩٣

(٢) الولاية والقضاة ص ٤٤٥

أمير المؤمنين ، إلى نصر بن عبد الله ، كيدر ، مولى أمير المؤمنين .
سلام عليك . فإنني أحمد إليك الله الذي لا اله إلا هو ، وأسأله أن يصلي على
محمد عبده ورسوله ، صلى الله عليه وسلم .

أما بعد . فإن أمير المؤمنين أطل الله بقاءه ، كتب إلى ، فيما أمرني به من
الكتاب إلى قضاة عملي ، في امتحان من حضرهم للشهادات ، فمن أقر منهم بأن
القرآن مخلوق ، وكان عدلا ، قبلوا شهادته ، ومن دفع ذلك أسقطوا شهادته ، ولم
يرفعوا حكما بقوله ؛ وامتحان أولئك القضاة بهذه المحنة ، فمن نقي منهم التشبيه ،
وقال إن القرآن مخلوق ، أقره بموضعه ؛ ومن دفع أن يكون القرآن مخلوقا أمرته
باعتزال الحكم ؛ وأن لا يُعْمَنَ بمثل ذلك ، في جميع أهل الحديث هنالك ، ومن
يُسمع منه ، أو يختلف إليه بسبب الفقه ؛ وترك الإذن لأحد منهم في حديث
أو فتوى إلا على انتحال هذه النحلة ، والقول بمثل هذه المقالة ؛ والبلوغ في كرامة
من يعتقد ذلك ومراعاته ، مبلغ المحتسب للخير ؛ والكتاب إليه أكرمه الله بما
يكون منك . وقد رأيت أن تمتحن القاضي هناك بالمحنة التي كتب بها أمير
المؤمنين أطل الله بقاءه ، ليعرف مذهبه وما عنده بأن القرآن مخلوق ، وترك التشبيه
والشك فيه ، فقدمت إليه في امتحان من يحضره للشهادات بهذه المحنة ، ومن
أقر منهم وكان عدلا قبلت شهادته ، ومن دفع ذلك وامتنع منه أسقطت شهادته ،
وإن أنكر القاضي أن يكون القرآن مخلوقا أمرته باعتزال الحكومة ، وأوعزت
بمثل ذلك إلى أهل الحديث ومن يسمع منه أو يختلف إليه ، لسبب الفقه ، وكتبت
إلى القاضي قبلك بمثل الذي كتبت إليك . فاعلم ذلك ، واعمل بما مثل به أمير
المؤمنين منه ، وান্তه إليه ، وابلغ من القيام به على حسب ما يلزمك ويجب عليك ،
وأحضر ما تعمل به عنده من وجوه أهل عملك وصلحائهم ، واكتب إلى بما يكون

من القاضي في ذلك ، ومنك ، على حقه وصدقه ، لأنهيته إلى أمير المؤمنين إن شاء الله ، والسلام عليك ورحمة وبركاته .

وورد كتاب المعتصم على هرون بن عبد الله بحمل الفقهاء في المحنة ، فاستعفى هرون من ذلك ، فكتب ابن أبي دُوَاد إلى محمد بن أبي الليث يأمره بالقيام في المحنة ، وذلك قبل ولايته القضاء ، وكان رأساً في القيام بذلك ، فحمل نعيم بن حماد ، والبويطي ، وخشنام المحدث في جمع كثير سواهم^(١) .

واشتدت المحنة في أيام الواثق (سنة ٢٢٧ — ٢٣٢) وأمر أن يؤخذ الناس بها ، وكأنها نار أضرمت ، وورد كتابه على محمد بن الليث بامتحان الناس ، فلم يبق أحد من فقيه ولا محدث ولا مؤذن ولا معلم حتى أخذ بالمحنة ، فهرب كثير من الناس ، وملئت السجون ممن أنكر المحنة ، وأمر ابن أبي الليث بالاكتتاب على المساجد : لا إله إلا الله رب القرآن المخلوق . فكتب ذلك على المساجد بفسطاط مصر ، ومنع الفقهاء من أصحاب مالك والشافعي من الجلوس في المسجد ، وأمرهم ألا يقربوه^(٢) .

واستمر البلاء حتى ولي المتوكل الخلافة ، فكتب إلى والي هريثة بن النضر يأمره بترك الجدل في القرآن سنة ٢٣٤ ، وعزل ابن أبي الليث ، وورد كتاب المتوكل بلعنه على المنبر ، وحبس وأهين وحلق رأسه ولحيته ، وطافوا به الفسطاط على حمار . ثم خرج من سجنه سنة ٢٤١ إلى العراق .

ولعل هذه الفتنة من أشد ما أثار الجدل بين المسلمين في القرن الثالث وشغل

(١) الولاة والقضاة ص ٤٤٧ .

(٢) الولاة والقضاة ص ٤٥١ .

(٣) الولاة والقضاة ص ١٩٧ .

الأدب كتابة وجدلا وشعرا . ونحن نرى أن مصر قد شاركت فيه ، وشغل
علمائها به ، وأوذوا في سبيله ؛ أما الجدل في مسائل الحلال والحرام والفقه وأصوله
وفروعه ، فكان قويا جداً بين الشافعية والحنفية والمالكية وكتبهم
تشهد بذلك .

والحديث عن هذه المؤلفات وأساليبها ، وطرق رجالها في البرهنة والشرح
والتقرير له مكانته في تاريخ الفقه والتشريع .

الفصل الخامس

كتابة الرسائل

— ٢ —

من ابن طولون إلى الفاطميين

رأينا فيما سبق أن الرسائل كانت ضعيفة في مصر ، ولم يؤثر منها بعد زمن عمرو إلا النادر ، الذي أفلت ، فلهحق بما بقي من رسائل الشام والعراق . ولم يكن مركز مصر في الدولة الإسلامية ليهيء لها ظهور الكتاب فيها ، أو إقبالهم عليها بسبب تبعيتها لدار الخلافة ، وانصراف الكتاب وغيرهم من أهل الأدب إلى حاضرة الدولة ، حيث العطاء الجزيل ، والمناصب الرفيعة ، والشهرة الواسعة ، والحظ الباسم لمن سعدوا بقرب الخلفاء والوزراء .

وما كان لهؤلاء الكتاب — في عهد العباسيين خاصة — أن يتركوا بغداد حاضرة الدنيا ، ومعين الخير ، وجنة النعيم ؛ والتي لم تكن توزن بها حاضرة أخرى في الدولة ، ولا برجالها رجال في نواحي المملكة ، وكانت دواوين الإنشاء فيها موئل كل مجيد من الكتاب ، ومدرسة كل طامع من الناشئين .

ديوان الإنشاء :

فلما حاول ابن طولون الاستقلال عن بغداد رأى أن يجعل استقلاله كاملاً : فكون جيشاً ، وبني حاضرة ، واستخدم كتاباً ، وأنشأ ديواناً للإنشاء .

ويقول المؤرخون إنه كان أول ديوان للإنشاء^(١) بمصر . وروى صبح الأعشى^(٢) أنه كان لديوان الإنشاء بالديار المصرية خمس حالات — يعيننا منها الأولى والثانية — .

الحالة الأولى : ما كان الأمر عليه من حين الفتح وإلى بداية الدولة الطولونية ، ونواب الخلفاء تتوالى عليها واحداً بعد واحد ، فلم يكن لهم عناية بديوان الإنشاء ولا صرف همّة إليه ، للاقتصار على المكاتبات لأبواب الخلافة ، والنزر اليسير من الولايات ، ونحو ذلك ؛ ولذلك لم يصدر عنهم ما يدون في الكتب ، ولا يتناقل بالأسنة .

ويقول أيضاً عن هذه المدة التي سبقت ابن طولون^(٣) : إنه لم يكن لديوان الإنشاء بالديار المصرية في هذه المدة صرف عناية ؛ تقاصراً عن التشبه بديوان الخلافة .

الحالة الثانية : ما كان الأمر عليه في الدولة الطولونية من ابتداء ولاية أحمد ابن طولون واستفحال ملك الديار المصرية في الإسلام ، وترتيب أمرها إلى انقراض الدولة الإخشيدية ، وفي خلال ذلك ترتب ديوان الإنشاء بها وانتظم أمر المكاتبات^(٤) .

ويقول صبح الأعشى^(٥) أيضاً إن ابن طولون أول من أخذ في ترتيب الملك

(١) لعله كان في ولاية مصر من تشبه بالخلافة فجعل لرسائله كتاباً ولكن ذلك كان نادراً : روى ابن النديم في الفهرست ص ١١٣ أن جابر بن داود البلاذري — جد المؤرخ — كان يكتب للخليفة بن عبد الحميد عامل الرشيد على مصر وممدوح أبي نواس . وفي خطط المقرئ ج ٢ ص ٢٢٦ أنه كان للولاية كتاب ينشئون عنهم الرسائل إلى الخليفة وغيره .

(٣) ج ١١ ص ٢٨

(٢) ج ١ ص ٩٥

(٥) ج ١١ ص ٢٩

(٤) ج ١ ص ٩٥

وإقامة شعار السلطنة بالديار المصرية ؛ ولما شمع سلطانه ، وارتفع بها شأنه ، أخذ في ترتيب ديوان الإنشاء لما يحتاج إليه في المكاتبات والولايات .

فضل ابن طولون على الكتابة :

وكان لابن طولون فضل في إقامة دعائم الكتابة لحاجته إليها في حكم البلاد وكانت الضرورة تقضى في أثناء ولايته الطويلة (٢٥٤ — ٢٧٠) أن يكون دائم المكاتبات ، لما كان يشغله من أمر الخلافة ، وأمر الثغور ، والبلاد التي كان يسيطر عليها ، وما كان يجد في مصر من فتن وأحداث تستدعي الكاتب الماهر ذا الرأي السديد والقول النافذ . فاختار لكتابته قوماً عرفوا بالبلاغة كما عرف هو بالأدب وحسن التوجيه والإرشاد .

روى أنه أراد أن يكتب رسالة فاستدعى ابن عبدكان كاتبه وألقى إليه بالمعنى الذي يريد . قال ابن عبدكان في حق هذه الرسالة : فوالله العظيم ما حضرني لهذا الكتاب أحسن من معاني ألفاظه كلها ، فلم أتجاوزها . وأنفذ الكتاب وأعمل به ^(١) .

وكان اختياره لابن عبدكان دليلاً على حسن الاختيار ، قال صبح الأعشى فيه ^(٢) : « فاستكتب ابن عبدكان فأقام منار ديوان الإنشاء ورفع مقداره » .

وقد عرف عنه تدقيقه في الرسائل التي تصدر عن ديوانه . فلم يكن كتابه يختمون كتاباً ولا يحرورون نسخة حتى يعرضوه عليه ، فإن استصابه أمضاه وإلا غيره .

(١) سيرة ابن طولون للبلوي ص ١١٠

(٢) ج ١١ ص ٢٩

ديوان التصفيح :

وكان لما استكتب في خرجته إلى الشام أبا الضحاك محبوب بن رجاء ، ولم يكن بالسامل ، إلا أنه كان حاضر الذهن حلو الألفاظ ، ففرض عليه يوماً كتاباً فلم يقل فيه شيئاً ، فأنفذه محبوب فسأل عنه أحمد بن طولون بعد أيام ، فقال له : قد أنفذه . فحرد عليه واغتاظ ، وقال له : ويلك ! حق الكتب أن تراجع فيها الأفكار ، وقد كان ينبغي أن تؤخر إنفاذه وتراجعني فيه . فكانت كتبه بعد ذلك تؤخر لمراجعة النظر والتصفيح بعد الإنشاء ، وجعل لها ديواناً سماه ديوان التصفيح ^(١) .

وكان حريصاً على مراجعة الكتب والزيادة عليها بما يريد أن يُيسره عن كتابه . وحدث عنه ابن عبد كان في ذلك قال : « كنا ننشئ الكتب إلى السلطان وغيره من أصحاب أعماله فيرد في الأجوبة غير ما صدرت به الكتب إليهم ، فذكرت له ذلك لما كثر ، فضحك وقال : هذه أجوبة عن أشياء أضمنها أنا الكتب لا أطلعكم عليها ^(٢) » .

ومثل هذا الأديب المدقق يحمل كتابه على حسن الاختيار ، وتهذيب الكتابة والحرص في التعبير ، وحمل النفس على الإجادة ، وسلامة التفكير ؛ لينالوا ثقته ويسلموا من أذاه .

تفضيله المصريين في الكتابة :

وكان له رأى سديد في تفضيل المصريين على العراقيين . فإنه كان — مع إيمانه بتفوق العراقيين في الكتابة — يفضل استخدام كتاب مصريين : نقل عنه أنه

(١) سيرة ابن طولون للبلوى ص ١١٢

(٢) سيرة ابن طولون للبلوى ص ١١٢

لما وجه بالواسطى إلى العراق واستكتب جعفر بن عبد الغفار ، اضطرب بما حمله من الأمر ، ولم يكمل له ، فقال له حمدان بن خاقان : الأمير أيده الله يحتاج إلى كاتب أوفى وزناً من هذا الكاتب ، فقال له : أنا أحتمله وأقنع به لأنه مصرى . فقال له حمدان ، وكأنه عجب من قناعته بكاتب مصرى لا يغنى غناء العراق : والأمير أيده الله يرى أن الكاتب المصرى أكتب من العراق وأنهض بما يتولاه ؟ قال له : اعلم أن أصلح الأشياء لمن ملك بلداً أن يكون كاتبه منه ، فإنه يجمع بذلك أشياء محمد عاقبتها ، منها أن عيال الكاتب وشمله وكل ما يملكه معه في بلده ، ومنها أن جميع ما يكسبه فيه ، وإن كان ممن يرغب في تجارة كانت تجارته فيه ، أو في شراء عقار أو بناء كان فيه . ثم يقول : والكاتب الغريب ليس كذلك لأنه يعتقد المستغلات في البلد النائي عني ، وكده عمارة بلده بتخريب بلدى ، وهو كذلك في كل حال ، متطلع إلى بلده . . . فهذا الذى زهدنى في كتاب العراق ، مع علمى بما فيهم من الصناعة وتقدمهم في الكتابة .

فقال له : قد أصاب الأمير الرأى وفقه الله ^(١) .

وأرى أنه كان يريد تدريب المصريين على خدمته ، والقيام بأمر دولته ، ليستغنى بهم عن العراق ورجاله الذين لا يرون له فضلاً عليهم ، لأنه كان بالأمس واحداً منهم . وربما دعا ذلك أدباء البلاد إلى الثقة بأنفسهم ، والنهوض بأدبهم ، واستكمال ما ينقصهم ، ليرتقوا إلى المنزلة التى أراد أن يرفعهم إليها ، ويكونوا أهلاً لمساواة كتاب العراق ، وشغل مرا كزهم ، والحلول محلهم .

وترى كاتب الأمير أصبح رجل دولة ، يعتمد عليه في المراسلات السياسية ويوكل إليه تدبير بعض شئون الدولة ، ويستشار قبل الإقدام على عظيات الأمور .

وإليك القصة التالية :

كان ابن طولون يود أن يختطف الخليفة من بغداد ، وينقل كرسى الخلافة إلى

مصر ليعدها عن تأثير الموفق وسلطانه ، فحدث أحمد بن محمد الواسطي في ذلك فقال له : ما تبلغ معرفتي وفهمي الكلام في هذا الباب ، ولكن في محبتك من إن أحضرته واستشرته أشار — لفهمه ورجحان عقله — عليك بالصواب . فقال : ومن هو هذا ؟ فأجابه : محمد بن اسماعيل بن عمار . فقال له : صدقت ؛ إنه لكذلك ، ولولا نفورى منه ، لخوفى من غوائله ودهائه ، لما كان بحيث هو ، وكان مئى فى أجل حال ، فأحضرنيہ . فأدخل عليه بهيئة السجن وملابسه ، وعليه قميص غليظ ، وقد اسود من طول دخان السراج . وشعره قد طال ، حتى سقط على وجهه لكثته فى المطبق ، فاستدناه فدنا ، ثم استدناه ثانية ، فدنا وقال : ما أرضى رأتى للأمير أيده الله .

فقال له : دعوتك لأستشيرك فى أمر أردت أن أفعله ، لعلنى بجودة رأيك ، وصحة فهمك . فقال له : أين رأى منى اليوم أيها الأمير ، وهذه حالى ؟ فقال له : أنت أوفى رأياً ، وأذكى قلباً ، من أن يحتل عليك ما التمسته منك ، أو يعتربك ما يعترى ذوى النقص . فقال : يقول الأمير أيده الله ما شاء ، والله جل اسمه الموفق فقال له . إن أبا أحمد الموفق قد احتوى على أخيه أمير المؤمنين المعتمد بالله ، ونفذ أمره فى كل ما يريد ، وتمسكن من إعنائه بمن ضم إليه أمير المؤمنين من الرجال والجيش الذى استدعاه منه لقتال البصرى . فلما حصل ذلك له صارت له عدة على أمير المؤمنين ، وقد خفت حنثى فى يمينى التى له فى عنقى إن قعدت عنه ، وقد عزمت على الخروج إليه بنفسى وجميع جيشى ، حتى أنصر دعوته ، وأنقله إلى ، فما ترى ؟ .

فقال : « إن من الخطر العظيم أولاً خروج الأمير بنفسه وجميع جيشه وعدته لأن الحرب سجال ، والظفر بحسب التوفيق ، فأخاف أن يلحق الأمير — وأعيذه بالله — هزيمة ، فلا تكون له بعدها قائمة . ولأن يكون الأمير ، أيده الله ، من

وراء من يبعث به إلى هذا الوجه ، وهو مادة له ، أولى من أن ينفذ بنفسه ، وبعد هذا فأرى كلام الأمير كلام من قد لهج من نصرة المعتمد ، وما يريد من رد أمره إليه ، مما لا يراه له المعتمد ، ولا يعتبر به له ، لأنه رجل مشغول بلهوه ، منهمك في لذاته ، بمنزل عن حسن تدبير ، وأن يكافئ على فعل جميل .

« أرايت أيها الأمير لو انتقل إليك ، وتمت للأمير حمايته من أخيه ، وأجابك إلى ما دعوته إليه ، أكان له في قصرك دار يسكنها غير دارك ؟ فأول ما يستعجل الأمير أن ينتقل عن هذه الدار إلى ما لا يقاربها ولا يدانيها ، بل تضيق بمن يحوطه بل لا تسع بعضهم ، ثم يكون الأمير إذا دخلها كبعض الزوار .

« ثم أنت أيها الأمير الآن المتبوع الأمر ، فلا تلبث أن تصير التابع المأمور ، ولعله أن يكون عنده آثار الناس مُغْنٍ أو مُلَّهُ أو نديمٌ ، لا يَعُشُرُ غلام الأمير وليس له منه منفعة في أمر ، ولا يحمل عنه شيئاً من ثقل ، ولا يزيد على أن يلهمه ، ويسهل موارد أموره ومصادرهما عليه .

« وأقل ما في هذا الباب الثاني أنه إذا دخل الأمير للسلام يكون قائماً ، وذلك النديم أو الملهي جالسا ، لموضعه منه ، ومنبسطا إليه . ولعل هذا إذا شاهده الأمير أخرج به إلى أكثر مما خرج إليه أخوه الموفق فيه ، ثم لا يأمن الأمير أن يسأله بعض غلمانه في ضيعة من ضياعه ، أو عمل فيه أخص غلمان الأمير ، فلا تمكنه مخالفته في كل ما يستدعي منه ، ثم اعتراضات حاشيته في البلد وأصحابه ، وكذلك في الأعمال ، وطلبهم ما يشق على الأمير ويعظم ، فلا يتهيأ له منعهم ، فإن منع أغضب أمير المؤمنين ، ثم الأمير بعد هذا غير آمن من أن تحمله المحافظة لمن يسأله استنزالك عن موضعك ، فيجيبه ليكافئه على حال قد تقدّمت له عنده إلى محبته ، ولا يخالف إرادته .

« وحسبك أيها الأمير ، أن تستدعي رجلاً إلى بلدك وملكك فإذا بلّغته الغاية القصوى ، وسوغته كل ما كدحت فيه دهرك ، رأى أن ذلك

كله له ومن حاله ، وأن الذي قد بقى معك مما تتجمل به بين يديه ، له دونك ،
وأن إبقاءك لك تفضل عليك » .

« إن من إقبال الأمير ما يلحق المعتمد من أخيه ، لأنه يجد بذلك الحجة على
خلافه ، وترك الاثبات له ، وإسقاط اسمه والدعوة له ، وتأليب الأولياء عليه ، وفي
هذا ما يتهيأ له بلوغه من معونة أمير المؤمنين ، وما يثنى أخاه عليه فيعود له إلى
إرادته ، ويزول عنه ما يكرهه ، وما أحب أيها الأمير إظهار هذا الاجتهاد العظيم
في قهر الموفق ، ونصرته لأخيه عليه ، لما يَتَخَوَّفُ من مثله ، لقوة يده وكبر
أمره وتمكنه .

والذي أرى — ولرأى الأمير ، أيده الله فضله — ألا يفعل ما إذا فعله جرى
الأمر فيه بينه وبين أمير المؤمنين على ما شرحت له ، مما يخرج الأمير معه إلى
أكثر مما خرج أخوه إليه » .

فقال له أحمد بن طولون : حسبك حسبك ، وأمر برده إلى محبسه .

قال أحمد بن محمد الواسطي لأحمد بن طولون : أيها الأمير أكان جزاء هذا
الرجل على هذا الرأي السديد الصحيح ، الذي قال فيه الحق ، ومحض النصيحة ،
أن يرد إلى محبسه ؟

قال : نعم ، إنى تأملت أمره ، فوجدته قد نصحنى في دنياى ، وغشنى في ديني
وآخرتي ، ثم تأملت رأيه وجودته وصحته ، وما حضره منه بغير فكر ولا استعداد
وهو على هذه الحال الصعبة القبيحة المغنية للحس ، فضلاً عن غيره ، فكيف لورأى
نفسه مطلقة ، وهو نافذ الأمر والنهي ، يأكل طيباً ، ويلبس لينا ، ويشم عطراً ،
إذا لاستد رأيه ، ولبس غوره ، وتمكن من عدوه ، بقوة حيلته وعزم رأيه .
إن أجهل الأمراء من أعطي مقادته للكتاب العقلاء ، لأنهم أسد الناس رأياً ، وأقلهم

دينًا ؛ بل يقبل رأيهم من غير أن يظهر لهم فيه استصابة ^(١) !

هذه النصيحة التي تفيض بالإخلاص للأمير ، والرغبة في تثبيت ملكه ، ودوام العز والسيادة له في بلده ، لم تلق من الشكر ما تستحقه ، ولم يعامل صاحبها بما هو أهل له ، بل فكر الأمير تفكيراً غريباً ، واتخذ من سداد رأى الكاتب وحسن نصيحته ، وتوفيقه في مشورته وهو في هذه الشدة والضيق ، سبباً للخوف منه ، فأبى أن يتركه حراً طليقاً ، واتهمه في نصيحته ؛ وحذر من الكتاب جميعاً .

وهذه القصة تؤيد أيضاً ما تقدم من أن الكاتب لم يكن ناسخاً ، بل كان مستشاراً في مهام الأمور ، يحتاج إلى ثقافة واسعة ، وعقل ناضج ، وبديهة حاضرة ، وتدير محمود ، وبصيرة نافذة ؛ مع الصفات الأدبية كالعلم بالأخبار ، ورواية الأشعار ، وحسن الاستشهاد والاقتباس ، وقوة الحجة والبرهان ، وغير ذلك من صفات البيان .

معاداته للأدباء :

اتهم ابن طولون بمعاداته للأدباء ، وعدم تشجيعه للأدب المحض بالرغم من أنه كان أديباً . وقد جاء في مقدمة « سيرة ابن طولون » للبلوى ^(٢) أنه كان يُفضل على النساك والقراء والفقهاء والمحدثين والمتطبين والمهندسين ، يجري عليهم ما يكفيهم . ولا يعني كثيراً بالنجمين والشعراء على ما يظهر ، لبعده عن الاعتقاد بتأثيرات النجوم على أهل الأرض ، ولاتهم كثيراً مصانعات الشعراء . وقد مدحه البحرى ثم هجاه ، وتوفر محمد بن داود على هجوه عند كل سانحة .

وقد يفهم من سجنه لمحبوب بن رجاء وفعله بالكاتب ابن عمار ، ورأيه في الكتاب جميعاً — وهو الرأى المدون في آخر قصة ابن عمار — أنه كان مجافياً

(١) سيرة ابن طولون للبلوى ص ٢٨١ — ص ٢٨٥

(٢) ص ٢٤

للأدباء ، شديداً على الكتاب ؛ يحذروهم ، ويسئ الظن بالعقلاء الأذكياء منهم .
ولكن هذه حالات فردية ؛ فقد مدحه البحترى طمعاً في عطائه ، ثم هجأه
لما حرمه ، وكان سخطه على محبوب بن رجاء بسبب إفشاء محبوب لأسرار العمل
الذى أوتمن عليه ، إذ كان ينقل إلى العباس بن أحمد بن طولون التقارير التى كانت
تأتى عنه إلى أبيه^(١) ، أما سر غضبه على ابن عمار فجهول ، وقد تركه فى الحبس
حتى مات .

لكن بقية أحواله تدل على أنه كان يقدر الأدب الراقى ، والبديهة الحاضرة ،
وحسن الجواب ، وسديد رأى . وكان يعجبه فصاحة اللسان ، وجمال العبارة ،
مع جميل العذر ، شأنه فى ذلك شأن كل عاقل ، مهذب الذوق . واقرأ القصة الآتية :

أنقذته فصاحته من ابن طولون :

حدث نسيم قال : خرج مولاي ليلة إلى قبة الهواء ، فسمع فى أطراف المعافر
كلباً ينبح ، فراه ذلك ؛ فقال للغلمان وهم قيام بين يديه : اركبوا الساعة ، وامضوا
ركضاً نحو هذا الكلب ، فانظروا على أى شئ يصيح ، فإن وجدتم أحداً
فجيئوني به .

فضى الغلمان نحو صوت الكلب حتى أدركوه ، فوجدوا رجلاً قد كان عند
صديق له من جيرانه ، وقد انصرف من عنده يريد منزله ، فوجد بابه مغلقاً ، وهو
قائم عليه يندق ، وقد منع أهله غلبة النوم عن أن يسمعوأ دقه . وكما دق الرجل
ينبح الكلب عليه ، فأخذوه ، وأردفه أحدهم خلفه ، وأقبلوا به ركضاً ، فلما رأى
الرجل ما حل به طار النبذ من رأسه ، وأقبل يستعين بالله ، فلما أوقفوه بين يديه
كاد عقله يذهب ، حتى ثبتته الله عز وجل ، فعرفه الغلمان صورة الأمر ، فقال له

أحمد بن طولون : ما الذى حملك على الخروج فى مثل هذا الوقت ؟ فقال له : أنا أحدث عنه الأمير أيده الله : كنت عند صديق لى من جيرتى ، وتمادى بنا الحديث إلى هذا الوقت ، وكنا نستعمل الحذر والتحفظ قبل أيام الأمير ، أيده الله ؛ فلما ولينا ، واشتدت وطأته على أهل الدعارة والفساد انقمعوا^(١) من هيئته ، وخافوا من سطوته ، فأمننا لذلك وصرنا نخرج فى مثل هذا الوقت ، وقبله وبعده آمنين ، ببركة الأمير أيده الله .

فاستحيا منه أحمد بن طولون لحسن عبارته وبيان قوله ، وتوقف عما كان قد عزم عليه من التأديب له فى الخروج فى مثل هذا الوقت . وقال له : قد كنا على تأديبك على مخاطرتك بنفسك فى مثل هذا الوقت ، فأزال ذلك عنا جميل عذرک ، وحسن عبارتك عن نفسك ، وفصاحة لسانك ، وعلمنا أن ذلك لا يكون إلا فى عاقل ، وكفى بالعقل واعظاً . وقد جعلت العوض من ذلك سرعة ردك إلى منزلک ، فلست أشك بأن أهلك لما علموا بأخذنا لك قد قلقوا لذلك . ثم قال لبعض الغلمان : أردفه خلفك ورده إلى منزله ، وقام هو فأخذ مضجعه وقد مضى أكثر الليل .

أعرابية أبت أن يكون ابنها جاسوسا :

وهذه قصة أخرى تدل على ميله إلى مجالس الفصحاء ، وإعجابه بحسن قولهم تفسيرا لوجهة نظرهم :

دخلت أم عقبة الأعرابية يوماً إلى أحمد بن طولون ومعها ابنها عقبة ، وكان

(١) قعه : ضربه بالمقعة وهى خشبة يضرب بها الإنسان على رأسه ، والجمع مقامع وقعه كمنعه ضربه بها وقهره ، وذلك ، كاقعه ، واقمعوا ذلوا وقهروا .

كثيراً ما يأنس بها ويحب محادثتها لفصاحتها ، وحسن كلامها ، وكان يكثر برها في كل وقت ، فسألته التقدم في تصريح ابنها فيما يعود عليه نفعه ، فقال لابن مهاجر وهو بين يديه : انظر له في شغل يعود عليه فيه خير بين عليه ، وكان البريد إليه ، فقلده ابن مهاجر بريد ناحية من النواحي ، وأجرى عليه من الرزق عشرة دنائير في كل شهر ، فحدث ابن مهاجر قال : إني لقاعد بين يدي أحمد بن طولون بعد ثلاث ، حتى دخلت أم عقبة على الأمير فقالت : أنا شاكرة للأمير أيده الله ، ذامة لهذا الرجل ، تريدني ، فقال لها : ولم ذاك ؟ فقالت : أمرته في إشغال ولدى فيما يعود عليه نفعه فشغله فيما لا يُرْحَضُ عن رؤسنا عاره وشناره ، والجوع الكريم أنفع من الشبع اللثيم ، فقال لها : وما ذاك ؟ قالت : وكله بالنيمة يخصيها على المسترسل ، ويهتك بها المستتر ، فقد تحاماه الناس وتناذروه ؛ فإذا لم يكن غير هذا تركته ، ولم أتعرض لما فيه مقت الله عز وجل وسب عباده . فضحك أحمد بن طولون ، وأمرني أن أجرى العشرة دنائير في كل شهر ، وأعفيه من البريد ففعلت ، فشكرت ودعت وقالت : هذا الأشبه بك أيها الأمير وانصرفت ^(١) .

وورد في كتاب ابن الداية قبل هذه القصة ما يأتي : وحدثني نسيم قال : تظلمت عجوز أعراية تعرف بأُم عقيل ، إلى أحمد بن طولون من تسخير أجمال لها ، وكانت فصيحة اللسان ، حسنة البيان ، فتقدم برد أجمالها وأمر بعض الحجاب أن يلحقه بها إلى داره ، فوافقت ، فتقدم في إطعامها ، وأن يخلع عليها أثواب ضخم . وكان في دولة ابن طولون فصحاء ينهضون بعبء الوفاة ، ويحسنون تحمل الرسالة ، ويزينون أقوالهم بوضوح برهانهم ، ويفتنون سامعيهم بعذب كلامهم ، ويرهبون عدوهم بقوة بيانهم . وكان يتخيرهم ، ويستعين بهم في مهمات أموره ، وإليك خبر وفادة من هذه الوفادات .

ثار العباس بن أحمد بن طولون على أبيه ، وأعانه على ذلك طائفة من قواد أبيه وكتابه . فمن القواد على بن ماجور ، وعبد الله بن طغيا ، وأحمد بن صالح الرشيدي وأحمد بن القاسم بن أسلم ، وجعفر بن حُدار الكاتب ، وكل هؤلاء كان لأحمد بن طولون عنده النعمة الجزيلة ، والإحسان التام ، والأشياء الخطيرة ، إلا أن الحاسد لا دواء له ، ولا يقنعه إلا أن يأتي على نفس من يحسده^(١) .

ومنهم طائفة أخرى مذهبهـم النحو والغريب ، وعلم النجوم ، والشعر وما يجري مجراه . وانضاف إليهم جعفر بن عبد الله ، وأحمد بن المؤمل المعروف بأبي معشر ، ومحمد بن أزهر المعروف بالمنتوف . وكل هؤلاء حسنوا له التغلب على مصر والفتك بأحمد بن محمد الواسطي . فسار إلى إفريقية ، وعاد أبوه من الشام فأرسل إليه وفداً على رأسه القاضي بكار بن قتيبة^(٢) وفيهم زياد المعدني مولى أشهب . وكان فصيح اللسان ، حسن العبارة ، قوى الفهم ، وأمرهم بملايئته وملاطفته ووعدته في كتابه الصفح عما جناه ، وألا يسوءه بمكروه ، وحلف له على ذلك بأيمان ، مغلفة .

فلما وصلوا إليه رحب بهم ، وأكرمهم ، ورفع مجلسهم . فابتدأ زياد المعدني فقال : يا سيدي . سيدنا الأمير أيده الله ، يقرأ عليك السلام ، ويقول لك : يا أقرب الناس إليّ ، وأبرهم لدىّ ، وأعزهم عليّ ، خفرت ظني بك أقوى ما كان أملِي فيك ، وأرجى ما كنت لك . عن غير إساءة كانت مني إليك ، ولا خطيئة ركبتهـا فيك . ولم ترُع حسن تربيتي لك ، واعظم إشفاق عليك . وأنى رشحتك لمنزلتي . وقدّرت بك حياة ذِكرى ، وصيانة شِليّ ؛ فأرضيت عدوى ، وأسخطت وليي . أيا سبحان الله ! أما تخاف العقوبة في العقوق — وقاينها الله جل اسمه

(١) ص ٢٤٥ سيرة ابن طولون .

(٢) ص ٢٤٩ سيرة ابن طولون .

فيك ؛ وثمرة المجازاة على الإساءة — صرفها الله بكرمه عنك ؛ فإن رجعت إلى . فكأنك لم تذب . وإن تبادى بك الاغترار شخصت إليك بنفسى . ولم أكن بأول من خسر سعيه . وأخلف تقديره « . وبكى زياد وبكى معه من حضر ؛ فقدم العباس وبلغ قوله من قلبه .

ولكن ابن حدار حذره أباه ، وخوفه ما قد يصيبهم جميعاً . وكان أبوه قد كتب إليه كتاباً مع الوفد يستلينه ويعدده . ولكن ابن حدار أنشأ للعباس كتاباً يرد به على أبيه . وفيه شرائط بحجفة . واستمرت بينهما المكاتبات طويلاً . وكان مما أغاظ أحمد بن طولون من مكاتبات ابنه العباس إليه حتى استخفه إلى الخروج بنفسه ؛ قوله في كتابه ، من إنشاء جعفر بن حدار ^(١) :

إلى الأمير أبي العباس أحمد بن طولون ، مولى أمير المؤمنين ، من عبد الله مولى الله ، التمسك بمناجى طاعة الله ، المنحرف عن زيغ ظلم المعصية ، إلى وضوح سر البصيرة ، القابل من الله موعظته ، والعامل بما أمر به . إذ يقول جل ثناؤه . « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين » . وقوله عز وجل : « فلا تطيع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه » .

سلام على الأمير ، وعلى من استرجع وادّكر ، وفكر وازدجر . فإنا أحمد إلى الأمير الله لا إله إلا هو ، العاطف بى إلى أرفع سنن الهداية ، والعدل بى عن ظلم سنن الجهالة ، وأسأله صلاة تامة يخص بها وليه ، وخيرته من صفوته ، ورسوله صلى الله عليه وسلم .

أما بعد ، وفق الله الأمير لحال رشده ، وجنبه مقايح أمره ، وسخر له الخلق عن غامض ذكره ، فإن كتاب الأمير ورد عن الحائذ منه ، عن سبيل العظة والتذكير ، إلى سبيل التهديد والتحذير ، فيعد وقرب ، وآنس وهدد ، وجمع

وفرع . يبذل من نفسه باليسير فيها . ويدعو إلى الصلة ويحدث غيرها . ويعرض من ماله الأنفس . ويُصير من خطابه الأثر ، ويعدد من واجب حقه ، ولازم مفترضه . ما اعترف به مصداقاً ، لمن اعترف بالطاعة محققاً . الخ » .

وأخذ يجادل أباه في تبرير خروجه عليه بأسلوب أفصح . وبحجج قوية من المعقول والمنقول ؛ ويرد على ما جاء في كتاب أبيه مفنداً ومعتزلاً ، حتى لتخاله من إنشاء كتاب العراق (١) .

فلما ورد كتابه أغاظه ، وبلغ منه ، وأجابه يقول :

« إلى الظالم لنفسه ، العاصي لربه ، المُسَلِّمُ لدينه ، المبخوس من حظ دنياه وآخرته : سلامٌ على كل منيب ، مستجيب من قريب .

أما بعد : فإن مثلك مثل البقرة ، تثير المدينة بقرنها ، والنملة ، يكون حتفها في جناحها ، وستعلم — هَبِـلَتِكَ الهوايل ، أيها الأخرق الجاهل ، الذي ثنى عن الحق عطفه ، واغتر بضجيج المواكب خلفه — أيٍّ مورد هلكة سلكت ، إذ على الله ، جل اسمه تمردت ، فإنه تعالى قد ضرب لك (مثلاً قرية كانت آمنة مطمئنة ، يأتيها رزقها رغداً من كل مكان ، فكفرت بأنعم الله ، فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون) ، واعلم أن البلاء ، بإذن الله قد أظلك ، والمكروه قد أحاط بك ، والعساكر قد أتتك كالسيل في الليل ، تؤذئك بحرب وويل ، فإني لأقسم ، وأرجو ألا أجور وأظلم ، ألا أثني عنك عناناً ، ولا أوتر على شأنك شانا ، فلا تَتَوَقَّلْ (٢) ذروة ، أو تَلِجْ بطن واد ، إلا تبعتك وطلبتك ، حيث يمت

(١) رد أبوه عليه كتاباً مطولاً شديداً قلعه صبح الأعشى بتمامه ج ٧ ص ٥ ويقول الفلقشندى : إن الكتاب من إنشاء ابن عبد كان . ولا يقل في قوته الأدبية والمنطقية عما تقدم . وهنا صورته عن « سيرة ابن طولون » للبلوى ص ٢٦٠ وهي أقصر من رواية صبح الأعشى ، وتخالفها بعض المخالفة .

(٢) تصدقة .

وسلكت ؛ حتى تستمر من عيشك ما استحلّيت ، وتستدفع من البلاء ما استدعيت ، حتى لا دافع ، بعون الله ، يدفع عنك ، فتعرف من قدر الرخاء ما جهلت ، وتود أنك هلكت ، ولم تأت بما إليه عجلت ، ولا رأى من أطاف بك من الفؤاة قبلت . فحينئذ يتفري^(١) لك الليل عن سبحة ، ويسفر لك الحق عن نصحه ، فتتظر بعين لا غشاوة عليها ، وتسمع بأذن لا وقر فيها ، وتعلم أنك كنت مستمسكا بحبل غرور متادياً ، وسالكا سبيل ضلال لا تجد له هادياً ، من عقوق لا ينام طالبه ، وبنى لا يفوت هاربه ، وتقف على سوء رويتك ، وعظيم جريرتك ، في تركك قبول الأمان وهو لك مبذول ، وأنت عليه محمود ، واليد عنك كافّة والسيف عنك مغمود ، فتتلّهب ، واللهف غير نافعك ، إلا أن تكون أجبت إليه سريعاً ، وأقبلت نحوه هرعاً .

واعلم أنك لا تقصد موضعاً إلا تَلَوْتَك ، ولا تأتى بلداً إلا قَفَوْتَك ، ولا تلوذ بعاصم لينجيك ، إلا استغنت بالله عليه وعليك ؛ فإيبحرك إلا أحد رجلين ، إما لدين أو لدنيا ، فأما الدين فأنت بحكمه مفارق ، لأنك عاق مُشَاقِق ، وأما الدنيا فما أحسبه بقى معك من حطام ما سرقتَه ، مما حملت نفسك على الاستبداد به ، ما يفى بمكآثرنا ، مع ما وهبه الله ، جل اسمه ، لنا من جليل نعمه التي نستوزعه^(٢) الشكر عليها ، ورغب إليه في إدامتها .

وما دعاني إلى إرفاقك ، والتسهيل من خناقك ، طول هذه المدة ، إلا أمور : منها استضعاف أمرك واحتقاره ، وقلة الاحتفال به واستصغاره ، ومنها أنا جعلنا تركك على ما اخترته ، عقوبة لك من إياك إلى أقصى البلاد ، مبعداً عن الوطن والأهل ، والراحة والمهاد ، وقد فارقت بلدك ، وحرمت أهلك وولدك ؛ ومنها أنا

(١) ينشق .

(٢) نطلب منه التوفيق .

علمنا يقيناً أن الوحشة دعتك إلى الانحياز حيث انحزت ، فأهلناك ليسكن نفارك
وقلنا إنك تحن إلينا حنين الولد ذى الحسب ، وتثوق إلينا ثوقان ذى الرحم والنسب
فلم تسمع من واعظ ، ولم تعدد بمحافظ ، وأما الآن ، وقد اضطررنا إلى الاتزاع
نحوك ، لاستعمالك المواربة والمخادعة فيما يجري عليه تدبيرك ، فما أنت بموضع للصيانة
بل حقيق باللعنة والإهانة ، فعليك من ولد عاقٍ لعنة الله ولعنة اللاعنين والملائكة
والناس أجمعين ، لا قبيل الله لك صرفاً ولا عدلاً^(١) ، وأحاط بك حيث كنت ،
ولا حاطك حيث توجهت ، وستعلم ، أيها المخالف القاطع رحمه ، العاصي ربه ، أى
جناية على نفسك جنيت ، وأى كبيرة أتيت ، فتندم إن كانت لك روية ، وفيك
فضل إنسانية ، وتود أنك لم تكن ولدت ، ولا فى الخلق عرفت ، إلا أن ترجع
راغباً ، وتسرع خاضعاً ، إلى ما قبلنا ، فنقيم الاستغفار لك مقام اللعن ، والرقعة
مقام الغلظة والوهن ، والسلام على من سمع الوعظ فوعاه ، وذكر بالله فاتقاه .
وظفر ابن طولون بابنه العباس وجماعته ، فأهانهم وعذبهم ، وقتل كثيراً منهم
ومنهم ابن حدار الكاتب . وكان غيظه عليه أشد ، وحققه عليه أعظم ، لأن كتب
العباس إلى أبيه كانت من إنشاء هذا الكاتب .

وإذا قرأت كتاب ابن طولون الذى أرسله إلى ابنه العباس ، وكاتبه ابن
عبدكان ؛ لم تجد أيضاً فرقاً بينه وبين رسائل العراقيين ، فى صورته البليانية ، ذات
الفقرات القصيرة ، والعبارات الموسيقية ؛ المؤلفة النغم ، والسجع غير المتكلف ،
وفى خضوع اللفظ للمعنى ، والميل إلى الإسهاب إذا اقتضى المقام إسهاباً ؛ وقد
يسوق الدعاء خشواً واعتراضاً فى أثناء الكتابة ، كما كان الجاحظ يفعل .

ولا غرابة فى تشابه الكتاب ؛ فإن بغداد كانت المثال الذى يحتذى ، والرحلة
بين الأقطار الإسلامية كانت شائعة ، وانتقال الأدب من مصر إلى مصر ، ومن

(١) الصرف : التوبة ، والعدل الفدية .

حاضرة إلى حاضرة ، كان أمراً عاماً . وقل أن تجد كاتباً كالجاحظ وابن العميد يستقل بأسلوب وينفرد بطريقة . وقرأ مقدمة كتاب المكافأة ، تجد دعاء جاحظياً ، قصر صاحبه عن أن يسترسل استرسال الجاحظ ، ويتدفق مثله .

ولا ننسى هنا أن نعيد ما قلناه عن أحمد بن يوسف بن الداية ، فإن استقلاله وظهور شخصيته في كتاب المكافأة أمر يستحق الالتفات إليه ، ومن حسن الحظ أن له آثاراً باقية . أما ابن عبدكان فلا يمكن الحكم عليه من عدد قليل من الرسائل ؛ وكذلك ابن جدار ، وابن نصير العبادي ، وأحمد بن أيمن الخ . ولوقدرنا الاطلاع على رسائلهم وآثارهم الأدبية كاملة أوعلى كثير منها لاستطعنا أن نعرف خصائصهم الكتابية ، ونميز كاتباً عن كاتب كما ميزهم ابن طولون عندما كانت ترد عليه كتب ابنه العباس وهو ثائر عليه ، وأدرك أسلوب كل كاتب ، ورد إليه عباراته . وما دمننا بصدد الكلام عن الصفات الشائعة في الرسائل فنتم القول ببعض عبارات كانوا يبتدئون بها رسائلهم ويختمونها . فقد روى صبيح الأعشى ^(١) أن ابن عبدكان كان يفتتح ما يكتبه عن ابن طولون في الولايات بلفظ : « إن أحق كذا » أو « إن أولى كذا » وما أشبه ذلك . ومن ذلك ابتدأوه في نسخة عهد عن ابن طولون بقضاء برقة .

« إن من أحق من آثر الحق وعمل به ، وراقب الله في سر أمره وجهره ، واحترس من الزبغ والزلل في قوله وفعله ، وعمل لمعاده ورجعته ، إلى دار فاقته ، وفقره ومسكنته ، من جمل بين المسلمين حاكماً ، وفي أمورهم ناظراً » .
وكانوا يبتدئون الإخوانيات — مما جرى عليه ابن عبدكان وغيره — بالدعاء وعليه غالب كتابتهم ، فكانوا يدعون بطول البقاء كقول ابن عبدكان :

(١) ج ١١ ص ٢٩ . وجاء في صبيح الأعشى ج ٨ من ص ١٦٠ — ص ١٦٦ كثير من الأمثلة والعبارات التي كانت طابع الرسائل في ذلك الوقت .

« عمر الله بك الأزمنة والدهور ، وأنس ببقائك الأيام والشهور ، وأمتع بدوام عزك ، السعداء بحظهم منك » .

وقد يكون الدعاء « بدوام النعمة » أو بـ « جعلت فداك » . وقد يتركون الدعاء بهذين إعظاماً لقدر المكتوب إليه . وتلك مبالغة وتكلف في قلب المعاني كقول ابن عبدكان :

« إن قلت ، في كتيبتي « جعلني الله فداك » أكون قد بخستك حظ إحسانك إني ، وحق مُفترَضك علي ؛ لأن نفسي لا توازي ساعة من يومك ، ولا تساوي طرفة من دهرك ، وإنما يُفدّئ مثلك بالأنفس التي هي أنفس من الدنيا ، وأعرض من أقطار الأرض » .

وقد يدعون بصلاح الدنيا ، وغبطة الآخرة ، وكبت العدو ، وطيب الحياة ، وكل ما يمكن أن يدعى به ، مع مراعاة المناسبة بين الدعاء والمدعوله ووقت الدعاء . وكانوا يفتتحون كتبهم بقولهم : « كتابي إليك » ، أو « أنا من جملة صنائعك » أو شبه ذلك .

وكانوا يجيبون على الرسائل مبتدئين بما يفيد وصولها ، ويعقبون بالثناء عليها وعلى مرسلها ، والدعاء له بمثل ما تقدم ، ومن ذلك كتاب ابن عبدكان :

« وصل كتابك مشتملاً من أنواع البر ، على ما يقصر في جنب أيسره أعظم الشكر .

ويختتمون الرسائل بالأدب المتكلف ، والتلطف المبالغ فيه ، مما توجيه الحضارة ويفرضه اختلاف منازل الناس وأقدارهم فيها .

وصار بعضهم مقصد الأدباء . فقد روى أن أحدهم ذهب إلى ابن عبدكان فحجبه فكتب إليه :

إني أتيتك للتسليم أمس ، فلم تأذنْ عليك لي الأستارُ والحُجُبُ

وقد علمتَ بأنِّي لم أرَدَ ، ولا والله ما رُدَّ إلا العلمُ والأدبُ
فأجابه ابن عبدكان مضمناً بيت أبي تمام في عتاب عبد الله بن طاهر :
لو كنتَ كافيتَ بالحسنى لقلتَ كما قال ابن أوس ، وفيما قاله أدب
« ليس الحجابُ بمُقَصِّ عنك لي أملا إن السماءَ رَجَّحِي حينَ تَحْتَجِيبُ »

وكان ابن عبدكان يعرف أقدار أهل الأدب ويستعين بالفضلاء منهم . وكانت
شهرة ذائعة في العراق ، فقصده من هناك أديب صار له ذكر في عهد خمارويه وهو :
اسحق بن نصير الكاتب البغدادي أبو يعقوب .

وقد ترجم له ياقوت في معجم الأدباء ^(١) فقال :

« كاتب الرسائل بديوان مصر بعد محمد بن عبد الله بن عبدكان »

وجاء ياقوت بخبر اتصاله بابن عبدكان ، نقلا عن ابن زولاق . فقال :

« وكان أبو جعفر محمد بن عبد الله بن عبدكان ، على المكاتبات والرسائل ،
منذ أيام أحمد بن طولون ، إلى أن قدم عليه أبو يعقوب ، اسحق بن نصير البغدادي
من العراق ، والتمس التصرف ؛ فقال له ابن عبدكان : فيما ذا تتصرف ؟ فقال :
في المكاتبات والأجوبة والترسل .

وكان بين يدي أبي جعفر كتب قد وردت ، فقال له : خذ هذه وأجب عنها ،
فأخذها ومضى إلى ناحية من الدار ، فأجاب عنها ، ثم وضع خفه تحت رأسه ونام .
وقام أبو جعفر إلى الحجرة التي له ، فاجتاز به والكتب بين يديه ، فأخذها وقرأها ،
فلما تأملها جعل يُروِّحُ اسحق بن نصير حتى اتبته . »

ثم أجرى عليه أربعين ديناراً في كل شهر ، وظل معه إلى أن مات ابن
عبدكان .

ولما انفرد على بن أحمد الماذرائى بالكتابة ألزم اسحق بن نصير منزله . ووردت كتب فأجاب عنها على بن أحمد ، وعرضها على مولاة خمارويه فأنكرها ، فأعاد كتابتها ، فأنكرها خمارويه أيضاً ، فاضطر إلى استدعاء اسحق بن نصير فأجاب عن الكتب ، ودخل « على بن أحمد » على خمارويه فقرأ الأجوبة ، فقال : نعم ، هذا الذى أعرف ! « إيش الخير ؟ » فقال له : كاتب كان مع أبى جعفر فاعتزل ، وأحضرت الساعة . فاستدعاه خمارويه وأمر على بن أحمد أن يجعل رزقه أربعمائة دينار فى الشهر .

وقال لإسحق بن نصير : « لا تفارق حضرتى . فبلغ اسحق حتى صار رزقه ألف دينار فى كل شهر . فكان يجود بذلك ، ويفضل به على الناس » . ولقد أرسل إلى بغداد ثلاثة آلاف دينار دفعة واحدة ، ألف منها لأبى العباس المبرد ، ومثلها إلى أبى العباس ثعلب ، والألف الثالثة إلى وراق كان يجلس عنده . وقد توفى اسحق سنة ٢٩٧ .

وترى فى أخبار إسحق هذه أن خمارويه كان كأبيه ، يعرف الفرق بين كاتب وكاتب ، وبين أسلوب وأسلوب ، وأنه كان يقدر الأدباء ، ويجزل عطاءهم . وأن الصلة بين كتاب مصر والعراق لم تكن منقطعة .

أما الماذرائى فهو من أسرة ولى بعض رجالها كتابة الطولونيين وتدبير أموالهم ومنهم محمد بن على الماذرائى ، وعمه الحسين بن أحمد . وكان لهم عمل بها بعد الطولونيين أيضاً^(١) .

وكانت ظروف الحرب والسياسية والحوادث التى توالى على البلاد فى أيام خمارويه وبعده إلى قيام الفاطميين ، ظروفًا تنهض فيها الكتابة بكثير من الأعباء ، كرسائل الصلح ، وكتب المهود ، وأجوبة الولاء والطاعة ، وصحائف التهديد

والتحذير ، وغير ذلك من كل ما تحتاج إليه الدولة في صلتها بدار الخلافة ورجالها ، أو تحتاج إليه في صلتها بالدويلات التي كانت تابعة لها أو مجاورة ، كالشام وإفريقية والحجاز .

وكانت مصر قد أنشأت ديوان الرسائل ، واختارت له كتاباً قاموا بأعمالهم فيه على درجة من البلاغة والمهارة والحذق ، لا تقل عما كان في حاضرة الخلافة ؛ ولكن الباقي من آثار أولئك القوم هو أسماؤهم ، وإشارات إلى كتبهم ، لا تغني كثيراً عن تلك الآثار .

وإذا جاز لنا أن نحكم بما بقي ، قلنا إن كتاب مصر في هذا العصر كانوا يسيرون على طريق النثر الفنى في القرن الرابع ، من عناية بالمحسنات البديعة كالسجع والجناس ، والاقتراس من القرآن الكريم ، والاستشهاد به ، وحل أبيات الشعر ثم العناية بترتيب المعاني وتنظيم الفقرات ، وكثرة الدعاء والألقاب ، وتمييز الطبقات في الكتب . وزيادة أنواع البدء واختتام عما كان متبعاً من قبل . مع التنقل بين الإيجاز والإطناب بحسب الموضوع ، أو جهة الإنشاء الصادرة عنها أو الواردة إليها .

ومن الرسائل الباقية من عهد الإخشيديين رسالة بعث بها الإخشيد ، محمد بن طغج ، صاحب الديار المصرية ، وما معها من البلاد الشامية ، والأعمال الحجازية ، إلى أرمانوس ملك الروم ، رداً على كتاب منه إليه ، نستطيع أن نعرف فحواه من كتاب الإخشيد في الرد عليه . ويخيل إليك وأنت تقرأ رد الإخشيد أن الكاتب كان يرد على كتاب أرمانوس فقرة فقرة ، بشئ من التطويل والإسهاب ، وجاء في كتاب أرمانوس فقرة تشير إلى أنه كاتب الإخشيد وهو وال للخليفة ، ولم تكن عادته أن يكتب إلا الخليفة نفسه .

ومما يدل على غنى ديوان الرسائل بالكتاب أن الإخشيد أمر بالرد على

كتاب أرمانيوس، فكتب له الكتاب عدة أجوبة، ورفعوا نسخها إليه؛ فلم يرض منها إلا ما كتبه إبراهيم بن عبد الله النجاشي — وكان عالماً بوجوده لكتابه، وهو كتاب مطول في صفحات، وكثير من عباراته مكرر. وقد بدأه: « من محمد بن طنج، مولى أمير المؤمنين، إلى أرمانيوس عظيم الروم ومن يليه: « سلامٌ بقدر ما أنتم له مستحقون، فإننا نحمد الله الذي لا إله إلا هو، ونسأله أن يصلي على محمد عبده ورسوله، صلى الله عليه وسلم.

أما بعد. فقد ترجم لنا كتابك الوارد مع نقولا واسحق رسوليك، فوجدناه مفقوتاً بذكر فضيلة الرحمة، وما أُمنى غنا إليك، وصح من شيمنا فيها لديك، وبما نحن عليه من المعدلة وحسن السيرة في رعايانا، وما وصلت به هذا القول، من ذكر الفداء، والتوصل إلى تخليص الأسرى، إلى غير ذلك مما اشتمل عليه وتفهمناه.

فأما ما أطنبت فيه من فضيلة الرحمة؛ فمن سديد القول، الذي يليق بذوى الفضل والنبيل، ونحن — بحمد الله ونعمه علينا — بذلك عارفون، وإليه راغبون وعليه باعثون، وفيه — بتوفيق الله إيانا — مجتهدون، وبه متواصلون وعاملون، وإياه نسأل التوفيق لمرشد الأمور، وجوامع المصالح، بمنه وقدرته.

وأما ما نسبته إلى أخلاقنا من الرحمة والمعدلة، فإننا نرغب إلى الله جل وعلا، الذي تفرد بكمال هذه الفضيلة، ووهبها لأوليائه ثم أثابهم عليها، أن يوفقنا لها ويجعلنا من أهلها، ويسرنا للاجتهاد فيها، والاعتصام من زيف الهوى عنها، وعمرّة القسوة بها، ويجعل ما أودع قلوبنا من ذلك موقوفاً على طاعته، وموجبات مرضاته، حتى نكون أهلاً لما وصفتنا به، وأحق حقاً بما دعوتنا إليه، ومن يستحق الزلفى من الله تعالى، فإننا فقراء إلى رحمته، وحق لمن أنزله الله بحيث أنزلنا وحمله من جسم الأمر ما حملنا، وجمع له من سعة الممالك ما جمع لنا، بمولانا أمير

المؤمنين — أطال الله بقاءه — أن يتهل إلى الله تعالى في معونته لذلك ، وتوفيقه وإرشاده ، فإن ذلك إليه وبيده « ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور » .

وترى في هذه الفقرات التي تقدمت ، سلاماً فيه حذر ، وحمداً لله ، وصلاة على رسوله ، وإجمالاً لخطاب أرمانيوس ، ورداً مفصلاً عليه بعد ذلك ، وترى فيه الاعتراض بين أجزاء الجملة ، وتقسيم الجملة الواحدة إلى أجزاء ، وإطناباً عاماً . وتحس في كثير من الفقرات أن الرسالة قد انتهت ، لأنه كان يختتمها بعبارات تشبه عبارات الختام ، ويتكرر ذلك أكثر من مرة في الرسالة . وآخر ما قاله :

« ومن ابتدأ بجميل لزمه الجرى عليه والزيادة ، ولا سيما إذا كان من أهله وخليقاً به ، وقد ابتدأنا بالوأنسة والمباشطة ، وأنت حقيق بعمارة ما بيننا ، وباعتمادنا بجواهرنا وعوارضك قبلنا ، فأبشر بتيسير ذلك إن شاء الله تعالى » .
« والحمد لله أحق ما ابتدئ به وختم بذكره ، وصلى الله على محمد نبي الهدى والرحمة ، وعلى آله وسلم تسليماً » .

والنجيري منشيء هذا الكتاب نحوي لغوي ، أخذ عنه أبو الحسين المهلبى ، وجنادة اللغوي الهروي ، وكثير من أهل العلم ، وكان مقامه بمصر^(١) . أما نسبه فإلى « نجيرم » وهي قرية كبيرة على ساحل بحر فارس . وكان يقول الشعر أيضاً . وقد امتد به العمر إلى زمن كافور . ورويت له نادرة في الشعر تدل على حضور بديهته ، وحسن تأويله ولباقته ، وبخاصة فيما اتصل بالنحو الذي كان بعض صناعته . روى ياقوت قال : (٢) .

« حدثني بعض أهل مصر عند كوني بها في سنة اثنتي عشرة وستمائة ... أن الفضل بن عباس دخل على كافور الإخشيدي فقال له : أدام الله أيام سيدنا الأستاذ

(١) معجم الأدباء ج ١ ص ١٩٨

(٢) ج ١ ص ١٩٩

تخفف الأيام ، فتبسم كافور إلى أبي اسحق النجيري . فقال أبو اسحق .
 لا غرور أن لحن الداعي لسيدنا وغص من هيبة بالريق والبهر
 فقل سيدنا حالت مهابته بين البليغ وبين القول ، بالحص
 فإن يكن خفف الأيام عن دهن من شدة الخوف لا من قلة البصر
 فقد تفاءلت في هذا لسيدنا والقال نأثره عن سيد البشر
 بأن أيامه خفف بلا نصب وأن دولته صفو بلا كدر

قال : فأمر له بثلاثمائة دينار ، ولابن عباس صاحب الغلط بمثلها .
 هكذا أخبرني المصري في خبر هذا الشعر . وأنه لأبي اسحق النجيري .
 وهناك رواية أخرى في هذا الشعر وفي قائله ، وإن اتفقت الروايتان على أن
 الخطأ والشعر كانا في مجلس كافور .

وقد سمعنا برسائل أرسلها كافور الإخشيد إلى عامله على دمشق كي يرسل إليه
 المتنبي ، فكتب إليه عامله إن المتنبي قال : لم أقصد العبد ، إن دخلت مصر
 فما قصدي إلا سيده ^(١) .

وكتب يطلبه من أمير الرملة أيضاً .
 ولهذه الرسائل قيمتها في الدلالة على حرص كافور على الأدب وعلى المتنبي خاصة .

الفصل السادس

الشعر إلى آخر بني أمية

١ — إلى عبد العزيز بن مروان :

لعلك تحس بشيء من العجب إذ ترى الشعر متخلفاً عن ركب العرب الذين جاءوا إلى مصر فاتحين ؛ فليس في آثار القوم الأدبية شيء من الشعر في وصف فتوحهم العظيمة ، وليس فيما عندنا مقطوعة منه يفخرون فيها بهذه الفتوح ، ولا قصيدة يذكر فيها شيئاً صادفهم ؛ مما يلفت النظر ، ويشير الخيال ، ويبعث ويبعث الدهش . وما أكثر ما صادفهم من ذلك في هذه البلاد !

ولا أظن أن جيش هؤلاء الفاتحين خلا من شعراء تهزهم غرابة الحوادث ، أو يفتنهم جمال المناظر ، أو يشوقهم ما خلفوا وراءهم من أحباب وأوطان وذكريات . فما الذي جعل الأدب العربي في مصر إلى عهد معاوية خالياً من آثار الشعر ، لا نجد منه قصيدة أو مقطوعة ؟ وما نلجده إلى عهد عبد العزيز قليل جداً ؟

قد يرجع ذلك إلى ما أصاب الشعر العربي كله من فتور وضعف في صدر الإسلام ؛ إذ شغل المسلمون بالدين وبالفتوح ، وبما يناسبهما من دراسة وخطابة وكتابة . ولكن الدين والفتوح لا يحاربان الشعر في مجلته ، ولا يقضيان عليه من حيث هو شعر ، بل إن في الدين والفتح قوة عظيمة تدفع إلى الشعر ، وتحمل على الإجابة فيه ، ولكن الذي حدث فعلاً أن أصيب الشعر العربي بذهول وفتور من أول الإسلام إلى عهد الأمويين تقريباً ، على أنه ظل محتفظاً بشيء من السلامة

والعافية في بيئته العربية ؛ في الحجاز ، وفي بعض الأماكن التي نزلها العرب كالعراق والشام . وكان هناك من يحتفظ بشاعريته ، ويحاول أن يثبت وجودها بين حين وآخر ؛ مثل حسان ، وأبي محجن الثقفي ، والحطيئة وغيرهم . لكن الظروف التي هيأت للشعر أن يحيا حياة طيبة في الجاهلية ، وفي عهد بني أمية ، لم تتوفر في تلك السنين التي بينهما .

ولا أظن هذه الفترة في تاريخ مصر ، من عهد عمرو إلى عبد العزيز بن مروان ، قد أفقرت من شعراء سجلوا خواطرهم ومشاعرهم ؛ في زمن الفتح ، وفي الثورة على عثمان ، وفي النزاع بين علي ومعاوية ، وفي عهد الدولة السفينانية .

وقد نسب إلى عمرو نفسه أنه كان يقول الشعر ، وأن نفسه كانت نفس شاعر ، وكذلك كان أسلوبه . وكان عقبه بن عامر وإلى مصر لمعاوية سنة ٤٤ « قارئاً فقيهاً شاعراً ، له الهجرة والصحبة »^(١) ، ولكنه لم يخلف بيتاً واحداً ، وربما منعه من قول الشعر بالفسطاط ، ما منع لبيداً قبله بالكوفة ، لأن الله قد أبد لهم خيراً منه وهو القرآن .

وأياً ما كان فإن رواية الشعر في مصر كانت قليلة ، وكان للرواة مواطن أشهى وأعمر من مصر . فلم يبق من هذه الفترة إلا أبيات قليلة نسبت إلى شعراء مغمورين .

وقد تجد بيتاً أو بيتين أو ثلاثة ، تجهل قائلها ، أو تضل في قراءتها ، ويخفى عليك معناها لانفرادها ، أو لغموض الظرف الذي أحاط بها .

وبقي من هذا القليل المفهوم بيت رجز أو بيتان ، من العهد الأول :
فقد غزا عبد الله بن سعد الأساود حتى بلغ دُمُـقْلة سنة ٣١ فقاتلهم قتالا شديداً ، وهادتهم بعد ذلك ، فقال شاعرهم :

لم تر عيني مثلَ يومِ دُمُـقْلة والخيـلُ تعدو بالندروع مُـقْلة^(٢)

(١) الولاية والقضاء ص ٣٧ . (٢) الولاية والقضاء ص ١٢ .

ويروى أن جماعة المصريين الذين كانوا بالمدينة في فتنة عثمان ، انصرفوا إلى مصر . فلما دخلوا الفسطاط ارتجز مرتجزهم :

خُذْهَا إِلَيْكَ وَاحْذَرْنَ أَبَا حَسَنٍ إِنَّا مُنْمِرُ الْحَرْبِ إِمْرَارَ الرَّسَنِ
بالسيف كي نُخْصِمَ نيرانَ الفتن^(١)

ولما دخلوا المسجد صاحوا : إنا لسنا قتلنا عثمان ، ولكن الله قتله ، فلما رأى ذلك شيعة عثمان قاموا وعقدوا لمعاوية بن حُديج عليهم وبايعوه .

ومن هؤلاء الشعراء المغمورين رجل يقال له أبو المصعب البلوى ، وله قصيدة يهجو فيها بعض رجالات العرب في مصر ، وكان معاوية كلما قدم عليه رجل سأله أن ينشده إياها . وليس فيها ما يستحق الوقوف عنده إلا الشتم^(٢) .

ولو فهمناها على أنها من الشعر السياسي الذي يتخذ الهجاء صورة له ، عرفنا السر في إعجاب معاوية بها ، وسؤاله كل قادم من مصر أن ينشدها ، ومنها :

وليس بما جِدَ الجَدَّاتِ قَيْسٌ^(٣) وَلَكِنْ حَضَرَمِيَّاتِ رِقَاءِ
وَأَعْرَضَ نَفَحَهُ الِيزْبُوعُ عَنِي يَزِيدٌ^(٤) بَعْدَ مَا رُفِعَ اللِّوَاءُ
أَشَارَ بِكَفِّهِ الِیْمَنِ وَكَانَتْ شِمَالًا لَا يَجُوزُ لَهَا عَطَاءُ
أَكَلَمُ عَائِذًا^(٥) وَبَصْدَ عَنِي
وَجُرْفٌ قَدْ تَهَدَّمَ جَانِبَاهُ كُرَيْبٌ^(٦) ، ذَا كَمِ الْبَرَمِ الْعَيَاءُ

(١) الولاية والقضاة ص ١٨ .

(٢) رواها ابن عبد الحكم في « فتوح مصر » ص ١٢٣ .

(٣) قيس بن كليب ، كان حاجب عمرو بن العاص ، وصار حاجباً لعبد العزيز بن مروان بعد ذلك .

(٤) يزيد بن شر حبيب بن حسنة . والنفع = العطاء

(٥) عائذ بن ثعلبة البلوى ، قتل بالبرلس في حرب مع الروم سنة ٥٣ هـ .

(٦) كريب بن أبرهة بن الصباح ، وكان من رجالات مصر في ذلك العهد .

وأما القحزى^(١) فذاك بغل أضربَ بهِ مع الدَّبرِ الحَفَاءِ

ولهذا الشاعر قصيدة أخرى مدح فيها عبد الرحمن بن قيسية بن كلثوم
التجيبى ، الذى وهب أبوه داره لتكون مسجداً بالفسطاط . وبقى من هذه
القصيدة قول أبى المصعب لعبد الرحمن :

وأبوك سَلَّمَ دارَه وأباحها لِجِبَاه قومٍ رُكِعَ وَسُجود^(٢)

ولا يعرف عن قائل هاتين القصيدتين إلا اسمه وكنيته . فاسمه قيس بن سلمة
وكنيته أبو المصعب . ولا ندرى إن كان جاء إلى مصر مادحا أو مقبلا .

وقال شاعر آخر اسمه أبو قَبَّان بن نعيم التجيبى ، مفتخراً بفتح بابليون ،
ومادحا فعل قيسية بن كلثوم ، فى تصدقه بداره لتكون مسجدا :

وبابليُّونُ قد سعدنا بفتحها وحُزنا، لَعَمْرُ الله، فَيُثَاوِ مَغْنَمًا
وقيسية الخير بن كلثوم ، داره أباحَ حماها للصلاة وسَلَّمَ
فكل مُصَلٍّ فى فَنَانَا صَلَاتُهُ تعارف أهلُ مصر ماقلتُ، فاعلم^(٣)

فما الذى يدل عليه مدح شاعرين لهذا المتبرع ؟ إنه يدل على تعدد الشعراء ،
وعلى أهمية بناء مسجد فى ذلك الوقت ، ويدل على منزلة هذا المتبرع ، وقد ذكر
المقريزى أن المسجد الذى بنى مكان دار قيسية هو مسجد عمرو ، أو المسجد الجامع
وهو أول مسجد بنى بمصر فى الإسلام .

وأمر معاوية واليه مسلمة بن مخلد فى سنة ٥٣ بالزيادة فى المسجد الجامع ،
فهدم ما كان عمرو بناه وبنى آخر ؛ وأمر بابتناء منار المساجد كلها ، وهو أول من
فعل ذلك .

(١) القحزى هو عمرو بن قحزم الحولانى ، كان من شيعة عثمان .

(٢ ، ٣) خطط المقريزى ج ٢ ص ٢٤٦ ، اسم الممدوح « قيسية » فى بعض الروايات

وقال رجل يسمى عابد بن هشام الأزدي يذكر فعل مسلمة ويمدحه (١) :

لقد مدّت لمسلمة الليالى على رغم العُدّة مع الأمانِ
وساعده الزمان بكل سعد وبَلّغه البعيد من الأمانِ
أمسَلَمَ فارتقى ، لازلت تعلو على الأيام ، مَسَلَمَ ، والزمانِ
لقد أحكمت مسجدا فأضحى كأحسن ما يكون من المباني
فتّاه به البلاد وساكنوها كما تاهت بزینتها الفواني
كأن تجاوب الأصوات فيه إذا ما الليل ألقى بالجرانِ
كصوت الرعد خالطه دوى وأرعب كل مختطف الجنانِ

وليس فى أسلوب هذه الأبيات الخمسة الأولى ، ولا عباراتها ، ما يصلها بالشعر الجيد فى ذلك العهد ، لأنها مهلهلة ؛ ليس فيها شىء من جزالة الشعر عندئذ ، بل إن روح الضعف البادى فيها تجعلها شبيهة بمؤرخ — لا شاعر — قالها بعد ذلك بقرون . وكيف ننسب قوله : « فأضحى كأحسن ما يكون من المباني » — على جدته وحدانة تركيبه — إلى عهد معاوية ؟ وكيف نجعل « تيه البلاد وساكنيها بالمسجد مثل تيه الفواني بزینتها » شبيها بذلك العصر ؟

ولكن هكذا روى الشعر وهكذا نسب .

ولما قدم مروان بن الحكم على مصر ، أجمع أهل البلاد على رده عنهم ، وكان عليهم عبد الرحمن بن جحدم عامل ابن الزبير ، وهو الذى حفر خندقا حول القسطنطين سنة ٦٤ فى شهر واحد ، فقال شاعر يعرف بابن أبي زمزمة الحسنى :

وما الجرد إلا جدُّ ابن جحدم وما العزم إلا عزمه يوم خندق

ثلاثون ألفاً هم أثاروا تراه وخدّوه في شهر ، حديثُ مصدّق^(١)

وسارت ثلاثة جيوش لرد مروان ؛

أحدها في البحر وعليه الأكد بن حمام فنزل عاصف بالمرأكب ففرقها ، ونجا أميرها وعاد إلى القسطنطينية^(٢) .

وأما الجيش الثاني فكان برياً ، وعليه السائب بن هشام بن كنفانة العامري ؛ فأخبر رُوْح بن زُبَاع أميره مروان أن للسائب ابناً مسترضعاً في فلسطين ؛ فأخذه . فلما التقى الجمعان أبرز مروان الصبي ، وقال : أتعرف هذا يا سائب ؟ قال : هذا ابني ! قال : نعم ، فوالله لأن لم ترجع عودك على بدئك لأرْمِيَنَّكَ برأسه . فرجع بجيشه ولم يقاتل .

وكان الجيش الثالث برياً أيضاً ، وعليه زهير بن قيس البلوي ، ووجهته « أيلة » ليمنع عبد العزيز من السير إليها ، فالتقيا « ببُصَاق » وهي سطح عقبة أيلة ، فهزّم زهير ، ومن الغريب أنه قال لعبد العزيز مادحاً :

مَنْعْتَ بَصَاقًا وَالْمِطَاحَ فَلَمْ تُرَمَّ بِطَاحُكْ لِمَا أَنْ حَمِيتَ ذِمَارَكَ
قَسَرْتَ الْأَثْلَى وَلَوْ أَعْنِ الْأَمْرَ بَعْدَمَا أَرَادُوا عَلَيْهِ ، فَأَعْلَمَنَّ ، اقْتَسَارَكَ

وسار مروان حتى نزل عين شمس ، فخرج إليه ابن جحدم ، فتحاربوا يوماً أو يومين . ثم رجع المصريون إلى خندقهم ، فصوّفوا عليه ، فكانت تلك الأيام تسمى أيام « الخندق » ، والتراويح « لأن أهل مصر كانوا يقاتلون نوباً ، يخرج هؤلاء ثم يرجعون ، ثم يخرج غيرهم ، واستحضر القتل في المعافر فقتل منهم جمع ، وقتل كثير من أهل القبائل من مصر ، وقتل من أهل الشام جمع كثير . قال عبد الرحمن بن الحكم^(٣) :

(١) الولاة والقضاة ص ٤٢ ، خدّوه = شقّوه .

(٢) ص ٤٤

(٣) ص ٤٣

ألا هل أتاها على نأيتها
بلغنا بفيلق يغشى الظراب
وجاشت لنا الأرض من نحوهم
وأحياء مَذْحِج ، والأشعرين
وسدت مَعَاوِرَ أَفْقِ الْبِلَادِ
ونادى الكُفَمَاءُ : ألا فابزوا
فلو كنت ، رَمْلَةٌ ، شاهدته
نَبَأُ التَّوَايِخِ وَالْخُنْدُقِ
بعيد السمو لمن يرتقى
بحيى نُجَيْبٍ وَمِنْ غَافِقِ
وَحَمِيرِ كَالْهَبِ الْمَحْرَقِ
بِمُرْعِيدِ جَيْشِهَا مُبْرِقِ
فَتَامِ ، حَتَّى ، وَلَا نَلْتَقِي
تَمْنِيَتِ أَنْكِ لَمْ تَخْلُقِي

وباع الناس لمروان إلا المَعَاوِرَ ، فقتل عدداً كبيراً منهم ، وقتل الأَكْدَرُ
ابن حمام في جمادى الآخرة سنة ٦٥ ، وكان سيد نخم وشيخها ، وممن حضر فتح
مصر هو وأبوه ، وكانا ممن سار إلى عثمان . ومات في اليوم نفسه عبد الله بن عمرو
ابن العاص ، فلم يستطع الخروج بجنازته لتشغب الجند على مروان بسبب قتل الأَكْدَرِ ،
فدفن عبد الله في داره ، وقال زياد بن قائد اللخمي يرنى الأَكْدَرُ (١) :

كَمَا لَقِيتُ نَخْمٌ مَا سَاءَهَا
بِأَكْدَرٍ ، لَا يَبْعَدُنْ أَكْدَرُ
هُوَ السِّيفُ أَجْرِدٌ مِنْ غَمْدِهِ
فَلَاقِ الْمَنَائِيَا وَمَا يَشْعُرُ
فَلَهْفِي عَلَيْكَ غَدَاةَ الرَّدَى
وَقَدْ ضَاقَ وَرْدُكَ وَالْمُصْدَرُ
وَأَنْتَ الْأَسِيرُ بِلَا مَنَعَةٍ
وَمَا كَانَ مِثْلُكَ يَسْتَأْسِرُ

هذه الأبيات القليلة التي جاءتنا من شعر ذلك العصر ، فيها المهجاء والفخر
والرثاء والمدح والوصف ، ولكنها لا تصلح أساساً للحكم على الشعر عندئذ ،
لقلتها ، ولما أصاب بعضها من تحريف جعل من العسير قراءته وفهمه فهماً صحيحاً .

(ب) عبد العزيز بن مروان :

إذا كان للشعر بواعث تثيره ، وعوامل تدعو إليه ، وظروف ترغب في الرحلة به ، ومزايا تشجع على روايته ، فقد تحققت هذه في زمن عبد العزيز بن مروان .

ولى عبد العزيز أمر هذه البلاد لأبيه ، ولأخيه عبد الملك ، أكثر من عشرين عاما (سنة ٦٥ — ٨٦) ، وفي عهده الطويل ازدهر الشعر ، ووفد الشعراء لمدحه وسنرى أن شخصية عبد العزيز وصفاته ، كانت من أكبر الأسباب التي جعلت مصر في أيامه قبلة كثير من الشعراء ، ومطمع عدد من المادحين . وكان الذين قصدوا مصر لمدحه ، أكبر عدداً ممن وفدوا عليها من الشعراء في أى عهد آخر ، ولا نعرف والياً غيره طال عهده في البلاد كما طال عهد عبد العزيز ، مع العناية بالأدب والرواية ، والاهتمام بالمديح ووفادة الشعراء .

وكان قصره في مصر شبيهاً بقصر أخويه ، عبد الملك في دمشق ، وبشر في العراق . فكانت قصورهم مثابة الشعراء ومنتدى الأدباء ، وكانت لهم فيها مجالس يُسَقَّون فيها من رحيق الأدب العربي ألذه ، ويسمعون من موسيقاه أحلاها ، ويستمتعون من نوادره بأعجبها ، ولهم فيه النقد القيم ، والتوجيه الحسن .

ولا ننسى أن عبد العزيز كان ولى عهد الدولة ، وكانت الآمال معلقة به بعد عبد الملك ، وكان له في مصر نعيم وملك كبير .

ومن الذين وفدوا عليه بمصر :

١ — أَيْمَنُ بْنُ خُرَيْمِ بْنِ فَاثَلِكِ الْأَسَدِيِّ :

وهو شاعر من الذين كثر قلبهم في البلاد ، وقلبهم في العقيدة . فقد كان

أيمن شيعياً ، ثم تولى آل الزبير ، ثم انقلب أموياً ، ووالى عبد العزيز ، ثم مال عنه إلى بشر .

وقد جاء إلى مصر غاضباً من يحيى بن الحكم ، عم عبد العزيز ؛ كما خرج منها غاضباً ، لأن عبد العزيز فضل عليه شاعراً آخر ، هو نصيب بن رباح .
كان بجيئه إلى مصر لمدح عبد العزيز ، ومن شعره فيه ^(١) :

لَا يَرْغَبُ النَّاسُ أَنْ يَبْعِدُوا بَعْدَ الْعَزِيزِ بْنِ لَيْلَى أَمِيرَا
تَرَى قِدْرَهُ مُعَلَّنًا بِالْفِئَاءِ يَلْقَمُ بَعْدَ الْجُزُورِ الْجُزُورَا
وهو شعر عربي في لفظه ومعناه ؛ فقد مدح عبد العزيز بما جرت به العادة ، إذ مدحه بالكرم ، وإطعام الطعام . ومجبة الناس له ، حتى ما يرغبون أن يعدلوا به أميراً . وهو مدح هادئ معتدل ، لا مبالغة فيه ولا إسراف .

أما نسبة عبد العزيز إلى أمه فهي نسبة كان يحبها ، ويحب أن يراعيها الشعراء في مدحهم له ، كما كان معاوية يحب هذه النسبة لشرف أمه . وما أباهَا عبدُ الملك في مدح ابن قيس الرقيات له إلا لسبب آخر ، إذ أضاف الشاعر عبدَ الملك إلى « بطن عائشة » أمه ، فسكره عبد الملك أن يتحدث عن بطن أمه في الشعر .

وإذا أردنا أن نعرف منزلة أيمن عند عبد العزيز بن مروان فعليماً أن نقص بعض أخبار نصيب في مصر ، فإن لأيمن دوراً كبيراً فيها ، وكانت ذات أثر خالد في حياته ، إذ قطعت صلته بعمد العزيز وبمصر .

روى الأغاني وفاة نصيب على عبد العزيز بروايات مختلفة ، تجمع كلها على أنه لقي أيمن عنده ، ونكتفي منها بما روى في ترجمة أيمن نفسه ، قال أبو الفرج ^(٢) :
« دخل نصيب يوماً إلى عبد العزيز بن مروان ، فأشده قسيمة له امتدحه بها »

(١) الولاة والقضاة ص ٥٢ وأول المدح هناك « لا يرهب » وهو تحريف

(٢) ج ٢١ ص ٧

فأعجبته ؛ وأقبل على أيمن بن خريم فقال : كيف ترى شعر مولاي هذا ؟ قال : هو أشعر أهل جلدته . فقال : هو أشعر والله منك ! قال : أمسني أيها الأمير ؟ فقال : إي والله . قال : لا والله ، ولكنك طريفٌ مَسْلُول . فقال له : لو كنتُ كذلك ما صبرتُ على مؤاكلتك منذ سنة ، وبك من البرص ما بك . فقال : ائذن لي أيها الأمير في الانصراف . قال : ذلك إليك . فمضى لوجهه حتى لحق ببشر بن مروان ، وقال :

ركبت من المقطم في جُمادى إلى بشر بن مروان البريدا «

ومدح بشراً بأبيات ختمها بقوله :

« كأن التاج تاجَ أبي هرقل جَلَّوهُ لأعظم الأيام عيدا

يخالف لونه ديباجَ بشر إذا الألوانُ حالفت الخدودا »

يعرض بنَمَشٍ كان بوجه عبد العزيز ، فقبله بشر بن مروان ووصله ، ولم يزل أثيراً عنده .

ونرى أنفسنا في هذه القصة أمام شاعر يفد على عبد العزيز ، فيقيم عنده عاما كاملا ، يجالسه ويؤاكله ، على الرغم من مرضه ، وتلك منزلة عالية نزلها أيمن بشعره ، ولا أدري مبلغ ما أخذ من المال ، ولا عدد القصائد التي قالها في مدح عبد العزيز في ذلك العام ؛ ولا التي وفد بها إلى مصر . ولا ما أنشد وروى من أدب في مجالس عبد العزيز ، ولا ما كان له من فضل في تأييد سياسته والثناء على أفعاله .

ونجد أنفسنا أمام شاعر مُدِلٍّ بمنزلته عند الأمير ، جرىء عليه ، لا يخشى أن يخالفه في الحكم على نصيب ، ولا أن يرد عليه رداً جافياً ، ولا أن يترك بلدته سريعاَ حينما أحس أنها نَبَتُ به ، وأن جوار عبد العزيز لم يعد خصباً ممرعاً له وحده ؛ فاستأذن في الرحلة إلى العراق ، واثقاً أنه سيجد باباً آخر يأتيه منه الرزق

رغداً ، والعطاء جزيلًا .

ونجد أنفسنا أمام شاعر يخشى المنافسة ويحسب لها حساباً ، فيحاول أن يفض من قدر نصيب وإن رفعه الأمير ؛ إذ كان يتوقع تقدم منزلته ، وتقدير الأمير لشعره ؛ لما عليه الأمير من علم بالشعر ، ولما في شعر نصيب من جمال ، وما فيه من ولاء وإخلاص .

وكان ما توقعه أيمن صحيحاً فقد عظمت منزلة نصيب فيما بعد ، وتركه أيمن لنا نتحدث عنه فيمن قدموا مصر لمدح عبد العزيز .

٢ — نُصَيْبُ بْنُ رَبَاحٍ .

اتفق الرواة على أنه كان عبداً أسود ، وأنه كان مولى لبعض بني كنانة ، وأنه وفد على عبد العزيز بن مروان بمصر ، فمدحه وصار مولى له .

ولكنهم يختلفون في تفصيل ذلك اختلافاً لا ينقض شيئاً مما تقدم ؛ فيختلفون فيمن أعتقه ، وفي زمن وفادته على عبد العزيز وأسبابها . وقد تقدم أنه لقي أيمن ابن خريم في مجلس عبد العزيز ، وأن أيمن ناقصه قيمته عند ما علم أنه شاعر . وبحيئه إلى مصر لا يخلو من قصص تشبه قصص المغامرات أحياناً ، وأول هذه وأقربها إل الصواب ما يأتي :

كان نصيب يقول الشعر فيعجبه ، ثم عرض بعض شعره على مشيخة من بني ضمرة بن بكر بن عبد مناة — وهم مواليه — ونسب بعض ما قاله إلى شعراء الجاهلية فأعجب به مواليه ، وقالوا : « هكذا يكون الكلام ! وهكذا يكون الشعر ! » فأخبرهم أنه شعره ، فشجعوه على الرحلة به إلى مصر لمدح عبد العزيز . ثم عرف أخته أنه شاعر ، وأنه سيقصد عبد العزيز بمصر لمدحه ، عسى أن يكون على يديه عتقه ، وعتق أمه وأخته ، ومن كان مرموقاً من أهل قرابته . فقالت أخته : « إنا لله وإنا إليه راجعون ! يا بن أم ، أتجتمع عليك الخصلتان : السواد وأن تكون ضحكة للناس » .

قال : قد قلتُ فاسمى ، فأنشدَها فسمعتُ ، « فقالت بآبى أنت ! أحسنتَ والله ! فى هذا والله رجاء عظيم ؛ فاخرج على بركة الله » ، فخرج على قَمُود له حتى قدم المدينة ، فلقى الفرزدق بمسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فعرض عليه شعره ، فقال له الفرزدق : « ويلك ! أهذا شعرك الذى تطلب به الملوك ! إن استطعت أن تسكنم هذا على نفسك فافعل » فتدفق عَرَقٌ نُصَيْب . وسمع إنشاده وما قاله الفرزدق ، رجل من قريش كان قريباً لخصمه ، فذهب إليه نصيب فقال له القرشى : « ويحك ! أهذا شعرك الذى أنشدته الفرزدق ؟ » فقال نعم ، فقال القرشى : « قد والله أصبت ، والله إن كان هذا الفرزدق شاعراً لقد حسدك . فإنا لنعرف محاسن الشعر ، فامض لوجهك ولا يكسر نك » .

فسره قوله وأعانه على المضى ، قال : « فقدمت مصر وبها عبدالعزيز بن مروان ، فحضرت بابه مع الناس فَنُصِّحْتُ عن مجلس الوجوه ، فكنت وراءهم ، ورأيت رجلاً جاء على بغلة ، حسن الشارة سهل المدخل يؤذن له إذا جاء ، فلما انصرف إلى منزله انصرفت معه أماشى بغلته ، فلما رآنى قال : ألك حاجة ؟ قلت نعم ، أنا رجل من أهل الحجاز شاعر ، وقد مدحت الأمير وخرجت إليه راجياً معروفه » فاستنشد الرجل ، فأنشده ، فقال له : « ويحك ! أهذا شعرك ؟ فإياك أن تنتحل ، فإن الأمير راوية عالم بالشعر ، وعنده رواة ؛ فلا تفضحنى ونفسك » . وطلب منه أن يقول أبياتاً يذكر فيها خوف مصر وفضلها على غيرها ؛ ففعل ، ولقيه من غده فأنشده :

سَرَى إِلَهُمُ تَقْنِينِي إِلَيْكَ طَلَائِمُهُ بِمَصْرِ وَبِالْخَوْفِ اعْتَرَتْنِي رَوَائِمُهُ
وَبَاتَ وَسَادِي سَاعِدٌ قَلَّ لِحْمُهُ عَنِ الْعَظَمِ حَتَّى كَادَ تَبْدُو أَشَاجِئُهُ
ثم وصف الغيث بعد هذين البيتين اللذين لا يصلحهما بمصر إلا ورود اسمها واسم خوفها فيهما ، ولكنه أجاد فى وصف الغيث .

فلما أتمها قال له الرجل : « أنت والله شاعر ! احضر حتى أذكرك للأمر .
قال فجلست على الباب ودخل ، فما ظننت أنه أمكنه أن يذكرني حتى دُعِيَ بي ،
فدخلت فسلمت على عبد العزيز ، فصعد في بصره وصوب ، ثم قال : أنت
شاعر ! ويلك ! » .

واستنشد شعرأ فأنشده ، فأعجب به عبد العزيز ، واستأذن الحاجب لأيمن
ابن خريم ، ولما اطمان سأله الأمير أن يُقَوِّمَ نصيباً ، فقال : والله لنعم الغادي
في أثر المخاض ، وقومه بمائة دينار ، فلما علم أنه شاعر نقص قدره إلى ثلاثين
ديناراً . وتستمر القصة بعد ذلك كما تقدمت في الكلام على أيمن مع فرق يسير
في التعبير ^(١)

وفي رواية أخرى أن عبد الله بن أبي فروة أول من نوه باسم نصيب . وقدم به
على عبد العزيز بن مروان ، « وهو وصيف حين بلغ ، وأول ما قال الشعر » ، فلما
أعجب عبد العزيز بشعره قال : « إذا دعوت بالغداء فأدخلوه علي في جبة صوف ،
محترماً بمقال ، فإذا قلت قوموه فقوموه وأخرجوه ، وردوه علي في جبة وشي ،
ورداء وشي » ففعلوا ، وكان أيمن حاضراً هذا المجلس ، فنقص قيمته حين أخبر أنه
شاعر ، فكان بين الأمير وبينه ما تقدم .

وتنتهي هذه الرواية بأن أيمن جاز بعبد الملك في طريقه إلى بشر ، فقال له :
أين تريد ؟ فقال أريد أخاك بشراً . قال : أتجوزني ! قال : إني والله أجوزك إلى من
قدم إلى وطلبني ، قال : فلم فارقت صاحبك ؟ قال : رأيتم يا بني مروان تتخذون
للفتى من فتيانكم مؤدباً ، وشيخكم والله محتاج إلى خمسة مؤدبين ! فسر ذلك عبد
الملك ، وكان عازماً على أن يخلعه ويعقد لابنه الوليد ^(٢) .

وإذا صحت هذه الرواية كانت وفادة نصيب على عبد العزيز في أواخر أيامه بمصر ،

عندما كاتبه عبد الملك لينزل عن ولاية العهد لابنه الوليد^(١).

ولكن أخبار نصيب مع عبد العزيز تشير إلى أنه مدحه أكثر من مرة ، ووفد عليه أكثر من مرة ، وأنه أمره في أول خروجه إليه أن يرجع إلى مواليه فيشتري نفسه ثم يعود . ففعل .

ومن طريف الروايات ، وأدخلها في باب القصص^(٢) أنه كان يرعى إبلًا لمواليه فأضل منها بعيراً ، فخرج في طلبه حتى أتى الفسطاط ، وبه إذ ذاك عبد العزيز بن مروان ، فرآه أهلاً لحاجته ، فاستأذن عليه ، وأخبر الحاجب أنه قد هبأ له مدحاً . فلما أخبر الحاجب عبد العزيز بسواده ، ورغبته في المديح ، ظن أنه ممن يُهزأ به ويضحك منه . فقال للحاجب : مُرّه بالحضور ليوم حاجتنا ، فعدا نصيب وراح إلى باب عبد العزيز أربعة أشهر ؛ وأتاه آت من عبد الملك فسرّه ، فأمر بالسري فأبرز للناس ، وقال : على بالأسود ، وهو يريد أن يضحك منه الناس ، فدخل ، فلما كان حيث يسمع كلامه قال :

لعبد العزيز على قومه	وغيرهم نِعَمٌ غامره
فبأبك ألين أبوابهم	ودأرك مأهولة عامره
وكلبك آنس بالمعتفين	من الأم بالإبنة الزائره
وكفك حين ترى السائلية	ن أندى من الليلة الماطره
فمنك العطاء ومنى الثناء	بكل مُحَبَّرَةٍ سائر

فقال : أعطوه أعطوه ، فقال : إني مملوك ، فدعا الحاجب فقال : اخرج فأبلغ في قيمته ، فدعا القومين ، فقال : قوموا غلاماً أسود ليس به عيب ، فقالوا . مائة دينار . قال : إنه راع للابل يبعصرها ويحسن القيام عليها . قالوا : حينئذ مائتا

(٢) الأغاني ج ١ ص ٣٣٣ .

(١) ص ٩١ من هذا الكتاب .

دينار، قال: إنه يرى القيسى ويثقفها، ويرمى النبل ويريشها. قالوا: أربعمائة دينار.
قال: إنه راوية للشعر بصير به، قالوا ستمائة دينار. قال: إنه شاعر لا يلحق، حذفاً.
قالوا: ألف دينار، قال عبد العزيز: ادفعوها إليه. قال: أصلح الله الأمير، ممن
بعمري الذى أضللت. قال: وكمنه؟ قال: خمسة وعشرون ديناراً، قال
ادفعوها إليه. قال: أصلح الله الأمير. جازتى لنفسى عن مديحى إياك. قال:
اشتر نفسك، ثم عد إلينا». .
وقد فعل، وعاد إليه لمدحه.

هذه قصص عن وفادة نصيب، أو روايات متعددة، وليس يضير هذا
الكتاب أن يطول الحديث فيه عن وفادة نصيب، ففي كل قصة منها من الإمتاع
والطرافة ما يجعل روايتها لازمة للتسلية والسرور.
وهي تتصل بموضوعنا من قريب، وفيها من الدلائل النافعة لمؤرخ الأدب
والمعقب عليه ما يجعل روايتها واجبة.
وانظر إلى هذه الوفاة كما تقدمت، تجد:

١ — أن عبدالعزیز كان مقصد الشعراء، وكان «ممدحاً» يقد عليه الشعراء
لمدحه، وأخذ جوائزهم.

٢ — وأنه كان أديباً ناقداً راوية، وحوله رواة، فلا يستطيع منتحل أن
يحظى عنده.

٣ — وأن الشعراء الناشئين كانوا إذا رغبوا فى الرحلة إليه — أو إلى غيره
من الأمراء الأدباء — اختبروا شعرهم قبل مقدمهم على هؤلاء الأمراء، فكان
خوفهم داعياً إلى الحرص على الإجابة.

٤ — وأن الشعراء كانوا يتنافسون، لما يعرفونه من الشهرة المنتظرة، والخير

المرتقب لمن ينال ثقة أمير أو خليفة . وكان كل منهم يطمع أن يكون صاحب المنزلة الأولى .

٥ — وما كان الشعراء يجدون بأساً في الطلب من الأمراء ، إذ كان عطاء الأمراء جزيلاً ، يغنى من فقر ، ويرفع من ضعة .

٦ — وكان الشعر تاريخاً يسجل حوادث عصره في بعض نواحيه ، وإن كان تاريخاً متهماً بالميل مع الهوى ، والقول كما ترغب السياسة .

وكانت نعم عبد العزيز غامرة على نصيب وعلى غيره ، وقد أبطأت جائزته عند عبد العزيز يوماً ، فقال :

وإن وراء ظهري يابن ليلى	أناساً ينظرون متى أءوبُ
أمامة منهم ولما قيئها	غداة البين في أثرى غروب ^(١)
ركت بلادها ونأيت عنها	فأشبه ما رأيتُ بها السُّلوب ^(٢)
فأتبع بعضنا بعضاً فلسنا	نثيبك ، لكن الله المثيب

فعجل جائزته وسرحه .

وكان يرحل إليه كل عام فيجيزه ويحسن صلته ، فقال نصيب^(٣) .

يقول فيحسن القول ابن ليلى	ويفعل فوق أحسن ما يقول
ففي لا يرزأ الخلان إلا	مودتهم ، ويرزؤه الخليل
فبشر أهل مصر فقد أتاها	مع النيل الذي في مصر نيل

(١) ماقى العين = حرفها الذى يلى الأنف ، والغروب = الدموع حين تخرج من العين ، واحداً غرب .

(٢) الظبية السلوب والسالب ، التى سلبت ولدها ، والمراد أن أمانة كثيرة البكاء والدمع ، كالظبية التى فقدت ولدها .

(٣) الأغاني ج ١ ص ٣٥٢

ومدح نصيب ليس تقليداً ، إذ أنه نتيجة تجربة خاصة في القصيدۃ التي استعجل فيها العطاء ، فأثار العطف ، بذكر أولئك الذين تركهم ينظرون متى يثوب ، وبالحدِيث عن بكائهم من أجل فراقه ، ولكن الصورة عريضة لهما ودماً ، وبخاصة في تشبيه أمانة بالظبية التي سلبت ولدها فلا تزال تبكيه حتى يعود .

وفعل نصيب ما فعله أيمن في مدح عبد العزيز ، فمدح « ابن ليلي » بالكرم ، وأنه يفعل فوق أحسن ما يقول . ولكنه رأى النيل بمصر وأحس به ، فخرج عن الطريقة التقليدية في تشبيه الكريم بالبحر ، وشبه عبد العزيز بالنيل ، وبشر به أهل البلاد .

ومرض عبد العزيز فاستأذن عليه نصيب ، فأذن له : فقال يدعو له بالشفاء ، ويفديه لو كان يُقبَلُ الفداء :

ونزور سيدنا وسيد غيرنا ليت التَّشْكِيَّ كان بالعُودِ
لو كان يُقبَلُ فِدْيَةٌ لفديته بالمصطفى من طارفي وتِلَادِي
فلما سمع عبد العزيز شعره ، فتح عينيه ، وأمر له بألف دينار^(١) .

وحفظ نصيب معروف عبد العزيز ، وأثني عليه حياً وميتاً . فإن عبد العزيز مات في طاعون حل بمصر سنة ٨٦ هـ ، وكان موته بقرية يقال لها « سُكَّر » خرج إليها فراراً من الوباء ، فقال نصيب يرثيه^(٢) :

أصبت يوم الصعيد من « سُكَّر » مصيبةً ليس لي بها قِبَلٌ^(٣)

(١) فتوح مصر لابن عبد الحكم ص ٢٣٧

(٢) الأغاني ج ١ ص ٣٦٠

(٣) « سكر مدينة من مدن الإطفيحية ، تجاهها واد به إلى وقت المقريري ، جل من الحجر » ، « الخطط ج ١ ص ٣٣١ » . ونسب هذا البيت إلى كثير في رثاء غير عبد العزيز - الولاة والقضاة ص ٦٦ »

تَاللهِ أَنْتَ مَصِيبَتِي أَبَدًا مَا أَسْمَعْتَنِي حَفِيفَهَا الْإِبِلُ
وَلَا التَّبَكِّي عَلَيْهِ أَغْوِلُهُ كُلُّ الْمَصِيبَاتِ بَعْدَهُ جَلَلُ^(١)
لَمْ يَعْلَمْ النَّعْشَ مَا عَلَيْهِ مِنْ أَلٍ مُرْفٍ وَلَا الْحَامِلُونَ مَا حَمَلُوا
حَتَّى أَجْنُوهُ فِي ضَرْحِيحِهِمْ حِينَ انْتَهَى مِنْ خَلِيلِهِ الْأَمْلُ
وَسَأَلَهُ عَبْدُ الْمَلِكِ أَنْ يَنْشُدَهُ بَعْضَ مَارِثِي بِهِ أَخَاهُ عَبْدِ الْعَزِيزِ ، فَأَنْشُدَهُ
هَذِهِ الْقَصِيدَةَ^(٢) :

عَرَفْتُ وَجَرَّبْتُ الْأُمُورَ فَمَا أَرَى كَمَا ضِيءُ تَلَاهُ الْغَابِرُ الْمَتَأَخَّرُ^(٣)
وَلَكِنْ أَهْلَ الْفَضْلِ مِنْ أَهْلِ نَعْمَتِي يَمُرُّونَ أَسْلَافًا أَمَامِي وَأَغْبَرُ
فَإِنْ أَبْكُهُ أَغْذَرُ ، وَإِنْ أَغْلِبِ الْأَمْسَى بَصِيرٌ فَتَمَلَّيْ عِنْدَمَا اشْتَدَّ يَصِيرُ
وَكُنْتُ رِكَابِي كَمَا شِئْتُ تَنْتَحِي إِلَيْكَ ، فَتَقْضِي نَحْبَهَا وَهِيَ مُصْمَرُ
تَرَى الْوَرْدَ يُسْرَأُ ، وَالثَّوَاءَ غَنِيْمَةً لَدَيْكَ ، وَتُشْنِي بِالرَّضَا حِينَ تَصْدُرُ
فَقَدْ عَرِيتُ بَعْدَ ابْنِ لَيْلَى ، فَإِنَّمَا ذَرَاهَا لِمَنْ لَاقَتْ مِنَ النَّاسِ مَنَظَرُ
وَلَوْ كَانَ حَيًّا لَمْ يَزَلْ يَدُفُّوْهَا مَرَادُ الْغُرَبَانِ الطَّرِيقَ وَمُنْقَرُ^(٤)
فَإِنْ كُنَّ قَدْ نَلْنَ ابْنَ لَيْلَى فَإِنَّهُ هُوَ الْمَصْطَفَى مِنْ أَهْلِ الْمُتَخَيَّرِ

وَإِذَا كَانَ فِي الْقَصِيدَةِ الْأُولَى أَثَرُ الْحَسْرَةِ وَالْبُكَاءِ عَلَى عَبْدِ الْعَزِيزِ ، فَإِنَّ الْقَصِيدَةَ
الثَّانِيَةَ تَمِيلُ إِلَى الْحَدِيثِ عَنْ آثَارِ نَعْمَتِهِ عَلَى نَصِيبٍ ، وَمَا كَانَ يُعْطِيهِ مِنْ مَالٍ ،
وَمَا كَانَ لِنَصِيبٍ مِنْ رِحَالٍ كَثِيرَةٍ إِلَيْهِ أَهْزَلَتْ رَاحِلَتَهُ ؛ وَتَذَكُّرُ أَنَّهُ كَفَّ عَنْ ذَلِكَ

(٢) الْأَغَانِي ج ١ ص ٣٦١
(٤) الدُّفُوفُ جَمْعُ دَفٍّ وَهُوَ الْجَنْبُ .

(١) جَلَلٌ = صَغِيرَةٌ .
(٣) الْغَابِرُ = الْبَاقِي .

وأراحها بعد موته ، لأنه لم يعد هناك من يقصده من المدوحين ، وأخيراً يمدح « ابن ليلي » بأنه المصطفى من أهله والمختار منهم . فيذكره منسوباً إلى أمه لعله يرضيه بهذه النسبة ميتاً كما كان يرضيه بها حياً .

ولما سمع عبد الملك قوله :

فإن أبكها عذر ، وإن أغلب الأسى بصبر فثلى عندما اشتد يصبر
قال له : وبلك ! أنا كنت أحق بهذه الصفة في أخي منك ! فهلا وصفتني بها !
وجعل يبكي .

وحفظ نصيب جميل مولاه ؛ فبكاه ورثاه أكثر من مرة ، وروى له الكندي قصيدة في رثائه ورثاء ابنه الأصبع الذي توفي قبله بشهرين^(١) ، ومنها :

هما أخوأي الصالحان تواليا بمحمد فهداً للقراق أخاهما
جزى خير مولى مولى ، ولا جزى من الناس خيراً من أحب رداها
ولا أدري من أين جاءت هذه الأخوة بين نصيب وبينهما ، وكيف اجترأ على تلك المنزلة ؟ ولقد عرّض ؛ ودعا على من أحب رداها ؛ ولا أظنه كان يقصد عبد الملك أو ابنه الوليد ، فليست به حاجة إلى عداوتهما بعد موت عبد العزيز ، وليس في قدرته أن يعاديهما ، وهو يأمل فيهما الخير والعطاء الجزيل .

٣ — ابن قيس الرقيات :

وهو شاعر ممدوح ، أراد يوماً أن يكون له مبدأ ، فوالى ابن الزبير في سلطانه ثم دار الزمان ، وصار الأمر لبني أمية ، فلفظته البلاد إليهم ، وتشفع بابن جعفر لديهم فعفا عنه عبد الملك وقبل مدحه . وله عليه بعض النقد ، والمآخذ المشهورة .

(١) الولاة والقضاة ص ٥٦

ومما يَسَّر لابن قيس الرقيات موالاة بني أميه ، وهونه على نفسه ، أنه كان يؤمن بقريش ؛ وهؤلاء منها في المحل الأرفع ، وأعلام قدرأ هو عبد الملك .

ووفد على عبد العزيز بمصر فمدحه ، وامتناز على غيره من مادحيه بالحديث عن بعض المناظر في مصر ، وربما كان الباقي من شعره في الوصف أكثر من أي شاعر آخر في عهد بني أميه على قلته ومن قصائده المشهورة في مدحه قصيدته البائية^(١)

لَمْ يَصْخُحْ هَذَا الْفَوَادُ مِنْ طَرَبِهِ وَمَيْلُهُ فِي الْهَوَى وَفِي لَعْبِهِ
أَهْلًا وَسَهْلًا بَيْنَ أَتَاكَ مِنَ الرَّقَّةِ يَسْرِي إِلَيْكَ فِي سُخْرِيهِ^(٢)
بَاتَ بِحُلُوانٍ تَبْتَغِيكَ كَمَا أَرْسَلَ أَهْلَ الْوَلِيدِ فِي طَلَبِهِ
فَدَلَّهَا الْحُبُّ فَاشْتَفَيْتَ كَمَا تَشْفِي دِمَاءَ الْمُلُوكِ مِنْ كَلْبِهِ^(٣)

وفي هذه المقدمة كثير من الالتفات والانتقال كالحديث عن فؤاده ، وعن خيال المحبوب ثم مخاطبة نفسه ، ثم الحديث عن تلك التي باتت بحلوان تبغيه ودلها الحب عليه . ولا شك أن هذا الالتفات أحدث غموضاً في الأبيات مجتمعة .

ثم يقول في وصف حلوان ونخلها :

سَقِيًّا لِحُلُوانِ ذِي الْكُرُومِ وَمَا صُنِّفَ مِنْ تَيْنِهِ وَمِنْ عُنْبِهِ
نَخْلٌ مَوَاقِيرُ بِالْفَيْئَاءِ مِنْ بَرْنِيٍّ ، غُلْبٌ ، يَهْتَزُّ شَرَبُهُ^(٤)
أَسْوَدُ سُكَّانِهِ الْحَمَامُ فَمَا تَنْفَكُ غُرْبَانُهُ عَلَى رُطْبِهِ

(١) ديوان ابن قيس الرقيات ص ٨١

(٢) جمع سخاب بكسر السين وهي فلائد من الزهر وفسرها في الديوان بأنها ضرب من الثياب والخلي .

(٣) الكلب : داء يصيب من عضه الكلب المسعور ، وعند العرب لا يبرأ المكلوب حتى يسقى دماء ملك شريف .

(٤) مَوَاقِيرُ : مثقلة . والبرني : التمر . الشرب : حوض حول أصل النخلة فيه ماء يسقيها . غلب : جمع غلباء ، وهي النخلة المتكاثفة الكثيرة السعف .

وقد كانت حلوان عامرة في أيام عبد العزيز ، وكانت جديرة بأكثر من قصيدة
في وصفها والحديث عن عمارتها ، ولكن ابن قيس جاء مادحاً للامير ، وكفاه
هذه الأبيات الثلاثة في الوصف .

ثم يبدأ المدح فيقول :

أثنت على الطيب ابن ليلي ، إذا	أثنت ، في دينه وفي حاسبه
من يصدق الوعد والقتال ، ويح	شي الله في حاله وفي غضبه
ومن تفيض الندى يداه ، ومن	ينسحب الحمد عند منتهيه
أمك بيضاء من قضاة في	بيت الذي يستظل في طنبه
وأنت في الجوهر المذهب من	عبد مناف ، يدك في سبيه ^(١)
يخلفك البيض من بنيك كما	يخلف عود النصار في شعبيه
ليسوا من الخروع الضعيف ولا	أشبه عيبدانه ولا غربه

وابن قيس ينوع في مدحه ، فيمدح عبد العزيز بالدين والحسب والشجاعة ،
والوفاء ، وخشية الله في الحلم والغضب ، وبأنه رجل كريم كل أفعاله محمودة . وبأن
أمه بيضاء ، وأصلها ثابت ، وملجأ للناس ؛ وأن آباءه كرام الأصل ، فهو من
عبد مناف ، وفي الجوهر المذهب منهم . أما أبناؤه فليس فيهم خور ولا ضعف ،
بل إنهم صلاب شداد . وهذه الصفات الكثيرة التي تضمنتها هذه الأبيات القليلة
قد صيغت صياغة جميلة ، فجاءت أبياتها سائغة عذبة ، ليس فيها شيء من الضعف الذي
تحس به عند خروج الأدب إلى السرد والتعداد .

أما قصيدته القافية^(٢) في مدح بني أمية عامة ، فتمثلهم على قوم لم يعينهم

(١) في سبيه : مستسكة به ، والضمير للجوهر أو للبيت .

(٢) اندويان ص ٢٦٤

فيها ، ولم يعينهم ظرف هذه القصيدة كما رواه الديوان والمؤرخون .

وقال ابن قيس الرقيات في ذلك :

لَحَى مِنْ أَمِيَّةٍ لِي سِ فِي أَخْلَاقِهِمْ رَنَقُ
يَكُونُ لِحَابِطُ المَعْرُوفِ فِي وَادِيهِمْ وَرَقُ
أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ قَوْمٍ إِذَا مَا أَصْبَحُوا نَعَقُوا

وقد كان موسى بن نصير والياً على المغرب لعبد العزيز ، ففتح الله عليه الفتوح بالمغرب . وخرج عبد العزيز إلى الإسكندرية للمرة الثالثة سنة ٨١ ، وخرج معه إليها وجوه الناس من الأشراف والشعراء . ووصف ابن قيس عودة الركب كله ؛ وخص السفن المصعدة في النيل إلى حلوان جماعات ، من قرية الكيرىون قرب الإسكندرية وأشار إلى ما كانت تحمل من أنواع الحرير والخز وخمل الأرجوان . وختم ذلك بمدح عبد العزيز بن ليلى . قال :

غَدُوا مِنْ مَدْرَجِ الكِرْيُونِ نِ حَيْثُ سَفِينُهُمْ حَزَقُ^(١)
كَمَا يَفْعُدُو نِشَاصٍ مِنْ سَحَابِ الصَّيْفِ مُنْطَلَقُ^(٢)
فَلَمَّا أَنْ عَلَوْنَ النِّيلَ لَ وَالرَّايَاتُ تَخْتَفِقُ
رَأَيْتُ الجَوْهَرَ الحَكِيمَ يَّ وَالذَّبِيحَ بِأَتْلِقُ
وَحَزَّ السُّوسَ وَالْإِضْرِبَ حَ فَصَلَ بَيْنَهُ السَّرَقُ^(٣)
وَحَمَلَ الْأَرْجُوانَ عَلَى السَّ فِينِ كَأَنَّهُ الْعَلَقُ
سَفَانٍ غَيْرِ مُقْلَعَةٍ إِلَى حُلُوانَ تَسْتَبِقُ

(١) حَزَقُ : جماعات .

(٢) نَشَاصُ : (بفتح النون وكسرهما) مرتفع ومتراكم .

(٣) أنواع من الحرير جيء بها من بلاد المغرب ، بلاد السوس على شاطئ المحيط الأطلسي في مراکش . والسرق = شقق من الحرير الأبيض .

ثم يثني على حلوان ، وما ارتفع قدرها إلا بعبد العزيز ، فيقول :

محلٌّ ، من يحل به لذيدٌ عيشُهُ ، غَدَقُ
يحل به ابن ليلى والنـ دى والحلم والصديقُ
تكون جفانه رُدُما فمصبوح ومفتَبِقُ^(١)
إذا ما أزحفت رُفَق أتت من دونها رفيق

ومن مدائحها في عبد العزيز قصيدته الميمية التي مطلعها :

طرقته أسماء أم حَلَمَا أم لم تكن من رَحَالِنَا أَمَمَا

أما أول المدح فهو قول لا ترتاح إليه النفس ولا يهدأ عنده القلب ؛ لأنه أشبه بالراء . ولا يخفف منه الاستثناء الذي جاء به في البيت ، يقول :

رَفَعْتُ بِالْفَرِّ من أُمَيَّةَ حَا شَى واحداً نَجَّتْ لِي بِهِ الظَّلَمَا
أعنى ابن ليلى عبد العزيز بيا بَلِيلِيُونَ تغدو جفانه رُدُما^(٢)
يلتفُّ الناسُ حَوْلَ منبره إذا عَمُودُ البريةِ انهدما
مُجَرَّبُ الحِزْمِ في الأمور ، وإن خَفَّتْ حُلُومُ بأهلها حَلَمَا
ينتهبُ الحمدَ باليدين كما نَاهَبَ فرسانُ غارةٍ نَعَمَا
أَغَرَّ ، أشياخه العَصَاةُ ، بَنُو أُمَيَّةَ ، المرغُمُونَ من رَغَمَا^(٣)
أشياخِ صَدِيقٍ مُنُّوا بمعتلج الـ بَطْطَحَاءِ كانوا لقومهم عَصَمَا
نالوا موارِيثَ من جدودهم فَوَرَثُوهَا مَرُوانَ والحَكَمَا

(١) رذما ممتلئة تفيض جوانبها من الشحم .

(٢) الديوان ص ٢٥٥

(٣) بابليون : حصن بناه الفرس ، وما زالت آثاره باقية إلى الآن جنوب القسطنطينية ، واسمه عند العرب قصر الشمع .

أهل الحملات والدسيسة وال
اخترت عبد العزيز مرآغباً
من البهاليل من أمية ، يز
لا يحسب المدحة الخداع ، ولا
جاءت به حُرَّةٌ مهذبة
مُفَنُّون عند الشدائد البهَمَا^(١)
والله للمرء خيرٌ من قَسَمَا
داد إذا مامدحته كَرَمَا^(٢)
يُدْرِك تيماره إذا التظا
كلبية كان بيتها دعما
وتدور معاني المدح عنده في دائرة المتعارف المتفق عليه من صفات الفضل
والكرم في الفرع والأصل ، كما كانت عند أكثر شعراء ذلك العصر .

٤ — عبد الله بن الحجاج^(٣) :

شاعر آخر من مادحي عبد العزيز وهو شاعر فاتك شجاع ، من معدودي
فرسان مضر ، ذوى البأس والنجدة فيهم ، خرج مع عمرو بن سعيد على عبد الملك ،
فلما قتل عمرو خرج مع نجدة بن عامر الحنفي ، ثم هرب فلحق بعبد الله بن الزبير
حتى قتل ، ثم جاء إلى عبد الملك متنسكراً ، واحتال عليه حتى آمنه .
ورحل إلى عبد العزيز ، ومدحه بمصر .

يقول أبو الفرج^(٤) : « ونسخت من كتاب ثعلب عن ابن الأعرابي : قال :
وفد عبد الله بن الحجاج إلى عبد العزيز بن مروان ومدحه ، فأجزل صلته ، وأمره
بأن يقيم عنده ، ففعل ، فلما طال مقامه اشتاق إلى الكوفة وإلى أهله ، فاستأذن
عبد العزيز فلم يأذن له ؛ فخرج من عنده غاضباً ، فكتب عبد العزيز إلى أخيه بشر
أن يمنعه عطاءه ، فمنعه ، ورجع ابن الحجاج ، لما أضرَّ به ذلك ، إلى عبد العزيز ،
وقال بمدحه ويعتذر :

(١) الحملات جمع حمالة بفتح الحاء = الدية يحملها قوم عن قوم . الدسيسة =
العطية العظيمة . البهم جمع بهمة ، وهي صفار الضأن والمز والبقر .
(٢) البهاليل جمع بهلول ، وهو السيد الجامع لكل خير .
(٣) الأغاني ج ١٢ ص ٢٤
(٤) شرحه ص ٢٩

تركت ابن ليلى ضلّةً وجريمةً وعند ابن ليلى مَعْقِلٌ ومَمُولٌ
 ألم يَهْدِنِي أن المَرَاغَمَ واسعٌ وأن الديارَ بالمقيم تَنَقَّلُ^(١)
 سأُحْكِمُ أَمْرِي إِذْ بَدَأَ^(٢) لِي رُشْدُهُ وأختارُ أهلَ الخيرِ إن كُنتَ أَعْقِلُ
 وأترك أوطاري وألحق بأمري مُحَلِّبُ كَفَاهُ الندى حين يُسألُ
 أبت لك يا عبد العزيز مآثرُ وجَرِي شَأْيَ جَرِي الجياد، وأولُ
 أبى لك ، إِذْ أَكْدَوْنَا ، وَقَلَّ عَظَاؤُهُمْ ،

مواهبُ فياضٍ ومجدُّ مؤثِّلُ^(٣)
 أبوك الذى ينميك ، مَرَوَانُ ، للعلا
 وسعد الفتاة الخالُ ، لا من يُخَوِّلُ

فقال له عبد العزيز : أما إِذْ عَرَفْتَ مَوْضِعَ خَطَايَاكَ واعترفت به ، فقد
 صفحت عنك . وأمر بإطلاق عطاءه ، ووصله ، وقال له : أقم عندنا ما شئت ،
 أو انصرف مأذوناً لك إِذَا شئت .

٥ - كثير وجيل :

ووفد عليه كثير بمصر مراراً . وروى أنه كان قصيراً لا يزيد طوله على ثلاثة
 أشبار ، وكان إِذَا دخل على عبد العزيز يمازحه ويقول له : « طأطأ رأسك
 لا يصيبه السقف » . ويقال إنه دخل عليه يعموده فى مرضه وأهله يتمنون أن
 يضحك . فلما وقف عليه قال : « لو أن سرورك لا يتم إلا بأن تَسْلِمَ وأستقم ،
 لدعوت ربى أن يصرف ما بك إلى ، ولكنى أسأل الله تعالى لك العافية ، ولى فى

(١) المَرَاغَم = الطريق ، يراغم الرجل أهله بسلوكه . أى يفارقهم على رغم أنوفهم .

(٢) رويت « أو » فى السكتى ، وأظنها « إِذْ »

(٣) شأى = سبق . أكدى = قطع عطاءه وأمسك خبره .

كنفك النعمة » . فضحك عبد العزيز وُسْرَ أهله^(١) .
وهو شبيه بما قاله نصيب له عندما زاره وهو مريض^(٢) .

وأما جميل بن معمر^(٣) فقد أشار في قصيدته الدالية إلى رحلته إلى مصر ،
وإلى تحسر بثينة على فراقه عندئذ ، فقال :

وما أنس مِ الأشياء لا أنس قولها وقد قُرُبْتُ نَضْوَى ، أمصرَ تريد؟
وكان قدوم جميل إلى مصر لمدح عبد العزيز بن مروان ، وإن كانت شهرته في
الغزل غالبية ، وأذن له عبد العزيز ، وسمع قصائده ، وأحسن جائزته . وسأله عن
حبه لبثينة ، وأمره أن يقيم معه في مصر في منزل أعد له . ولم يلبث جميل إلا
قليلاً حتى وافته منيته بمصر سنة ٨٢ هـ . ونفى نفسه قبل موته فقال :

بكر النعمي وما كنَى بجميل وثوى بمصر ثَوَاءَ غير قُفُول
قوى بثينة فاندبى بعـويل وابكى خليلك قبل كل خليل
وليس غريباً أن يجيئ هذان الشاعران إلى مصر كما جاء غيرهما ، حيث النعم
الغامرة ، والمطاء الجزيل ، والتقدير الصحيح للأدب ، والتذوق السليم لشعره
ونثره وأخباره .

وهذه المدائح التي تقدمت في عبد العزيز متشابهة المعاني والصفات ، مثل
كرم الأصل والفرع ، وعلو النفس ، والسخاء ، والجود ، وحسن القول والفعل ،
وقد يُمدح بالدين والملك .

ولكن لكل من هؤلاء الشعراء فنه وطريقته في التعبير وأسلوبه الذي يميزه
عن غيره . من أجل هذا ظهر كل منهم مستقلاً عن غيره ، متميزاً في فنه وطريقته :

(١) الأغاني ج ٨ ص ٢٧ ، زهر الآداب ج ٢ ص ١٦٩

(٢) ص ١٤٤ من هذا الكتاب .

(٣) الأغاني ج ٧ ص ٧٩ ، ص ١٠٣ . حسن المحاضرة للسيوطي ج ١ ص ٣٢٢

يقرأ القارىء شعر الواحد منهم فيشعر بجدة وتنوع واستقلال ، بل إن قصائد الشاعر الواحد ترك مثل هذا الشعور عند القارىء ؛ بسبب مهارة أولئك الشعراء وحسن تصرفهم في التعبير ، ومقدرتهم على إظهار المعاني في صورة تزيينها موسيقى الألفاظ ، وجمال النغم ، وحسن النظم .

وكثر رثاء عبد العزيز كما كثر مدحه ، بل إن فيمن رثوه قوماً لم نسمع بمدحهم له : ومن هؤلاء ذو الشامة ، محمد بن عمرو بن الوليد بن عقبه بن أبي معيط ، وقد رثاه ورثى ابنه الأصبع الذي توفي قبله بشهرين قال ^(١) .

فما مصرُ لي بعد عبد العز	يز والأصْبَعُ الخير بالوَرَقِ
سقى الله قبريهما ، والصدى	وما جَورًا ، دِيْمَةً مُعْجِدَقِ
فإن تَكُ مصرُ أشارت بها	إلى الشر يوماً يَدُ مُوْبِقِ
فَقِدْمًا تَقَرُّ بمصر العيو	ن في لذة العيش محدودِ

ورثاها سليمان بن أبي حدير الأنصارى ، ومن ذلك قوله في عبد العزيز ^(٢)

فمن ذا الذى يبني المسكرم والعلا	ومن ذا الذى يهدى له بعدك السفرُ
فكنت حليف العرف والخير والندى	فتن جميعاً حين غيبك القبر

ولقد كان عهد عبد العزيز أزهى عصور الشعر في عهد الولاة ؛ وكانت شخصيته أكبر مشجع على وفادة أولئك الشعراء ، فلما قل العطاء قلت الوفادة أو انقطعت ، ولم نعد نسمع بها إلا قليلا . وقد يكون ذلك من الأسباب التى هيأت الفرصة فيما بعد لظهور الشعراء المقيمين ، ولعنائة الرواة بشعرهم .

(ح) من عبد العزيز إلى العباسيين .

وروى لنا شعر عربي في مصر بعد عبد العزيز بن مروان ، بعضه قادم من بلاد أخرى للمدح ، وبعضه مصرى الدار والحوادث والمناسبات ، ولكنه في مجلته شعر ضعيف مقتضب محرف ، احتفظت به كتب التاريخ استشهاده على حادثة ، أو تأييداً لخبر ، أو دليلاً على صدق رواية ، أو بياناً لخلق أحد من الولاة ، أو رثاء لشهيد ؛ أو شبه ذلك مما يهيم المؤرخ أن يشير إليه ، ويؤيده بالدليل الأدبي من شعر أو نثر . ولا نسمع بشاعر قدم بعد عبد العزيز إلا بالحرز الكنانى ، الذى جاء إلى مصر لمدح واليها الجديد عبد الله بن عبد الملك بن مروان ، وليس عبد الله غريباً علينا بعد ما قدمنا من فضله في نقل الديوان إلى اللغة العربية^(١) .

وأما الحرز الكنانى مادحه^(٢) فقد اختلف فيه ، ف قيل عربى وقيل مولى ، واختلف في أخلاقه ، ف قيل شاعر متكسب ، ينتجع الولاة والأمراء ، يمدح على العطاء ، ويهجو على الحرمان . وقيل إنه لم يبرح الحجاز . واختلف في شعره ؛ فنسب إليه ونسب إلى غيره ، ومن هذا الشعر قصيدة قيل إنه قالها في مدح عبد الله بن عبد الملك ، وارتحل بها إليه في مصر ؛ وقد بدأها بالحديث عن تنقله في البلاد فقال

الله يعلم أن قد جُبْتُ ذا يَمَنٍ ثم العراقين لا يَشْنِئَنِي السَّأَمُ
ثم الجزيرة أعلاها وأسفلها كذاكَ تسرى على الأهوال بي القدم
ثم المواسم قد أوطأها زمناً وحيث تُتَخَلَّقُ عند الجرة اللَّمَمُ
قالوا دمشق يُنَبِّئُكَ الخبير بها ثم أنتِ مصر فَمِ النَّائِلُ العَمَمُ
ثم ينتقل إلى المدح ، ويتحدث عن ممدوحه فيقول :

لما وقفت عليه في الجموع ضحى وقد تعرَّضْتَ الحجاب والحدَمُ
حينته بسلام وهو مُرْتَفِقٌ وضجَّه القوم عند الباب تزدهم

في كفه خيزران ربحه عقيقُ من كف أروع في عمر نينه شمُ
يغضى حياءً ويغضى من مهابته فلا يكلم إلا حين يتشم
ترى رؤوس بني مروان خافضةً يمشون حول ركابيه وما ظلموا
إن هس هشوا له، واستبشروا جدلاً وإن هو أنسوا إعراضه وجوا

وأرجح أن تكون هذه القصيدة لمدح عبد الله بن عبد الملك ، وأن شاعرها جواب آفاق منتجع ، دارت به الأيام حتى جاء إلى مصر حيث النائل العمم عند عبد الله . وهو يعرفه من قبل ، حينما ذهب إلى الحجاز ووصاه أبوه عبد الملك بالإحسان إليه ، ولكن من الرواة من يجعل هذه الوفادة على عبد العزيز والمدح له .

ومنهم من روى البيتين السابع والثامن فيها للفرزدق في مدح علي زين العابدين .

وقيل كثير من الشعر في هجاء عبد الله ، وذلك أن الطعام غلا في أيامه ، فتشام الناس واضطربوا ، فهجاه ابن أبي زمزمة ، فطلبه عبد الله ، فهرب ؛ وبلغ عبد الله أن القاضي عمران بن عبد الرحمن الحسني ، آواه . وبلغه كذلك أن القاضي قال شعراً يفخر فيه بنفسه وأهله ، وشعراً آخر يهجو فيه عبد الله ، فعزله وولى مكانه عبد الواحد ، حفيد معاوية بن حديج ، وكان شاباً ، إلا أنه كان عالماً فقيهاً . فقال عمران يهجو الوالي مرة أخرى ^(١) :

لحّا الله قوماً أمّروك ، ألم يروا بأعطافك التخنيث كيف يُريبُ
أتصرفني جهلاً عن الحكم ظالماً ووليته عجزاً فتاة تجيبُ
ثكلتكم من والٍ ، وأيضا ثكلتمه ألم يكُ في الناس الكثير يصيبُ
هكذا روى هذا الشعر ، وفي البيت الثاني منه هجاء غريب ؛ فقد جعل

القاضي الجديد « امرأة » ولم يسلم البيت نفسه من عيب فني هو الإقواء ، إذ اختلفت حركة الروى في « تجيب » وهو اسم قبيلة ، عن حركة آخر البيت الذي قبلها والذي بعدها .

وكان جزاء القاضي من عبد الله جزاء غريبا ، كما كان طريقا أيضا ، فقد أمر أن يقطع له قميص من قراطيس ، تكتب فيه عيوبه ، ويوقف للناس ، ولكن عبد الله صرف قبل أن ينفذ هذا العقاب .

وفي سنة ٨٨ هـ خرج إلى أخيه الوليد ، وكان الناس في شدة عظيمة ، فقال زرعة بن سعد الله بن أبي زمزمة الحسنى :

إذا سار عبد الله من مصر خارجا فلا رجعت تلك السيفال الخوارج
أنى مصر والمكيال وافٍ مُغْرَبِلٌ فما سارَ حتى سارَ والمُدُّ فالرج
فأهدر عبد الله دمه ، فهرب إلى المغرب ، وكتب إلى الوليد .

ألا لآتته عبد الله عنى كما قد قال يجعلنى نكالا
ولم أشتم لعبد الله عرضا ولم آكل لعبد الله مالا
ويظهر أن عبد الله لم يكن شرّاً كله ، ولم يكن كل الناس يكرهونه ، فإب الوليد لما عزله ، وولى قُرّة بن شريك كتب إليه رجل من قریش :

عجبا ما عجبتُ حين أتانا أن قد امّرت قُرّة بن شريك
وعزّلت الفتى المبارك عنا ثم فليت فيه رأى أريك
وفي ولاية عبد الله بن كنانة نزل الروم بطنيس سنة ١٠١ هـ ، وقتلوا أحر بن

مسلمة المرادى أميرها في جمع من الموالي ، وفي ذلك يقول الشاعر :

ألم ترّبع فتخبرك الرجال بما لاقى بطنيس الموالي^(١)

وكتب يزيد بن عبد الملك إلى حفظة بن صفوان أن يكسر الأصنام سنة ١٠٤
فكسرت كلها ومحيت التماثيل ، وكسر فيها صنم حمام زبان بن عبد العزيز ، الذي
يقال له حمام أبي مرة ، وله يقول كُرَيْبُ بن مخلد الجيشاني :

من كان في نفسه للبيض منزلة فليأت أبيضَ في حمام زَبَانِ
عَبْلُ لطيف هضم الكشح معتدل على ترائبه في الصدر ثديان
وعرف الناس مكاييل مصر واطمأنوا إليها ، حتى كان عهد هشام بن عبد الملك ^(١)
فبعث بالمدى إلى مصر ، وأمرهم أن يتعاملوا به ، فقبله بعض الناس ، وأباه المعافر ، وكسره
واحد منهم ثم قال . إن لنا وية وإردباً قد عرفناها ، ولسنا نحتاج إلى هذا .
وقال شاعرهم : يفتخر .

قوى الذين تبادروا مُدَى الخليفة بالحجر
وتحزبوا وتعصبوا وجئوا عليه فأكسر
من بعد ما ذلت له أعناقُ يَعْرُبَ أو مضر

ولما استخلف هشام ولى يحيى بن ميمون بن ربيعة الحضرمي قضاء مصر ،
وكان كتابه متهمين بالرشوة ، وعرف بذلك فلم يعزل أحداً منهم ، وكان قد ولى عريفاً
من العرفاء أمر يقيم من قومه ، وتظلم اليتيم من العريف بعد البلوغ زماناً ، وجاء
بينة من قومه ، فلم ينصفه يحيى ، فكتب إليه مسجلاً الحادثة بالشعر :

ألا أبلغ أبا حسان عني بأن الحكم ليس على هوا كما
حكمت بباطل ، لم تأت حقاً ولم يسمع بحكم مثل ذا كما
وتزعم أنها حق وعدل وأزعم أنها ليست كذا كما

ألم تعلم بأن الله حَقٌّ وأنت حين تحكم قد راكبا
فبلغه الشعر ، فسجن اليتيم ، فرفع أمره إلى هشام ، فعظم ذلك عليه ، وكتب
إلى الوليد بن رفاعه يصرفه ^(١) .

وقال سعيد بن شريح مولى نجيب يهجو حفص بن الوليد ، وإلى مصر مروان
ابن محمد ، وكان سعيد منقطعاً إلى زبان بن عبد العزيز بن مروان .

يا باعث الخيل ردّي في ضالتها من المقطم في أكثاف حلوان
لا زال بغضّي ينمي في صدوركم إذ كان ذلك من حبي لزبان
وكان زبان بن عبد العزيز شديد التحريض على حفص بن الوليد حتى قتله
الحوثة بن سهيل الباهلي وإلى مصر مروان سنة ١٢٨ هـ .

وقال مسرور الخولاني يرثي ويحذر .

فياك لا تجني من الشر غلظة فتودى كحفص أورجاء بن الأشيم
فلا خير في الدنيا ولا العيش بعدهم فكيف وقد أضحوأ بسفح المقطم ^(٢)

وقال ابن ميادة المرى يحبذ فعل حوثة :

لقد سرتني ، إن كان شيء يسرنى مُغارُ ابن هبار على بلخ والسفّرُ

(١) ص ٣٤١

(٢) رجاء بن الأشيم : كان والياً على الصعيد لحفص بن الوليد في ولايته الثانية . زمن
يزيد بن الوليد (ص ٨٤ : الولاة والقضاة) ولما قدم حنظلة بن صفوان من إفريقية ، وولاه
مروان بن محمد ، أبى المصريون ذلك وثاروا . ومضى إليه رجاء بن الأشيم بالجيزة ، فأخرجه
إلى الحوف الشرقى . ولما ولي حوثة بن سهيل مروان بن محمد أمن أهل مصر . واستدعى
من دخل في الطاعة أن يقابله في رده . فغشى ذلك رجاء بن الأشيم ، وقال لحفص بن
الوليد : دعني أقف في جبل لأرى ما يصيبك . فأبى حفص . ثم ذهب إليه حفص ورجاء .
فقيدهما ، ثم طلب رؤساء الفتنة فجمعوا له ، فقتلهم سنة ١٢٨ وفيهم رجاء بن الأشيم ، وعقبه بن
نعيم الرعيني ، وعمرو بن يزيد الشيباني وفهد بن مهدي ، وابن السليط (ص ٩٠ الكندي)

وحوثة المهدي بمصر جواده وأسـيافه حتى استقامت له مصر
وقال مرسل بن حمير يبكي حفصاً وأصحابه :

يا عين لا تبقي من المـبـرات	جودي على الأحياء والأموات
يا حفص يا كهف العشيرة كلها	وأخا النوال وسائر العورات
إما قُتِلْتَ فأنْتَ كُنتَ عميدهم	والكهف للأيتام والجارات
أودى رجاء ، لا كمثل رجائنا	رَجُلٌ ، وعقبةُ فارح الكُـرُبات
وشبابنا عمرو وفَهْدُ ذو الندى	وابن السليط وعامرُ الفـسـارات
قُتِلُوا ولم أسمع بمثل مصابهم	سرواتُ أقوامٍ بَنُو سـرـوات

وقدم مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية هارباً من جيوش العباسيين (يوم الثلاثاء ٢ شوال سنة ١٣٢) فوجد أكثر الناس قد « سودوا » ؛ وأمر بإحراق الدار المذهبة ، فقال له زبان بن عبد العزيز : إنها دار بني عبد العزيز ، وقد أعظمت فيها النفقة . فقال مروان : إن أبق أبنا لبننة من ذهب ولبنه من فضة ، وإلا ، فما تصاب به من نفسك أعظم . ثم دخل مروان إلى الجيزة وحرق الجسرين ، فقال عيسى بن شافع يبكي الدار المذهبة ، وهو شعر مليء بالحسرة ، على قلته :

يا طللاً أقوى وحل إلى	منه لدى العلو وفي السفل
قد كنت مَغْنًى لعيون المـهـا	وكنـت مأوى لظـيـبـا الرمل
وكان أربابك ما إن لهم	في الناس من نوع ولا شكل

وقتل مروان بيوصير من كورة الأشمونين ، ٢٣ ذى الحجة سنة ١٣٢ ، ودخل صالح بن علي^(١) الفسطاط يوم الأحد ثمان خلون من المحرم سنة ١٣٣ .

ولهذه الأبيات الأخيرة قيمة في تاريخ الأدب ، لما فيها من اتجاه غير مألوف في الشعر ، وهو رثاء القصور التي أخنى عليها الزمن ، وبكاء الأتار التي تبدل عزها ذلاً ، وصار عامرها خراباً . ورأينا له صدى بعد ذلك في رثاء البحترى لإيوان كسرى ، وفي رثاء شعراء الطولونيين لمغانيمهم ومرابعهم ، وقصورهم وميادينهم ، وفي بكاء شعراء الأندلس على آثارهم التي أبداها الفاتحون الإسبان . وليس ذلك من نوع الوقوف على الأطلال والدمن الذي رأيناه في الجاهلية وبعدها ؛ لاختلاف الباعث ، وهو العظة والاعتبار في الأول ، وذكرى الأحباب في الثاني . وقد صار هذا الأخير تقليداً عند بعض الشعراء ، يرونه حتماً لازماً في أول القصائد : جرياً على الطريقة العربية القديمة .

هذا هو الشعر العربي في مصر زمن الأمويين ، وهو قسمان كما رأيت : قسم منه وافد زائر للمدح والثناء ، وأكثر ما بقي لنا منه ظهر في عهد عبد العزيز بن مروان ، وهو شعر طابعه التقليدي في المعاني . أما الأسلوب فكان فيه استقلال وذاتية . والقسم الثاني شعر المقيمين ، وهو أقل ما بقي وأضعفه : وفيه كثير من التحريف والتبديل ، ولكننا نلح في ثناياه استقلالاً في المعاني والأسلوب ، وفي رجاله استقلالاً في الرأي وحرية في التعبير والنقد ، فغلب عليه الهجاء واللوم . وليس في هؤلاء الشعراء شاعر محترف ، فكان هذا الشعر ، على قلته وضعفه ، نتيجة وحى خاص ، وشعور مستقل ، وتجارب ذاتية . وهو « شعر مناسبات » ، ولكنه من النوع الذي تثيره أحوال وظروف خاصة ، تؤثر في الشاعر ، فتطلق لسانه بالتعبير عما يملأ نفسه ، وليس من ذلك النوع الذي يقوله الشعراء للمجاملات أو للشهرة ، بغير وحى من الشعور والم عاطفة .

وربما كان اتجاه هذا الشعر إلى الحياة العامة ، واتخاذ سجلات للحوادث وتطورات التاريخ ، سبباً في ضياعه وعدم اهتمام الرواة به ، بجانب ضعفه وعجزه عن منافسة شعر الحجاز والشام والعراق ، الذي تجمعت له العوامل الفعالة للبقاء والشهرة ، أقواها السياسة .

الفصل السابع

شعر العصر العباسي

- ١ -

الشعر التاريخي

كان حظ مصر من الشعر قليلا في عهد ولاية الأمويين كما رأينا؛ ولولا الشعراء الزائرون الذين رعاهم عبد العزيز بن مروان لما كان للشعر في هذا العهد حديث يذكر .

أما في عهد العباسيين فكان حظها أوفر ، وأدبها أرق ، وشعرها أكثر ، وإن لم تصل إلى منزلة بغداد ، ولا إلى درجة قريبة منها ؛ لما كان في بغداد من حضارة ونعيم ، ومن جاذبية وإغراء ، ومن نهضة شملت العقل والذوق والخيال ، ومن رعاية كان يسبقها خلفاؤها ووزرائها على العلوم والفنون والآداب ، فسمت بهذا على غيرها من الأقطار .

وكانت مصر تابعة لدار الخلافة ، فلم يكن فيها من الحكومة المستقرة ، والثروة الواسعة ، والمطاء الجزيل ، ما كان في حاضرة الدولة . ولم يكن فيها من حمة الأدب ومجالسه وبواعثه ، مثل ما كان في بغداد ؛ فانصرف الشعراء عن قصدها ؛ إذ كان ولائها أتباعاً ، وكان عهدهم قصيراً ، وعطاؤهم قليلاً ، وحسابهم من رؤسائهم عسيراً ؛ وإن لم يخل هذا العهد من ولاية رعاة للأدب ، صفت أذواقهم فقدروه ، وسخت نفوسهم فأجزلوا له العطاء :

ولكن بغداد أفاءت على البلاد الأخرى بعض حضارتها ورخائها ، ونفخت فيها من روحها ، وبثت فيها من علومها ومذاهب أدبائها ، فكان لذلك آثار ظاهرة في تاريخ البلاد التابعة لها ؛ ونالت مصر قسطها من ذلك ، فارتقت بها الآداب والفنون والأذواق ، وتقدمت العلوم الشرعية واللسانية ، وظهر فيها أدباء من أهلها لا ينكر أدبهم .

غير أنه كان بين الشعر هنا وفي بغداد ما بين التابع والمتبوع من تفاوت في المنزلة ، وفرق في تقدير الناس . وأخص منهم الرواة ، ومؤرخي الأدب ، والمحدثين بالأخبار والنوادر ، الذين استضعفوا ما كان منه ، وآثروا عليه رواية القديم ، أو الجديد الجيد من أدب بغداد وغيرها . واستطاعت مصر — بالرغم من ذلك كله — أن تخرج شعراء في عهد العباسيين يتحدث عنهم تاريخها .

وهذا الشعر الذي فاضت به خواطر الشعراء المقيمين بمصر كان صفحة من تطورات الوقائع والحوادث ، وديواناً للتقلبات السياسية ، وسجلاً من سجلات التاريخ المصري ، كما نرى في الباقي من مختاراته في كتب التاريخ . فاهتم به المؤرخون لأنه حفظ لهم ما لم يحفظه الرواة ، واهتم به مؤرخو الأدب لما رأوا كثيراً منه ذاتياً في معانيه ، مستقلاً في فكرته ، مصرياً في وحيه وموضوعاته . أما أسلوبه وعباراته فلم تخل من طابع مصري يبدو في بعض الأحيان .

وإذا نظرت إلى ما أثر من هذا الشعر وجدت منه شعراً يحرض على الولاة الذين فسد حكمهم ، ويغري بالعمال الذين ضل سعيهم ، كموسى بن مصعب الخثعمي الذي كان والياً للمهدى (سنة ١٦٧) وتشدد في استخراج الخراج ، وزاد على كل فدان ضعف ما كان أولاً ، وقبل الرشوة في الأحكام ، وجعل خراجاً على أهل الأسواق وعلى الدواب ؛ فكرهه الناس فعله ، وقال شاعر يثير الخليفة عليه ، ويحبذ رأى الوزير يعقوب بن داود في وجوب عزله :

لو يعلم المهدى ماذا الذى يفعل به موسى وأيوب^(١)
بأرض مصر حين حبالاً بها لم يُتَّسَمَ في النصيح يعقوب

ومنه شعر جمع بين المدح والتأييد ، وبين التشفي والشماتة ؛ فإن أهل الخوف
والفسطاط تحالفوا على موسى بن مصعب ؛ وكان ظالماً غاشماً ، فضاق الجند والناس به
وخرجوا عليه وقتلوه (سنة ١٦٨) .

وقال سعيد بن عفير يذكر الذين قتلوه . ويحمد لهم أعمالهم^(٢) .

ألم ترهم أَلَوْتُ بموسى سيوفهم وكانت سيوفاً لا تدين لمُتَرَف
فما برحت فيه تعود وتبتدى إلى أن تروى من حمام مُدَرَّف
فأصبح من مصر وما كان قد حَوَى بمصر من الدنيا ، سلبيا بنَفَقَف

وقد يتحدث الشعر بلسان أهل البلاد فيعبر عن آلامهم وسخطهم ، وينطق
بعشاعرهم وإحساسهم ، ويتكلم بما يحبون من طعن في واليهم وأعوانه :
ولى مصر الحسين بن جميل للرشد سنة ١٩٠ ، وجعل على شرطه كاملاً الهُنَّائى ،
وسخط بعض الناس عليه ، وامتنع أهل الخوف عن أداء الخراج ، فقال سعيد بن
عفير^(٣) : يطعن فى الأمير وأعوانه ، ويدم قبائل من أشقام الحظ بهجائه .

ما كنت أحسب أن الحين يجمع ما أمسى بمصر من الأندال فى الإمْر
أما الأمير فحنَّاجٌ ، وصاحبه على الخراج سَوَادِيٌّ من الأَكْر^(٤)
هذا الهُنَّائى من الفسطاط يخلفه والبا هلى على أعماله الآخر
كل لصاحبه شكلٌ يلائمه فهم سوارسية فى اللؤم كالخمر
وما هُناءٌ إلا ظلفُ ذى يمن والباهليون مأوى اللؤم من مُضِر

(١) الولاة والقضاة ص ١٢٥ (٢) شرحه ص ١٢٧

(٣) شرحه ص ١٤٢ (٤) حناج : مخنت . سوادى : فلاح .

فما يسوغُ لنا عيشَ فينفعنا مع ما نرى لهم من رقة الخطير

وهذا شعر آخر ينشده ثائر على الدولة ، خارج على السلطان هو أبو الندى مولى بلى ، الذى خرج فى نحو ألف رجل فقطع الطريق « بأيلة » وغيرها ، وأغار على بعض مدن الشام ، ثم ضوى إليه رجل من جذام يقال له أبو المنذر بن عابس ، وأرسل الرشيد يحيى بن معاذ فى طلبهم ، وطلبهم الحسين بن جميل من مصر أيضاً^(١) .

وكان أبو الندى يقول محرضاً لأصحابه ، مثيراً لحاستهم عند اللقاء :

أقول إذا الرِّفاقُ بدت لوجهى ألا حُتُّوا رحالكُم وطيروا
وإن لم تتركوها فاستعدوا لحرب مثل جابية تفور
أقول لصحبتي كُروا عليهم فليس يُهرِّمُ إلا الكرور

وظفر يحيى بن معاذ بأبى الندى وصاحبه ابن عابس وأرغم أهل الخوف على الخراج بعد امتناعهم ، وقدم الفسطاط سنة ١٩٢ ، فنزل دار ابن عون ، وقال أبو عثمان السكرى : يفخر بما كان ويمدح يحيى^(٢) :

قد جبيننا قيساً ولم تَكُ تُجَبِّى وقتلنا أبا الندى وابنَ عابسٍ
وتركنا ظمأً وحييَ جذامٍ لا يطيقون رفعَ كفٍّ تلامِسُ
آمن الله بالبارك يحيى حوِّفَ مصرٌ إلى دمشق فبالِسُ^(٣)
وأباد الخُلَّاعَ من كل أرض بعد ما حاد عنهم كل فارس
وقال أيضاً يحذر قيساً ، وينصح لهم أن يؤدوا الخراج^(٤) :

يا قيسَ عَيْلَانِ إني ناصح لكم أدوا الخراج وخافوا القتل والحربا

(٢) ص ١٤٥

(١) الكندى ص ١٤٣

(٤) ص ١٤٥

(٣) بالس : بلدة على الفرات .

إني أحذركم يحيى وصولته فما رأيت له تقياً إذا غضباً
ثم خرج يحيى من مصر بعد أن أهان القيسية واليانية .

النزاع بين الأمين والمأمون :

ولم يغفل الشعر عما كان من النزاع بين الأمين والمأمون ، وامتد أثره إلى مصر
فقد كان بها واليان أحدهما : عباد بن محمد بن حيان من قبل المأمون ؛ والثاني ربيعة
ابن قيس الذي جعله الأمين والياً . فتحاربوا ، وعقد عباد لابراهيم بن حوى العذرى ،
وحاربه يزيد بن الخطاب من معسكر الأمين ، فقتل ابن حوى ، وقال سعيد بن
عفير ^(١) يلوم يزيد بن الخطاب الكلبى على قتله ، ويحرض قضاة على الأخذ بثأره .

قتلوا ابن سيدهم وفارس حزبهم عن غير نأرة ولا إجرام
فلئن قضاة لم تطالب ثأره بكتيبة خشناء ذات غرام
ما فى قضاة بعدها ما يرتجى للنائبات ، وما هم بـكـرام ^(٢)

ولم تنفع المأمون ولاية عبد العزيز الجروى ولا السرى بن الحكم ، وكادت
ريحه بمصر تذهب ، لولا أن أدبر أمر الأمين بالعراق ، وقتل سنة ١٩٨ . عندئذ
رجعت كفة المأمون ، ودانت له البلاد .

ووليها المطلب الخزاعى للمأمون (ربيع الأول سنة ١٩٨) . فأقر على شرطه
هيرة بن هاشم بن حديج ، وكان السرى بن الحكم تلقاه وهو قادم من مكة فأغراه
بأهل مصر ، وخوفه إبراهيم بن نافع الطائى ، فجد المطلب فى أثره ، فأعياه ، وآتهم
ناساً بإخفائه منهم هيرة ، فحسهم ليظهره ، أولندلوا عليه ، وعرض هيرة على

(١) الكندى ص ١٥٠ .

(٢) النائرة : الثورة والهاج ، الغرام : الهلاك .

السيف ، فأبى أن يدل عليه ، فلما سكن الطلب هرب إلى الصعيد .

وقال سعيد بن عفير : يذكر وفاء هبيرة ويمدحه مدحاً خالصاً^(٣) :

لعمري لقد أوفى ، وفاق وفاؤه ، هبيرة ، في الطائي وفاء السموءل^(١)
 وقاه المنايا - إذ أتاه - بنفسه
 فما انفك محبوساً ومطَّلب له عليه قصيف بالوعيد الموهول
 فما زاده الإبعاد إلا تَوْقُرًا وصبراً ، ولم يخشع ولم يتفكَّل
 إلى أن تجلت عنه أبيض ماجدا كريم النثا في المشهد المُتَدَخِّل^(٢)

وبلغ المطلب اجتماع ربيعة بن قيس وزيد بن الخطاب على حربته بأسفل الأرض
 فبعث إليهم عبدالعزيز الجروى ، فهزمهم بشظنوف ، وبعث السرى بن الحكم فكان
 مقياً بالخوف . وتفرقت قيس وسكن أمرهم .

وعزل المطلب عن مصر في شوال سنة ١٩٨ هـ ، ثم وليها العباس بن موسى من
 قبل المأمون فولى عليها ابنه عبد الله - وهو الذى جاء إلى مصر بالإمام محمد بن
 إدريس الشافعى رضى الله عنه سنة ١٩٨ هـ^(٣) - وانضم إليه عبد العزيز
 ابن الوزير الجروى ، وسجن المطلب . واستبد عبد الله بن العباس والجروى
 والأنصارى بالجند والناس ، فثاروا بهم وأخرجوا المطلب من سجنه وولوه
 أمرهم^(٤) .

وانضم إبراهيم الطائي إلى المطلب وكذلك الأنصارى . ثم عرف المطلب بكتب
 من العباس إلى الطائي والأنصارى . فبعث المطلب بهيرة بن هاشم فقتل الطائي ،
 وسلط الجند على الأنصارى فقتلوه . وقال المولى الطائي يذم العباس ، ويحرض

(١) ص ١٥٢ . (٢) لم يتفكَّل : لم يجبن ولم يضعف قلبه . النثا : الخبر .

(٣) النجوم الزاهرة ج ٢ ص ١٦١ . (٤) ص ١٥٥ .

المأمون عليه ، ويدكر فضل المطلب في إراحة المأمون والناس منه :

كفاهم من العباس ما لو مُنُّوا به لأحيا لهم من جور فرعون ماعدل
فمن مبلغ المأمون عن نصيحة وما عالم شيئاً سواهُ ومن جهل
بأن ابن عبد الله لولا مكانه لُعرفت للعباس داهية جَللُ

وقال سعيد بن عفير في مقتل أبي بشر - الحسن بن عبيد بن لوط - الأنصارى
ويذم المطلب فيما فعل : وبتهمة بالغدر بأبي بشر الأنصارى^(١) :

أرى كل جار قد رى بجواره وخان أبا بشر جوارُ ابن مالك
أُطلبُ هلاًلاً منعت ابن غادر وأديته قبل انسداد المسالك

الجروى والسرى بن الحكم :

وامتنع الجروى بتنيس على الرغم من ولايته عليها المطلب ، فولى غيره ، فسار
الجروى بمراكبه إلى شطونوف . فقابله السرى في جمع من الجند للصلح ، فأجابهم
ثم اجتهد في الغدر بالسرى وأسرته في زلاجه ، وسار به إلى تنيس سنة ١٩٩ .
ثم عقد المطلب لمحمد بن هبيرة على الإسكندرية ، فاستخلف عليها عمر المعروف
بأبن هلال من أسرته ، ثم عزله المطلب بأخيه الفضل بن عبد الله بن مالك .
فثار عمر بن هلال بإيعاز من الجروى ، وأخرج الفضل ودعا الأندلسيين ،
وعند عودته عاون أهل الإسكندرية الفضل . وردوا الأندلسيين إلى مراكبهم التي
كانت مضاربة تجاه الإسكندرية .

وجد المطلب في أمر الجروى ، فأخرج الجروى السرى من سجنه ، واستعان
به ، والتقى هبيرة بن هاشم بجنود السرى ، الذى تحير به فرسه فسقط في حفرة ، فأدركه

(١) الكندى ص ١٥٦ .

(٢) الكندى ص ١٥٦ وما بعدها .

الجند فقتلوه ، وجزع المصريون لذلك أشد الجزع . فقال سعيد بن عفير يرثيه ،
ويذكر مصرعه في ميدان الشرف ، بعد أن مدحه في موقف آخر يوم أن أوفى
وفاق وفاؤه وفاء السموم :

لعمري لقد لاقى هُبَيْرُهُ حتفه بأفضل ما تلقى الختوفُ السوارعُ
بأنفٍ حَمَى لم تخالطه ذِلَّةٌ وعرضٍ نَقِيَ لم تَشِينُهُ المطامعُ
عشيةً يستكفيه مُطَلَبُ الذي به ضاق ذرعاً والمنايا كوارعُ
فما انفك يحميه ، ويجعل نفسه له جُنَّةً ، حتى احتوته المصارعُ
فلاقى المنايا فوق أجردٍ سابحٍ وفي الكف مأثورٌ من الهند قاطعُ
فبينما يخوض الهول من غمراته وأعداؤه من حوله قد تجاشعوا
تَقَطَّرَ في أَهْوِيَّةٍ عن جواده فصادفه حَيْنٌ من الموت واقعُ^(١)
وطلب المطلب الأمان من السرى على أن يسلم الأمر إليه ، ويخرج عن مصر
فقبل السرى ، وخرج المطلب في بحر القلزم إلى مكة .

قال دعبل الخزاعي للمطلب :

فكيف رأيت سيوف الجريش ووقعةً مولى بني ضبة
أحجبتك أسيافهم كارها ومالك في الحج من رغبة
وقد ولى السرى مصر بإجماع الجند (رمضان سنة ٢٠٠)^(٢) ، وكان مسالماً
للجروى وثار ابن هلال المعافري بالإسكندرية ودعا للجروى . وخاصم الأندلسيين

(١) تقطر في أهوية : سقط في حفرة .

(٢) كانت هناك ثورة داخلية من سنة ١٩٧ — ٢٠٠ انتهت بتولى الهرى بن الحكم
أمر مصر ، وقد حكم البلاد هو وابناه من بعده حوالى عشرة أعوام . وتستحق أسرته أن
يطلق عليها أول أسرة كانت مستقلة نصف استقلال بمصر . مقدمة الكندى ص ٣ Ojuest

وظهرت طائفة الصوفية بالإسكندرية فانفقوا مع الأندلسيين على ابن هلال . واعتضدوا بلخيم ، وكانت أعز من في الإسكندرية .

وذهبت الجموع إلى قصر بن هلال وحاصروه فيه ، وخشى أن يدخلوه ويتهكوا حرمة ويفتكوا بالحرم ، فاعتسل وتحنط ، وتكفن ، وأمر أهله أن يدلّوه إليهم ، فدلّوه فأخذته السيوف ، ودلى عدد من أهل بيته فقتلوا جميعاً سنة ٢٠٠ .

قال سعيد بن عفير يرثي ابن هلال ويذكر دفاعه عن الاسكندرية ، ويشير إلى علمه وحبه للخير ، وإيائه للضميم :

لا يبعدن ابن هلال فقد ذهبت منه المنون بعلم طيب النسم
لا يرأم الضيم من حب الحياة ، ولا يقبل دون فعال الخير بالقسم
ولا يزال له من مجده طارف يسند ما حاز عن آباءه القدم^(١)
ما انفك يحمي دمار اسكندرية في هدم حميد وعز غير مهتضم
حتى إذا جاءه من كان يأمنه وصرح الموت جهراً غير مكتتم
خاض الأسنة والهندي محتسباً حتى تجرع كأس الموت من أتم
وفسد الأمر بالإسكندرية بعد مقتله واضطرب ، فسار إليها الجروى سنة ٢٠١
وكاد يفتحها ، لولا أن بعث السرى إلى تنيس بعمر بن وهب الخزاعي ليخالف إلى
منزل الجروى ، فرجع الجروى إلى تنيس ، وفسد ما بينه وبين السرى .

وقال ابن عفير للجروى^(٢) :

ألا من مبلغ الجروى عنى مغلفة يعاتب أو يلوم

(١) القدم : الشجعان .

(٢) الكندى ص ١٦٥ .

أقت تنازل الأبطال حتى تميز ذو الحفيظة والسُّوم
وُصِّلَ بهم فما وهنت قواهم وطيرُ الموت دائرة تحوم
ولو هجمت جموعك حين حَلُّوا عليهم باد جمعهم المقيم
ثم وثب الجند على السرى وعزلوه ، وأظهروا كتاباً من طاهر بن الحسين
بقولية سليمان بن غالب بن جبريل . وكان ذلك في أول ربيع الأول سنة ٢٠١ .
ونهب الجند دار السرى ، وسيره سليمان بن غالب إلى أخميم . ولكنه استعان ببني
مدلج وهم كثير ، وسار بهم إلى الفسطاط ، فبعث إليه سليمان بجيش فالتقوا
«بقمن» فهزم السرى ، وأسر هو وابنه ، وردا إلى إخميم (جمادى الأولى سنة ٢٠١)
فقال الملعون الطائي يمدح سليمان ويحمله :^(١)

إذا شن في أرض سليمان غارة أثار بها تفعماً كثير المصائب
الم تر مصرأ كيف داوى سقيمها على حين دانت للعدو المناصب
حماها ، ولولا ما تقلد أصبحت حبيساً على حكم القنا والمقانب^(٢)
ثم فسد الأمر على سليمان بن غالب ، ولحق بالجروى .

وولى السرى الأمر مرة ثانية بمصر من قبل المأمون وكان محبوباً بأخميم .
فقدم الفسطاط (١٢ شعبان سنة ٢٠١) وتبع من حاربه قتلاً وصلباً وتعذيباً .
فانتظم أمره وقوى سلطانه .

ثم جاءه كتاب المأمون بأخذ البيعة لعلى بن موسى بن جعفر بن على بن
أبي طالب ، في المحرم سنة ٢٠٢ ، فأبى هذه البيعة إبراهيم بن المهدي ، وخرج على
المأمون ببغداد ، وكاتب وجوه الجند بمصر لخلع المأمون وولى عهده ، وعرف
السرى بالخارجين فخار بهم ، وفيهم الجروى وسلامة الطحاوى وعبد العزيز الأزدي .

(١) السكندی ص ١٦٨

(٢) المقانب جمع مقنب ، وهو جماعة الخيل ، من ثلاثين إلى أربعين .

وسار الجروى إلى الإسكندرية فاستولى عليها ، واستعد كل من الجروى
والسرى لصاحبه ، والتقت جموعهما بشطنوف . فقتل ميمون بن السرى وانهزم
عسكره (جمادى الآخر سنة ٢٠٣) .

وقال المعلى الطائى رثى ميموناً^(١) :

لوردٌ غربَ منية بشجاعة	أحدٌ لدافع ركنها ميمونٌ
لو كان تجريد السيوف يردّها	لحماء منها مُنْصَل وثمين
ما زالت أطمع في رجوعك سالماً	ويروغني شققاً عليك ظنونٌ
فليُفْجَعَنَّ غداً بقتلك طاهرٌ	وليُفْجَعَنَّ بقتلك المأمونٌ

ثم فشلت حركة إبراهيم بن المهدي ومات على الرضا ، وعادت البلاد إلى طاعة
المأمون فولى السرى مرة ثالثة ؛ ثم اختلف الجروى مع الأندلسيين بالإسكندرية ،
فثاروا عليه ، ودعوا للسرى ، فخرج إليهم الجروى (رمضان سنة ٢٠٣) فثار القبط
وساعدتهم بنو مدلج بسخا . فخرج إليهم الجروى فهزمهم .

فقال المعلى الطائى يمدح عبد العزيز بن الجروى^(٢) .

فقل لأمير المؤمنين نصيحةً	وما حاضر شيئاً كآخر غائبٍ
لقد حاطنا عبد العزيز بسيفه	ولولاه كنا بين قتل وناهبٍ

وبعث السرى بأخيه إلى الصعيد لمحاربة سلامة الطحاوى ، فظفر به وبابنه إبراهيم
وبعث بهما إلى الفسطاط فقتلا هناك (المحرم سنة ٢٠٤) فقال المعلى الطائى يعيب
فعل الطحاوى ، ويبرر قتله .

أراد الطحاوى التى لا شوى لها	فأوقد ناراً ، كان بالنار صالياً
ودب لأقطار البلاد بفتنة	فجاشت بسقم لا يجيب مداوى

(٢) الكندى ص ١٧١ .

(١) الكندى ص ١٧٠ .

وراسله من كان يحفى بفـاقية
جنت ما استحق القتل يا صاح كفه
وأصبح ذا مَيلٍ إليه ممالياً
وكل امرئ يجزى بما كان جانباً^(١)

وحاصر الجروى الإسكندرية من شعبان سنة ٢٠٤ إلى صفر سنة ٢٠٥ ونصب
عليهم المجانيق وأصابته فلقة من حجر منجنيقة فقتلته في آخر صفر سنة ٢٠٥ ،
ومات السرى بالفسطاط بعده بثلاثة أشهر .

وانتقلت العداوة والصراع والولاية إلى ولديهما ، أبى نصر بن السرى ، وكان
معه الصعيد ؛ وعلى بن عبد العزيز الجروى ، وكان يحكم أسفل الأرض (الوجه البحرى)
والتقت جيوشهما بشطنوف فانهزم أحمد بن السرى أخو أبى نصر ، ولم يتبعه
على الجروى ، فقال سعيد بن عفير :

ألا من مبدع عني علياً رسالة من يلوم على الرُّكوكِ
علام حبست جمعك مستكفاً بشط ينوف في ضنك ضنيك
وقد سنحت لك الغفران ممن رماك بجيشه الوهن الركيك^(٢)

ثم اصطالحا ومات أبو نصر (٨ شعبان سنة ٢٠٦) ، وولى أخوه عبيد الله بن
السرى مكانه ، وأرسل المأمون خالد بن يزيد بن مزيد الشيبانى ، وحالفه على بن عبد
العزيز الجروى ، وجبى خالد ما مر به من القرى ، والتقى بجيش ابن السرى بفاقوس
ثم التقت جيوش الفريقين بدمهور ، على أميال من الفسطاط ، وانتهت المعارك
بانتصار عبيد الله فى اليوم الرابع سنة ٢٠٧ .

واحتج كل من خالد ، وعبيد بن السرى بكتاب المأمون إليه بالولاية
فقال سعيد بن عفير هذه الأبيات الثلاثة يقدم النصيحة ، ويود أن يرتقب الفريقان
رأى المأمون الواضح .

(١) السكندى ص ١٧١ .

(٢) ص ١٧٣ . الغفران محرفة عن كلمة أخرى مثل « الغفوات » .

يأيها المتحاربان وإنما دعواهما المأمون في الصدقات
هل ترجعان إلى التَّقيَّةِ والتَّقى وتتركان تعاور الغارات
حتى يجيء من الخليفة أمره فيميز بين الحق والشبهات
ثم مكر على بن عبد العزيز بخالد في زمن الفيضان وتركه محصوراً في جهد
وشدة (في نهيا) فقال معلى وكأنه يؤيد فعل ابن الجروی :

سلا خالدا لما أنجلي عنه شكه وأسلمه في عُدوة البحر خاذله
فزالت أمانيه غداةً مما لنا بعارض جيشٍ يعطر الموت وإبله
ولما انكشف النيل سار عبید إلى « نهيا » فأمر خالداً ، واستأمن أكثر
جيشه في (شوال سنة ٢٠٧) . قال معلى الطائي : يمدح القائد ويذم أعوانه الذين
أسلموه^(١) :

ألا أرى خيلاً أضر له الوغى وأجبن في الهيجاء من خيل خالد
وقواده أشرار كل قبيلة كمالوا على إسلامه في الشدائد
فإن يقتلوه يقتلوا منه سيدياً شجاعاً جواداً ماجداً وابن ماجد
وإن كففوا عن قتله فهي منه لآل سريٍّ في مناط القلائد
فمن عليه عبید وأكرمه ، وسيره إلى مكة من القلزم برغبته :
وولى المأمون عبید الله على ما في يده ، وعلى ابن الجروی على ما في يده وضمنهما
الخراج ، ولكن أهل الخوف منعوا الجروی الخراج واستعدوا عليه ابن السري
فأمدهم بأخيه ؛ وتحمل ابن الجروی بمن معه إلى دمياط بعد أن التقوا ببلقينة (١٣
صفر سنة ٢٠٧) .

فقال معلى الطائى مبتصرا لعبيد^(١)

ألا هل أتى أهل العراقين وقعة
وما كان منا قتلهم عن جهالة
ولما تبينت النية فى القنا
فوليت عن ربع المحلة هاربا
فكيف رأيت الله أنزل نصره
سنهذى إلى المأمون منا نصائحاً
وسار ابن السرى وراء ابن الجروى ، ففر هذا من دمياط إلى الفرما ، ثم
العريش ، ثم نزل ما بين العريش وغزة .

قال سعيد بن عفير :^(٢)

ألا يا على بن عبد العزيز
فلست بأول من كاده
وأجر مصيرك أن يسحبوا
فتدرك ثارك من أهله
إلى أين صرت تريد الفرار
عدو فكر عليه اعتكارا
إليك فتوحاً عظاماً كبارا
وتلبس بعد الكبو الفسار^(٣)

وعاد ابن الجروى فأغار على الفرما ، وهرب أصحاب عبيد من تنيس ودمياط
إلى القسطنطينية ، وأقبل ابن الجروى إلى شطونوف ، فقابله محمد بن سليمان بن الحكم
من قبيل عبيد فانهزم ابن الجروى آخر النهار ، ومضى عبيد إلى تنيس ودمياط ،
ولحق ابن الجروى بالعريش سنة (٢٠٩)

قال المعلى الطائى :^(٤)

ألم تر خيله صبحت عليا
تدفع على مناسجها النساء

(١) الكندى ص ١٧٧ .

(٢) شرحه . والفسار : التاج ، فارسى معرب أفسر وفسار .

(٣) الكندى ص ١٧٩ . تدفع : تحرك . المناسج : جمع منسج كبير وهو أسفل الحاركة .

النساج : جمع نسع وهو السير من الجلد .

فولى عن عساكره وخَلَّى
على الأسل المدائن والرِّباعا
ولكن فات فوق أقبَّ نَهْد
كرجع الطرف لا يَحْشَى اضْطِلاعا
فحسبك أن قومك من جُذام
وسعد لا ترى لهم اجتماعا
دعهم طاعةً لك فاستجابوا
ومن عجب لثلك أن يطاعا

وأقبل عبد الله بن طاهر إلى مصر سنة ٢١٠ وانضم إليه ابن الجروى ، وأبى عبيد الله بن السرى أن يسمع له ويطيع^(١) ، فنزل ببلبيس ، ودعا عبيداً وخوفه ومناه ، فلم يستجب ، وأخذ يحفر خندقه ، ويحكم أموره ، ويشحن سفنه ، وسار ابن طاهر من بلبيس حتى نزل « زفيتا » وعقد بها جسرا ، وبعث عيسى بن يزيد الجلودى إلى شطنوف ، وأقبلت سفنه من الشام ، وجعل عليها ابن الجروى لمعرفته بالحرب فى البحر ، وجعل عبيد على مراكبه أبا السرور عسامة بن الوزير الشيبانى والتقى الجمعان فانهزم عبيد ، وأقبل ابن طاهر إلى خندق عبيد الذى احتفره فنزل عليه (محرم سنة ٢١١) فاستأمن أبو السرور فى جمع كبير إلى ابن طاهر .

(١) السكندى ص ١٨٠ ، وفى النجوم الزاهرة ج ٢ ص ١٨١ أن المأمون بعث بأبن طاهر لحرب عبيد الله بن السرى ، وقال له : « إني استخرت الله تعالى منذ شهر ، وقد رأيت أن الرجل يصف ابنه ليطريه ويرفعه ، وقد رأيتك فوق ما وصفك أبوك ، وقد مات السرى وولى ابنه عبد الله ، وليس بشيء ، وقد رأيت توليتك مصر ومحاربة الخوارج بها » فقال عبد الله : « السم والطاعة ، وأرجو أن يجعل الله الخير لأمر المؤمنين » ولما ضيق ابن طاهر على عبيد الله طلب الأمان وشرط شروطا ، وبعث إليه بتقدمة من جملتها ألف وصيف ووصيفة ، مع كل وصيف ووصيفة ألف دينار فى كيس حرير ، وبعث بهم ليلا ، فرد عبد الله بن طاهر ذلك عليه ، وكتب إليه :

لو قبلت هديتك نهرا لقبلتها ليلا ، « بل أتم بهديتكم فرحون »
فلما بلغه ذلك طلب الأمان بلا شرط .

لَعَمْرِي لَقَدْ كَانَتْ بِمَصْرَ وَقِيمَةً أَقَامَتْ عَلَى قَنْصِدِ الْهَوَى كُلِّ مَا نِلَ
 عَلَى الْخُنْدُقِ الْأَقْصَى وَمَا كَانَ حَوْلَهُ وَمَا قَدِيلِيهِ مِنْ فُضَاءٍ وَسَاحِلِ
 رَأَى ابْنَ السَّرَى النَّصْرَ أَوَّلَ يَوْمِهِ وَأَوْدَى بَلِيثَ مِنْ أَبِي السَّرَوِ بِاسِلِ^(١)
 لَوَيْنَ جَمُوعَ ابْنِ السَّرَى وَخِيَلَهُ شَمَاطِيظَ تَتَرَى كَالنِّعَامِ الْجَوَافِلِ
 فَلَمَّا رَأَوْا أَلَا مَحِيصَ وَأَنَّهُ كَفَاحُ الرَّدَى فِي كُلِّ حَقٍّ وَبَاطِلِ
 تَوَخَّوْا أَمَانَ الْأَرِيحِيِّ ابْنَ طَاهِرٍ فَمِنْ فَارِسٍ يَأْتِيهِ طَوْعًا وَرَاجِلِ
 وَقَدِمَ أَبُو صَالِحِ التَّمِيمِيِّ مِنْ بَغْدَادَ بِكِتَابِ أَمَانَ لَابْنِ السَّرَى ، وَبِتَوْقِيعِ
 الْمَأْمُونِ إِلَى ابْنِ طَاهِرٍ ، لَمَّا كَتَبَ إِلَيْهِ هَذِهِ الْأَيَّاتِ يَفُوزُ الْأَمْرَ إِلَيْهِ ، وَيَجْعَلُ لَهُ
 السُّلْطَانَ الْمَطْلُوقَ فِي أَمْرِ ابْنِ السَّرَى^(٢) :

أَخِي أَنْتَ وَمَوْلَايَ الَّذِي أَحْفَظُ نِعْمَاهُ
 فَمَا تَهْوَى مِنَ الْأَمْرِ فَإِنِّي سَوْفَ أَهْوَاهُ
 وَمَا تَسْخِطُ مِنْ شَيْءٍ فَإِنِّي لَسْتُ أَرْضَاهُ
 لَكَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَكَ اللَّهُ ، لَكَ اللَّهُ

وَمِنْ الشَّعْرِ الَّذِي قِيلَ هَجَاءٌ لِعَبِيدِ اللَّهِ مَا قَالَهُ شَاعِرٌ يُسَمَّى أَحْمَدَ الْحَرَاوِي :
 أَرْجُو مَهْأَةً دَفَعَ ضَرْغَامُ غَابَةٍ كَشَتَّانِ مَا بَيْنَ الْمَهَا وَالْمَهْزَابِ
 وَإِنْ أَحَقَّ النَّاسُ أَنْ يَشْهَدَ الْوَعَى وَيَقْصِفُ أَصْلَابَ الْمُلُوكِ الْجَبَابِ
 لَمْ يَكُنْ فِي الرُّوعِ فِي زِي غَادَةٍ وَلَمْ يَحْتَجِبْ صُبْحًا لِمَشْطِ الضَّفَائِرِ
 فَقَدْ هَجَاهُ بِمِشَابِهُتِهِ النَّسَاءَ ، وَهُوَ هَجَاءٌ قُلَّ مِثْلُهُ فِي الْأَدَبِ الْعَرَبِيِّ السَّابِقِ ،

(١) شَمَاطِيظُ : متفرقة .

(٢) السَّكَنْدِيُّ ص ١٨١ ، وَرَوِيَتْ فِي النُّجُومِ الزَّاهِرَةِ ج ٢ ص ١٩٢ مَعَ اخْتِلَافٍ
 يَسِيرٍ ، وَلِمُنَاسِبَةٍ أُخْرَى . هِيَ أَنَّ الْمَأْمُونِ كَتَبَ إِلَى ابْنِ طَاهِرٍ بِأَمْرِهِ بِالزِّيَادَةِ فِي الْجَامِعِ الْعَتِيقِ ،
 فَزَادَ مِثْلَهُ ، وَكَتَبَ يَعْلَمُ الْمَأْمُونُ بِذَلِكَ ، وَأَرْسَلَ إِلَيْهِ هَذِهِ الْأَيَّاتِ

وفيه إشارة إلى إرسال الرجل شعره ، وجعله ضفائرًا يعشطها ويرجلها .

ثم وليها ابن طاهر من قبل المأمون (ربيع الأول سنة ٢١١) . وخرج عبيد بن السري إلى بغداد (جمادى الأولى سنة ٢١١) . فقال حبيب بن أوس الطائي :

فأورده بغداد تهوى برحله ذمّولٌ تَرامى فى قلاص ذوامل
فأصبح قد زالت ظلالُ نعيمه وأى نعيم ليس يوماً بزائل !

وقد عاش عبيد بعد ذلك زمناً ثم مات بسر من رأى سنة ٢٥١ هـ .

وعادت البلاد تابعة للخلافة ، ولكن شعرها ظل كما هو — فيما يبدو لنا من هذه الأمثلة القليلة — مهتماً بالسياسة ورجالها ، وبالحوادث وتسجيلها .

ثم خرج منها ابن طاهر ، واستخلف عيسى بن يزيد الجلودى (١٧ ذى القعدة سنة ٢١٣) . وقدم الخبر بولاية أبى إسحاق بن هرون الرشيد (المعتصم) وعزل ابن طاهر ، فأقر الجلودى ، ولكنه ظلم وزاد الخراج ؛ فانتفض أهل البلاد ، وحاربهم ابن الجلودى فى بلبس فهزموه (وذلك فى صفر سنة ٢١٤) .

ثم وليها عمير بن الوليد باستخلاف أبى إسحاق له (١٩ صفر سنة ٢١٤) . فاستعد لحرب أهل الخوف . وخرج عليه القيسية واليمانية ، وعلى الأولين قيس بن عبد الله بن حليس الهلالى ، وعلى اليمانية عبد السلام بن أبى الماضى ، وهزمهم عمير أولاً ولكن كميناً خرج عليه عند اليهودية ، وقتله مبارك بن الأسود (يوم الثلاثاء ١٣ ربيع الآخر سنة ٢١٤) ، فكانت ولايته ستين يوماً . قال حبيب بن أوس الطائي :^(١)

ألا رُزِمت خراسانُ فتاها غداة نوى عميرُ بن الوليد

(١) روى السكندى هذه الأبيات ص ١٨٧ ، وهى فى الديوان ص ٣٥٩ من قصيدة طويلة .

فيا يوم الثلاثا كم كئيب
فكم سَخَّنت فينا من عيون
فأزجرت طيورُك عن سَنِيع
وقال أيضاً :

أنسى عميرَ بن الوليد لغارة
أنسى فتى الفتيان غيرَ مكذَّب
وقال سعيد بن عفير :

سأقت عميرَ إلى مصرَ منيَّته
حتى أتته المنايا وهو ملتحف
فأذهب حميداً فلا تبعَد فكل فتى
ووليه عيسى بن يزيد الجلودى مرة ثالثة لأبى إسحاق وحاربه أهل الحوف
فهمزوه إلى الفسطاط ، قال حبيب بن أوس يهجو الجلودى :

قل للجلودى الذى يده
الله أرهقك الهزيمة إذ
وأنتك خيل لو صبرت لها
من حى عدنان وإخوتهم
أعصمت بالليل البهيم وقد
وتركت جندك للقنا جزراً
فاشكر أياذى ليلة سنحتا

ذهبت بمال جنوده شـمـبا
جذبتك أحبال الردى جذبا
أنهبن روحك فى الوغى نهبا
قحطان ، لا ميلاً ولا نكباً
ألقى عليك ظلامه حجباً
والبيض تجذب هامهم جذبا
لك بالبقا فركبتها ركبا^(٣)

(١) البيتان من قصيدة نونية فى الديوان ص ٣٨٩

(٢) وزدت هذه الكلمة « كريت » ولا معنى لها .

(٣) البيت الأول من الديوان ص ٤٩٠ ، وبقية الأبيات مختارة من قصيدة فى تلك الصفحة

ثم قدم أبو إسحاق إلى مصر وحارب أهل الخوف وهزمهم ، ودعا رئيس قيس عبد الله بن حليس ، ورئيس اليمانية عبد السلام بن أبي ماضى ، وقيدهما وسجنهما ثم دخل بهما القسطنطينية وقتلها وصلبها بالجيزة (الاثنين ١٨ ذى القعدة سنة ٢١٤) . قال معلى الطائى وخض بأكثر شعره عبد الله بن حليس (١) :

إِنَّ الْحَلَيْسَى غدا سابقا	فى حلبة الجمرين قد قَصَبَا
على طِمْرٍ ماله أرجل	من صنعة النجار قد شُدَّبا
وليس يدرى عند إجماعه	من أثفر الطرف ومن لبَّبا
مسمَّرُ الخلق أُمونُ الشَّوى	يأنف أن يأكل أو يشربا
ولو سرى ليلته كلها	ما جاوز الجسر ولا قربا
لو كان من بعض نخيل القرى	كان أبو القاسم قد أرطبنا
كسا أبو إسحاق أوداجه	أبيض لا يُعْتَب من أغضبنا
وقد سقى عبد السلام الردى	فكيف بالله إذا جَرَّبَا

وهو شعر ساخر يتهم فيه بهذا البائس المصلوب . ويصف الصَّلب وحصانه ومكانه وصفا دقيقا موجزا .

وخرج أبو إسحاق إلى الشام فى أترأكه ومعهم جمع من الأسارى ، وذلك فى أول المحرم سنة ٢١٥ .

ووليها إسحاق بن يحيى بن معاذ من قبل المنتصر بن المتوكل ، وولى عهده ؛ فى ١١ ذى القعدة سنة ٢٣٥ . وقيل إنه عزم أن يثور بها ، فلم يلبث إلا يسيراً حتى عزل ومات بها بعد عزله سنة ٢٣٧ .

قال شاعر بصرى يرثيه ويسقى جدته (٢) :

سقى الله ما بين المقطم والصفاء صفا النيل صوب المزن حين يصوب

(١) الكندى ص ١٨٨

(٢) النجوم الزاهرة ج ٢ ص ٢٨٥

وما بى أن أسقى البلادَ وإنما
فإن تكُ يا إسحاقُ غبت فلم تُؤبُ
إلينا ، وسفر الموت ليس يؤوب
فلا يُبعدنك الله ساكنَ حُفرةٍ
أحاولُ أن يُسقى هناك حبيبُ
بمصرَ عليها جندلٌ وجنوبُ

ثم وليها عبسة بن إسحاق الضبي من قبل المنتصر سنة ٢٣٨ فأخذ العمال برد
الظالم ، وأقامهم للناس وأنصف منهم ، وظهر بالخوف من العدل ما لم يسمع بمثله
في زمانه ، وكان يروح إلى المسجد ماشياً من العسكر ، وكان ينادى في شهر رمضان
بالسحور ، وكان مشهوراً بمذهب الخوارج فلم يسلم من لسان الشعراء .

قال يحيى بن الفضل (١) :

من فتي يبلغ الإمام كتاباً
بئس والله ما صنعت إلينا
عريباً ويقتضيه الجوابا
حين وليتنا أميراً مصابا
خارجياً يدين بالسيف فينا
ويرى قتلنا جميعاً مصابا
مرّاً يمشى إلى الصلاة نهارة
وينادى السحور : ضل وخابا

وفي ولايته نزلت الروم دمياط يوم عرفة سنة ٢٣٨ فلكوها وما فيها ، وقتلوا
وسبوا ، فخرج إليهم عبسة فلم يدركهم فقد ارتحلوا إلى تنيس ، فأقاموا بأشتومها
فلم يتبعهم عبسة . فقال يحيى بن الفضل للمتوكل يثيرة على عبسة ، الذي ضعف
وتواكل عن تتبع الروم وتأديبهم (٢) :

أترضى بأن توطأ حريمك عَنوة
بِتَنَيسٍ منه رأى عين وأقرب
أصابوه من دمياط والحرب ترُتب
مقيمون بالأشتوم يبنون مثل ما

(١) السكندی ص ٢٠١

(٢) خطط المقرئى ج ١ ص ٢١٤

فأرام من دمياط شبراً ولا درى من العجز ما يأتي وما يتجنب
فلا تنسنا إنا بدار مضيعة بمصر ، وإن الدين قد كاد يذهب

ونرى فيما تقدم أن هذا الشعر قد مال ، قصداً أو بغير قصد ، إلى السياسة والإدارة والأمن :

فعنى بالولة والوقائع والطاعة والعصيان والحرب والسلام وشبه ذلك . ومن الطبيعي أن يذكر الشاعر هؤلاء الولة بخير أو بشر . وهنا يقترب من السياسة ولا يستطيع أن يتجنبها عند ما يؤيد واليا رضى عنه ، أو يعيب عاملاً سخط عليه ، أو عندما يقدم نصيحة لأمر المؤمنين أن يعزله أو يقره ؛ فتختلط السياسة بالمديح والهجاء والنصح والوصف وسواها ، ولم تسكت عنه دوافع العصبية القبلية في بعض الأحيان . وليست هذه الأحداث وحدها هي التي أثارَت الشعراء ، ولا أظن هذا القدر هو كل ما قيل . ولولا كتب التاريخ واهتمامها بأدب هذه الفترة لما بقي لنا منها شيء يذكر ، فلها فضلها في بيان زمن النصوص على وجه الدقة أو التقريب ، وفي توضيح معناها ، وبيان إشاراتها والإفصاح عن الشخصيات والأماكن والحوادث التي وردت فيها .

ولكن كتب التاريخ تحفظ ما يعينها ، وكتب الأدب تروى ما يعجبها ويرضيها . وقد يضيع بين هذين قدر كبير لم يجد من يهتم بروايته .

الفصل الثامن

شعر العصر العباسي

- ٢ -

الشعر القضائي أو شعر الخصومات

لعل من الغريب أن تجد شعراً مدرجاً تحت عنوان كهذا ؛ وقد تحسب أن المقصود به قضايا تصاغ شعراً ، وترفع إلى القضاة منظومة ؛ أو أن المراد به دفاع موزون عن حقوق ؛ أو محاورات مقفاة بين خصوم ؛ أو أن أصحاب هذه القضايا ، أو القائمين بهذا الدفاع ، يعتمدون على المنطق ، أو يحتكمون إلى مواد القانون ، ونصوص الفقه وأصول التشريع .

ولكنك تقرؤه فتراه بعيداً عن هذا كله ، فهو شعر كغيره من الشعر ، فيه مدح وهجاء ، وفيه خيال وحقائق ، وفيه عواطف وانفعالات ، وفيه حق وفيه تحامل . ولكن المناسبات التي قيل فيها ، والحوادث التي أوحى به ، كانت في مجالس القضاة ، أو بسبب فصل القضاء ، أو لدافع يمت إلى شيء من ذلك .

ومن الطبيعي أن يكثر الحديث في مثل هذا الشعر عن العدل والظلم ، والقضاء والحكم ، والخصوم والشهود ، والبيئة واليمين ، والحق والباطل وشبه ذلك .

وإذا تعرض هذا الشعر للقضاة هجاء بما يشينهم كأكل أموال اليتامى ، أو أخذ الرشى ، أو الميل في القضاء ؛ أو مدحهم بما يشرفهم ، كالمؤايسة بين الناس في وجههم ومجلسهم وعدلهم ، والبعد عن الشبهات في تصرفهم ، والتخلق

بكریم الأخلاق وجميل الصفات .

وترى في أثناء ذلك الشعر صوراً متعددة من حياة المجتمع ومشكلاته ، ومن المنازعات العامة والخاصة التي تعرض على مسمع القاضى وتقدم إلى حضرته . وأكثر ما بقى من شعر هذه المنازعات متصل بالأمور العامة كما سترى .

وكان لهذا النوع من الشعر مقدمات في عصر بنى أمية ، رأينا منها هجاء عمران بن عبد الرحمن الحسنى خلفه في القضاء عبد الواحد بن عبد الرحمن . . . بن معاوية بن حديج . إذرماء بالتخفت والأنوثة ؛ وهجاء لمن ولاد ، وهو عبد الله بن عبد الملك ، ودعا على الوالى وقاضيه^(١) .

ورأينا منها شعر اليتيم الذى لم ينصفه القاضى يحيى بن ميمون الحضرمى ، فقال فيه أياتاً ، هى أقرب إلى الشكوى منها إلى الهجاء . وبلغ أمره هشام بن عبد الملك ، فعزل يحيى عن القضاء^(٢) .

وأول شعر نعرفه من هذا النوع فى عهد العباسيين ، قاله عبد الأعلى بن سعيد الجيشانى :

فقد كان أبو خزيمة الرعيني والياً على القضاء من قبل يزيد بن حاتم سنة ١٤٤ هـ . فرفع إليه أن عبد الأعلى بن سعيد تزوج امرأة من بنى عبد كلال ، فقام بعض أوليائها وأنكروه ، وترافعوا إلى أبى خزيمة ، فقال : ما أحل ما حرم الله ، ولا أحرّم ما أحل الله ؛ إذا زوجها ولى فالنكاح ماض . فارتفعوا إلى يزيد ابن حاتم ، وهو الأمير يومئذ . فقال يزيد : ليس عبد الأعلى من أكفائها ، وأمر أبا خزيمة بفسخ نكاحها ، فامتنع ؛ ففرق بينهما يزيد . فقال عبد الأعلى يعرض بالأمير ، ويتهمة بالكفر ، ويظعن فى قضائه^(٣) :

(٢) ص ١٥٨ من هذا الكتاب .

(١) ص ١٥٦ من هذا الكتاب .

(٣) الولاة والقضاة ص ٣٦٧ .

«و» أعلنت الفواحش في البوادي وصار الناس أعوانَ المريبِ
إذا ما عيبتهم عابوا مقالي لما في القوم من تلك العيوبِ
وودوا لو كفرنا فاستويننا وصار الناس كالشيء المشوبِ
وكنا نستطبُّ إذا مرضنا فصار هلاكنا بيد الطبيبِ

وقد يعب البيت الأول من هذه الأبيات أن نقص حرفاً ففقد جمال الموسيقى وحسن النغم ؛ وهذا شعر عام لم تذكر فيه القضية ، ولا إشارة إليها لولا رواية الكندي للقصة ؛ ولكن الأبيات برغم ذلك تعد من الشعر الجيد ، وليست دون غيرها من الشعر القوى في الهجاء .

وعندنا قصيدة أخرى كانت الخصومة فيها شخصية بين القاضي والشاعر .

أما القاضي فرجل عظيم يسمى المفضل بن فضالة ، وإلى القضاء من سنة ١٦٨ هـ — ١٦٩ هـ . وأما الشاعر فهو إسحاق بن معاذ بن مجاهد بن خير . وكان بينهما مودة حتى مدح الشاعرُ القاضي فقال ^(١) :

لَفَضْلِكَ أَضْحَى ، يَا مُفَضَّلُ ، ظَاهِرًا لِمَنْ كَانَ يُعْنَى بِالْأُمُورِ وَيَعْقَلُ
لَقَدْ سُسَّتْ فَضْلَ الْحُكْمِ فِي الدَّهْرِ حَقَبَةً فَلَا أَنْتَ ذُو خُرْقٍ وَلَا أَنْتَ تَجْهَلُ
وَلَا أَنْتَ مِمَّنْ يَطَّيَّبُهُ ^(٢) مَطَامِعُ وَيُعْرَضُ عَنْ قَصْدِ السَّبِيلِ وَيَعْدِلُ
فَإِنْ قِيلَ أَى النَّاسِ أَهْجَرَ لِلْهَوَى وَأَقْضَى بِفَصْلِ الْحُكْمِ ؟ قِيلَ الْمَفْضَلُ
فَأَنْتَى نَخَافُ الْجُورَ مِنْكَ ، وَإِنَّمَا دَلِيلُكَ فِي الْحُكْمِ الْكِتَابُ الْمَنْزَلُ

لكنه تغير عليه وهجاه بعد الرضا عنه ، وذهب إليه يوماً في خصومة ، وأدخل يده في كمه ليخرج قصته ، فأخرج المهجو فدفعه إليه وهو :

خف الله واسمع من مقالى ، مفضلُ
فإنك عن فصل القضاء ستسأل
وقد قال أقوام ، عجبت لقولهم
أقاض له شعر طويل مُرجَل
فرمى المفضل الرقعة وقال . قم لحيائك الله !

وروى الكندى الآيات الآتية لإسحق بن معاذ فى هجاء القاضى المفضل .
ويفهم من رواية الكندى أنها من قصيدة أخرى ، ولكن النظرة السريعة
تقضى بأن القصيدة واحدة تغير فيها بعض الألفاظ ، وزيدت أبيات . قال إسحق :

خف الله وارفق وانثد يا مفضل
وإنك موقف به ومحاسب
أفى العدل أن أقصى وأخرج متعباً
ويُفتح — إن يدنو — له الباب جهره
وتقبل منه فى مغيبى شهوده
فهاأنذا أصبحت خصمك فى الذى
فأصغ إلى السمع منك ، وأنسبني
فإنك عن فصل القضاء ستسأل
فدونك ، فانظر ، كيف فى الحكم تفعل
وتدنى بفضل منك خصمى ، ويدخل
ويغلق دونى ، إن دنوت ، ويُقفل
ويَنسَيتى ليست ، إذا غاب ، تقبل
قضيت به ، والحق ما ليس يجهل
بأى وجوه الفقه أصبحت تعمل ؟

وهذا شعر فى الهجاء كأنه عتاب عنيف قوى ، تحير التهم التى توجه إلى قاض
فتقضى عليه ، كالمحاباة وعدم التسوية بين الخصوم فى المعاملة ، ومجاورة ما يقضى به
الفقه والعدل .

وولى المفضل القضاء مرة ثانية من سنة ١٧٤ — ١٧٧ ورسم أقواماً للشهادة
فلم يرض عنه إسحق . ودعا عليه وذمه ؛ قال (١) :

سأدعو إلهى حتى الصباح
لكنما بعيدك كلباً هزيباً
سننت لنا الجور فى حكمنا
وصيرت قوماً لصوفاً عدولاً

وهناك قضية أخرى كان المفضل فيها حكماً عدلاً أو قاضياً رحيماً ؛ وهي قضية أبي الكرويس تمام بن الكرويس الكلبي ، الذي تزوج امرأة من المعافر يقال لها أم شاكر ؛ فنافرته يوماً فطلقها ! وادعت عليه مهراً . فخاصمته إلى المفضل فقال أبو الكروس :

ألا طرقتنا سُجْرَةً أمْ شاكر بكاراً ، وهل يؤذك إلا المبتاكرُ
تخاصمنا ذُحْلاً ؛ لأن بان وصلها وذلك أمرٌ ، أين منه المقادرُ
وقد أخذت مهراً ، لما كان عندها وهذي شهودي خَيْرٌ والمعافرُ
فقال له المفضل : يا أبا الكروس . إن شهد لك بالبراءة حكمنا لك ، وإن شهد عليك فعملينا الوفاء عنك .

وترى في هذا الشعر تقريراً للخصومة وعرضاً موجزاً للقضية ، ودفعاً للاتهام ، ولكنه لا يعرض للقاضي ، وكان موقف المفضل من أبي الكروس في حالتي البراءة والإدانة موقفاً كريماً .

قضايا القاضي العمري :

وإذا كانت هذه القضايا التي سجلها الشعر عن المفضل قضايا فردية ، فهناك قضايا أخرى سجلها الشعر عن قاض آخر ولى قضاء مصر في أواخر عهد الرشيد ، من سنة ١٨٥ — ١٩٤ وهو القاضي عبد الرحمن بن عبد الله العمري ، الذي كان معروفاً بمحبته لمهارة الأقباس « الأوقاف » ، وكان يقف عليها بنفسه ، ويجلس مع البنائين أكثر نهاره .

وكان له كُتَّابٌ ، ومن أجَلَّهم سعيد بن كثير بن عفير ، ويحيى بن عبد الله ابن بُكَيْر ، واتخذ من أهل المدينة من موالى قریش والأنصار وغيرهم نحواً من مائة ، كانوا يشهدون ، ورئيسهم المطرفي . ولكن شاعراً من عرب مصر ، من خولان ،

كان موكلًا به ، يتتبع زلاته ، ويهجو به بعبوبه ؛ وكان يطعن في أصحابه . فاتهمهم
بالغنى بعد الفقر ، وبأن كل أموال اليتامى وقبول الرشوة : ذلك الشاعر هو يحيى
الخلولاني ، الذي يقول (١) :

كم فقير كان قد مَوَّلهُ بالمواريث التي كان مَنَحَ
زكريا وكَيْشُ منهمُ والمدينِيُّونَ أصحابَ البَلَحِ
فأفادوا الدور فضلاً ، بعد ما كَلِبَ الفقَرُ عليهم وألَحَ
كم يَتيمٌ قد حوَّوا أمواله وشهِدَ عادلٌ كان جُرحَ

وقال قصيدة أخرى يهجو فيها العُمري وأصحابه ومنها (٢) :

تُصَيِّرُ أموالُ اليتامى جَوَازًا لأصحابه حتى استقلوا وأُتْرِبُوا
كَيْشٌ وطَلَقَ والقَريرى منهمُ وخالدُ والجعدى ذو الفِقهِ أَشْهَبُ
وما ابنُ بُكَيْرٍ دونهم وسُراقَةٌ وسابقٌ لا تنسأ ذاك المَعذبُ
وفي حَكَمِ والطَّرَفِ عَجِيبَةٌ وما إن أبو يعقوبَ عنها مُغَيَّبُ
وفي زكريا آيةٌ ، فاعجبوا لها فقد صار بعد الذل ، للجور يُرْهَبُ
وبعد قرآنِ العُمري أصبح فاكْتَسَى وبعد الحِيفِ والمشي قد صار يَرْكَبُ
وغيرُ الأُلَى عَدَدَتْ مِمَّنْ نَسِيتُهُ رجالٌ كثيرٌ منهمُ يتعجبُ

وضعف بعض الأبيات والتراكيب ، كالبيت الأخير ، لا يهمننا بقدر ما يهمننا
تصويرها لحال ذلك القاضي ورجاله الذين عنى الشاعر بسرد أسمائهم ، مثل زكريا
ابن يحيى ، وكَيْش بن سلمة ، وسابق بن عيسى ، وأشهب بن عبد العزيز ، ويحيى
ابن بكير . وكان لبعض هؤلاء عمل مع القاضي ، فاتهمهم الناس بالرشوة ، كما

أتهمهم يحيى الخولاني في هذه الآيات السابقة .

قضية الحرس (١) :

وهي قضية مشهورة شغلت الناس زمناً ، وشغلت الشعر معهم أيضاً ، وأصل هذه القضية أن بعض العرب بمصر ؛ منهم أبو رَحَب الخولاني ، العلاء بن عاصم وهاشم بن حديج ، وأبو الدهمج رباح بن ذؤابة الكندي ، « كانوا يتحشرون أهل الحرس ويؤذونهم » ، وهم من القبط الذين أسلموا ، كما يفهم من بقية القصة ، وكان أولئك العرب يأبون عليهم أن ينسبوا إليهم ، وأن يكون لهم مثل مزايهم . فمشى أهل الحرس إلى زكرياء بن يحيى كاتب العمري ؛ وكان منهم ؛ فقالوا له : حتى متى تؤذى ويطعن في أنسابنا ؟ فأشار عليهم زكريا بجمع مال يدفعونه إلى العمري ، ليسجل لهم سجلاً بإثبات أنسابهم ، فجمعوا له ستة آلاف دينار ، ووكل لهم في الأمر سابق بن عيسى ؛ وكبيش بن سلمة ولوط بن عمر . فلما صار المال إلى العمري لم يحسر على أن يسجل لهم ، وقال : ارفعوا إلى الرشيد في ذلك . فخرج عبد الرحمن ابن زياد الحرسى وأبو كنانة إلى العراق ، وأنفقوا مالا عظيماً هناك ، وادعيا أن المفضل ابن فضالة قد كان حكم لهم بإثبات أنسابهم ، وأنهم بنو حَوْتَسَكَة بن أسلم بن الحاف بن قُضَاعَة .

أما نسبة الحكم بعريتهم إلى المفضل بن فضالة أولاً فكانت تزويراً ، كما يفهم من الكندي (٢) ، وأن الذي زورها وأقر بالتزوير رجل يسمى عبد الكريم القراطيسي ، وكان ماهراً في تقليد الخط « وكان يضع على الخطوط نظيرها » . وقد أخذ في وضعها ألف دينار ؛ وأخذ المتولى لديوان المفضل ألف دينار حتى أثبتهم في الديوان .

(١) الولاة والقضاة من ٣٩٧ وما بعدها . (٢) الولاة والقضاة من ٣٩٨ .

ورجع عبد الرحمن بن زياد بكتاب من محمد الأمين إلى العمري « بعد موت الرشيد » بالتسجيل لهم ، ودعاهم إلى إقامة البيعة ، فقدموا جماعة من بادية الشام ، ومن أهل الحوف ، والشرقية ، فشهدوا أنهم عرب ، فسجل لهم العمري نسبهم ، ولم يرد من الشهود غير حوى بن حوي بن معاذ العذري ، لمنازعة كانت بينه وبين أشهب بن عبد العزيز ؛ فقال يحيى الخولاني يذكر هذا الانتساب .

ومن أعجب الأشياء أن عصابة
وقالوا أبونا حوئك ، وأبوهم
من القبط فينا أصبحوا قد تعربوا
من القبط عُلج حبله متدبذب^(١)
بأنهم منهم ، سفاهاً ، وأجلبوا
« بزعمهم^(٢) » مادامت الشمس تغرب
أما حوى بن حوى فلم يغفه من الهجاء أن ردت شهادته ، إذ لم تكن له
حيلة في ردها ، وكان يرغب أن تقبل ، وكان راضياً بما كرهه يحيى الخولاني ،
فقال فيه يحيى :

يا ليت أم حوى لم تلد ذكراً
كسا قضاة عاراً في شهادته
أوليت أن حوياً كان ذا خرس
لله در حوى شاهيد الحرس !
شهادة رجعت ، لو أنها قبِلت
لألحق الزور منها العير بالفرس
وود يحيى ، في هذه الأبيات ، لو كانت أم حوى ولدت أنثى ، أو أنه خرس
عن أداء الشهادة التي كست قضاة إعاراً ، ولو قبلت شهادته بالزور لألحقت
الأذى بالأعلى ، والوضيع بالشريف ، أو ألحقت الحير بالخليل . ولكن شهادة
الشهود قبلت ، وحكم القاضي للحرس بنسبتهم إلى حوتكة ، وكان

(١) العليج = الكافر من العجم .

(٢) في الأصل « بهم رغماً » والبيت مكسور فجعلتها « بزعمهم » ليستقيم المعنى والوزن .

أهل الحرس يطيفون بالعمري مع زكرياء بن يحيى كاتبه ، وصاروا أقرب إليه .
وعرف عن العمري أنه يحب الغناء ، ويستمتع إليه ، ويعرف فنونه ، ويرد
ما يسمعه إلى كبار المغنين بالمدينة فيقول : هذا غننى به ابن سريج ، وهذا به
الدلال ، وهذا من جيد غناء الغريض^(١) ؛ ولم تكن بمصر مُسمِعةً إلا
ركب إليها يسمع غناءها ، وربما قوّم ما انكسر من غنائها ، ويرى ذلك من
الدين . فقال فيه يحيى الخولاني :

مَرَّ بِنَا رَاكِبٌ عَلَى فَرَسٍ يَأْمَنُ رَأْيَ هَرِّ بَدَاً عَلَى فَرَسٍ^(٢)

يقدمه خالد ويتبعه لوط ، قران الكلبين في مرس
فقلت من ذا اللعين ؟ قيل أبو النـ دى ، غدا مسرعا إلى عرس
كما يرى قينة ذكرت تشدو بصوت يُخَالُ كَالْجَرَسِ
أصبح في المخزبات منفمسا وليس في غيرها بمنفمس

وكان العمري في نظره لاهيا لاعبا صاحب خمر وطرب ، ضعيف العصبية للعرب ،
حتى ألحق بهم من لا يساويهم . واستبكى الخولاني سامعه لذلك ، وأتهم القاضي
بالجور في أحكامه ، والسهر في أماكن الريبة ، وشرب الخمر وسماع الغناء ، وتلك
كلها مطاعن تسقط من عدالة القاضي ، وتثلم شرفه . فأتحفه بقصيدة أخرى في
هجائه . قال :

أَلَا قُمْ فَانْدِبِ الْعَرَبَا وَبَكََّ الدِّينَ وَالْحَسَبَا
وَلَا تَنْفَكُ تَنْمَى الْعَدَا لَ مَا بَانَ فَاغْتَرَبَا
لَقَدْ أَحْدَثَ قَاضِي السـ وَءِ فِي فُسْطَاطِنَا عَجَبَا

(١) ابن سريج والدلال والغريض من مشاهير المغنين بالحجاز في عهد بني أمية .

(٢) الهربد : خادم النار عند الجوس ، وخادم بيت النار عند الهنود .

يَظُلُّ نَهَارَهُ يَقْضِي بَغَيْرِ الْعَدْلِ مُنْتَقِبًا
وَيَسْهَرُ لَيْلَهُ لِسَمَاءٍ عِثَّ الْقَيْنَاتِ وَالطَّرْبَا
وَيَشْرِبُهَا مُعْتَقَّةً عُقَارًا تُشْبِهُ الذَّهْبَا
وَيَعْجِبُهُ سَمَاعُ الْعُورِ دِ الْمِزْمَارِ ، يَا عَجْبَا !
فِيَا لِلنَّاسِ مِنْ قَاضٍ يَحِبُّ اللَّهُو وَاللَّعْبَا !

وأبي العلي الطائي إلا أن يشارك في الحملة على القاضي العمري ، وأن يخرج
وأن يجعل مصيره إلى النار ، وذلك كله في شعر سهل يشبه الحديث في تدفقه
وسهولته ، ولكنه قوى بما فيه من التهم القاسي ، والإخراج الفحيم ، إذ يقول
للقاضى :

كَمْ ، كَمْ تَطُولُ فِي قِرَائَتِكَ وَالْجَوْرُ يُضْحِكُ مِنْ صَلَاتِكَ^(١)
تَقْضِي نَهَارَكَ بِالْهَوَى وَتَبِيتُ بَيْنَ مُغْنِيَاتِكَ
فَأَشْرَبَ عَلَى صَرْفِ الزَّمَا نَ بِمَا ارْتَشَيْتَ مِنَ الْخَوَاتِكَ
إِنْ كُنْتَ قَدْ أَلْحَقْتَهُمْ عَرَبًا فزَوْجُهُمْ بَنَاتِكَ
وَلْتَكْشِفْنِ بِمَا أَتَيْتِ تَصْدُورُ قَوْمٍ مِنْ مَسَاتِكَ^(٢)
وَكَأَنِّي بِنِيَّةٍ تَسْمَعِي إِلَيْهِ كَ بِكَفِّ فَاتِكَ
لَا تَعْجَلْنَ أَبَا النَّدَى حَتَّى تَصِيرَ إِلَى وَفَاتِكَ
إِنْ الْمَقَامُ تَطْلَعُ نَ مِنَ الْجَحِيمِ إِلَى مَمَاتِكَ
بَلْ لَوْ مَلَكَتْ لِسَانِي أَكْ ثُمَّ مَا وَصَلْتُ إِلَى صِفَاتِكَ

وقد ناله من الهجاء في هذه القضية ما كشف عن سيئاته ، فشبهه الشعراء

(١) قرأتك : قراءتك .

(٢) مساتك : مساءتك .

بأبي الندى الذى كان قاطع طريق فى أيامه ، وأعلنوا ما عرفوه عنه من لهو وحب للغناء والشراب . وشكاه أهل مصر إلى الرشيد كى يعزله فأبى وقال : ليس عندى من ولد عمر بن الخطاب غيره . ولولا ذلك لعزله .

قضية السباق : أو ، الزعفران وجناح ،^(١)

وتلك قضية أخرى كان العمرى قاضياً فيها ، ولم يوفق فى حكمه ، وأثار عليه ثائرة الشاعر الخولانى . أما أصل هذه القضية فهو سباق بين فرسين ، أحدهما لمراد ويسمى الزعفران ، والثانى لِيَحْصُبُ ويسمى الجناح . وقد اتفقت مراد ويحصب على أن يتسابق الفرسان ، ومن سبق فرسه أخذ الاثنين . وجعلا للسباق غاية فخرجوا ، وخرج عامة مصر معهم ، فسبق فرس مراد ، حتى كاد يدخل الغاية ، فخرجت يحصب فضربت وجه الزعفران حتى تحير ، وسعد الجناح ، فرس يحصب ، فدخل الغاية . فاقتتلوا ، وانضم مع كل فريق منهم طائفة من الناس ، وركب الأمير ليث بن الفضل يحجز بينهم ، ورد الأمر إلى العمرى لينظر فيه ، فأنته يحصب بأموال عظيمة ، فحكم لهم بالفرس ، ودفع إليهم الزعفران ، وقضى لهم به . ولم يفت يحى الخولانى أن يسجل ذلك فى شعره فقال :

فكم يد لبني زَوْف وإخوتهم فى آلِ فَهْرٍ تَغْصُ الشَّيْخُ بِالرِّيقِ
إن حاكمُ عُمَيْرٍ جارٍ فى فرس فسوف يُرجعه عدلُ ابنِ صديق

والبيت الأخير يرجح أن هذه الأبيات قيلت بعد عزل العمرى ، أو عند إشاعة عزله . وأن القصة نفسها كانت فى آخر أيامه ، وما أشبهها بقصة داحس والغبراء وكأنها صورة منها ؛ لولا انتهاء الخصومة هنا برد الفرسان إلى أصحابه لما تولى القاضى البكرى .

وكان ليحيى الخولاني خصم في هذه المرة يدفع عن القاضي العمري ، وهو شاعر يسمى عبد الله التجيبي ، من نسل معاوية بن حديج . قال ليحيى يدافع عن يَحْصِب ، ويتوعد مراد :

طلبت فلم تَأَلُ حَسَنَ الطَّلَبِ ورُمْتَ عَظِيماً ولما تُصَبِّ
وعوات مَوْتاً على رَمِيهِم بقوس الضلال ونَبْلُ الكَذِبِ
فإن كان في فَرَسٍ عَتَبَكُمْ فعندى لكم فرس من قَصَبِ
وإلا فَمُهْرٌ كَرِيمٌ النَجَارِ قليلُ العظام كثيرُ العَصَبِ

فرد عليه يحيى بشعر فيه معنى الدفاع القضاى أو المحاورة بين الشعارين :

ألا أيها الشاعرُ المنتدَبُ يحامى عن العُمَرَى العَطَبُ
ورأى مرادٍ وَخَوْلاً لَهَا بنبل من الجَهلِ غيرِ الصَّيْبِ
«فما» أنقص العُمَرَى بامرئٍ من الناس إلا كريمَ الحَسَبِ^(١)
ملا الأرض جوراً بأحكامه وأظهر فيها جميع الرَّيْبِ

وترى في هذه القصيدة والتي قبلها روح العصبية الجاهلية ، والدفاع عن القبيلة .

وأشار الفضل بن الربيع وزير الأمين بعزله سنة ١٩٤ هـ فعزله الأمين ، بعد أن ولى هذا المنصب تسع سنين . وقال رجل من أهل مصر :

بمحمد الله ورأى الفضل نُحَيِّ عن الحكم عَدُوَّ العَدْلِ
هذا يسوارُ لرسولِ العَزَلِ

(١) رويت كلمة « لعمرك » في أول البيت وبها ينكسر الوزن . الصيب : جمع صيوب وهو الذى لا يخطئ الهدف .

القاضي البكري :

ووليها بعده رجل من ذرية أبي بكر الصديق يسمى « هاشم بن أبي بكر البكري » في جمادى الآخرة سنة ١٩٤ ، وكان من أهل الكوفة يذهب بمذهب أبي حنيفة .

ونقض ما فعله العمري في أهل الحرس ، وما قضى به في قضية الفرس ، وحبسه ومعه جماعة من أعوانه ، وطالبه بما صار إليه من الأموال . ولكن العمري هرب من السجن ، وشيعة يحيى الخولاني بالبيتين الآتين :

هرب الخائن ليلاً فجَنَحَ وأتى أمراً قبيحاً فافتَسَحَ
هاربٌ تحمله ناجية يصل الإدلاج عدواً بالروحِ

وكان هذين البيتين أول القصيدة التي تقدمت منها أبيات في أول الحديث عن القاضي العمري ، فالقائل واحد ، وكذلك البحر والقافية ، والغرض الذي قيل فيه الشعر وهذا بدء بلا تمهيد ، تحدث فيه في الموضوع ، من غير أن يقدم لذلك بمقدمة من المقدمات التقليدية .

وهرب العمري من السجن ليلاً ، وذهب إلى مدين حيث أمواله ، فأخذها وسار حتى بلغ « فَيْدَ » فلقبه قوم من أسد وطى فأوقعوا به ، وأخذوا جميع ماله ، فما تخلص منهم إلا بحشاشة نفسه ، قال يحيى :

إن يكن أفلتَ منا سَالِماً يوم ولى مسرعاً حين هرب
فلقد وافى بِفَيْدٍ عَصَبَةٍ يسعون الحرب حتى تلهب

وقال طاهر القيسي لأبي رَحْبٍ^(١) ، وهو الذي أشار على البكري بحبس

القاضي العمري :

ولقد كسوت أبا الفدى بفعاله حَرَبًا يُلَوِّحُ قَنَاعُهُ الْمُتَقَشِّبُ
 وزحمته لما تَحْمَطُ ، زحمةً ضاقت عليه بها العراق ويثرب^(١)
 ونجا ، لخوفك ، هاربا بخزاية وأخو الخزاية والشرارة يُغْلَبُ^(٢)
 وأوفد أبو رحب وهاشم بن حديج ، وفداً من أهل مصر إلى الأمين فأتاروا قضية
 الحرس ، فكتب الأمين إلى البكرى يأمره بردهم إلى ما كانوا عليه من أنسابهم .
القضية عند البكرى :

ودعا البكرى أهل الحرس أن يجيئوا بقضية العمرى لهم ، فأتوها ، وتوهوا أنه
 يزيدهم شهوداً ، فأخرج البكرى كتاباً من تحت مصلاة نقض به قضية العمرى
 فقال معلى الطائي^(٣) :

يا بني البظراء موتوا كذا واسخنوا عينا بتخريق السَّجِيلِ
 لو أراد الله أن يجعلكم من بني العباس طراً لفَعَلَ
 لكن الرحمن قد صَيَّركم قبط مصر ، ومن القبط سَفَلَ

وقيل إن البكرى أثار قضيتهم من جديد . وحضر من أهل مصر عبد الله
 ابن وهب ، وسعد بن أبي مريم ، وسعيد بن عفير ، وناس كثير من أهل القنعة
 والعدالة ، فشهدوا عند البكرى أن أهل الحرس من القبط ، وأن العمرى قضى
 فيهم بجور ، فنقض البكرى قضية العمرى فيهم وأشهد على قضائه بردهم إلى أصلهم
 من القبط .

قال يحيى الخولاني^(٤) :

اشكروا الله على إحسانه فله الحمد جميعاً والرَّغْبُ^(٥)

(١) تخمط : تسكب . (٢) الشرارة : الشر .

(٣) الكندى س ٤١٤ (٤) الكندى س ٤١٥

(٥) الرغب : جمع رغبة ، وهى الضراعة .

رجع القبط إلى أصلهم بعد خزي طوقه وتعب
ودنانير رشوها قاضياً جأراً قد كان فينا يقتصب
أخذ الأموال منهم خدعة وتولى عنهم ثم هرب
أبلغ البكرى عنى أنه عادل في الحكم فرّاج الكُرب
قد أمت الجور فينا والرُشا وأشاع العدل فينا فرتب
إنه قد كان يقضى بالهوى ويبيع الحكم جوراً ويهب
وإذا يخالو حساها مُرّة مثل عين الديك من ماء العنب
فأتت كالشمس إلا أنها كسيت في دنها لون ذهب
ما كفته رِشوة ظاهرة وقضايا جوركم^(١) فيها عجب
أن أتى أعظم ما يأتي به أحد أن صير القبط عرب
وقال طاهر القيسي لأبي رجب الذي كان زعيماً في الثورة على اتساب أهل
الحرس إلى العرب^(٢) :

ولقد قمت بنى الخبائث عندما راموا العلا وتحوتكوا وتعربوا
فرددتهم قبطاً إلى آبائهم ونسيب أصلهم الذي قد غيبوا
وتركتهم مثلاً لكل ملصق نسباً ، إذا التقت المحافل يُضرب
وتنتهى هذه القضية بعد أن تركت للقاضي العمري ذكرى في الشعر العربي
لا ترضيه .

وفرض ابن لهيعة فروضاً للمطوعين الذين كانوا يعمرون المواخير . وصارت سنة

(١) لعلها « جوره » . (٢) الكندى ص ٤١٥ .

بعده ، وسماها الناس فروض لجمعية ، فقال فراس المرادي ^(١) :

لعمري لقد سارت فروضٌ لجمعية	إلى بلد قد كاد يهلكُ صاحبه
إلى بلد تُقَرى به اليوم والصدى	تعاوره الرومُ الطعامُ تحاربه
رشيدٌ وإخنا والبرلس كلها	ودمياط والأشتموم تقوى يغالبه
لجميع ، لقد حزت المكارم والثنا	ومن عند ربى فضله ومواهبه
فقد عُمِرَت تلك الثغور بسنة	تعدُّ إذا عُدَّت هناك مناقبه

وقدم المطلب الخزاعي فعزل لجمعية عن القضاء في شهر ربيع الأول سنة ١٩٨
ثم ولاه ثانية في المحرم سنة ١٩٩ فاستكتب سعيد بن تليد المصري ^(٢) .

وقال أبو شبيب أنيس بن دارم مولى نجيب في صحابة لجمعية :

قَبَحَ اللَّهُ زَمَانَا	رَأَسَ فِيهِ ابْنُ تَلِيدٍ
بَعْدَ مِقْرَاضٍ وَخِيطٍ	وَأَبْيرَاتٍ حَدِيدٍ
وَأَبُو الزُّبَيْعِ خَنْدٍ	سَاقُ غِرَامِيلِ الْعَبِيدِ
بَعْدَ سَيْفٍ خَشْبِيٍّ	وَسَهَامٍ مِنْ حَدِيدٍ
وَأَبُو الرُّوسِ الْمَرِيَسِ	يُؤْنِسُ ابْنَ دَبَاغِ الْجُلُودِ

وَاللَّقِيطُ ابْنُ بُكَيْرٍ	نَطَقَةَ الْفَدَمُ الطَّرِيدِ
وَابْنُ سَهْمٍ حَارِسُ الْجِ	يَزِيدُ حُلُوفِ الْبَرِيدِ
عَصْبَةُ مِنْ طِينَةِ النَّيْبِ	لِمْنَاسِي الْجُدُودِ
لَيْسُوا بَعْدَ التَّبَايِبِ	مِنْ نَفِيسَاتِ الْبُرُودِ ^(٣)

(١) ص ٤١٩ والمواخير يقصد بها الثغور .

(٢) ص ٤٢٣ .

(٣) التباين = السراويل القصيرة جدا ، والبرود = الثياب الموشاة .

لازموا المسجد ضلًّا لا من الأمر الرشيد
لحوانيتَ بَنَوْهَا بيفنا كل عمود
وتسمَّوا وتكنَّوا بعد جرحه وشنود
والأحوا يجباه من نطاح الحُصْر سُود
تحت أميال طوال كبراطيل اليهود^(١)
نصبوها كالقناع يد على رؤوس القروء
وتراهم للوصايا وعدالات الشهود
في مرآء وجدال وقيام وقعود
وخشوع وابتهاال وركوع وسجود
وعلى القسمة أضزى من تماسيح الصعبد
وأشاروا للهدايا بأبي عبد الحميد

وانظر إلى ما في هذه القصيدة من قوة في التصوير والتهمك ، وما كان يراه
العرب من فرق بينهم وبين غيرهم ، ورأى هؤلاء في اللحاق بالعرب لتكون لهم
مثل منزلتهم .

وولى قضاء مصر تسعة رجال من حضرموت آخرهم لهيعة ، وكان هناك ولاية
آخرون في الأندلس وفلسطين وبرقة الخ ، فقال الشاعر في هؤلاء الحضارمة^(٢) :
ما من بلاد من البلدان نعلمه إلا وفيه من الأشياخ والحدث
قضاة عدل لهم فضل ومعرفة مبرءون من الآفات والرفث

(١) الأميال = أنواع من العمام ، والبراطيل = القلائس ، والمقصود أن أغطية الرأس

عالية كبيرة .

(٢) الكندي ٤٢٥ .

وقال آخر :

لقد وَلَّى القضاء بكل أرض
رجالٌ ليس مثلهم رجال
من البُغْرِ الحضارمة الكرام
من الصيد الجَحَا حجة الضخام
وقال يزيد بن مِقْسَم الصدفي :
يا حُزْموت هنيئاً ما خُصِصْتَ به
من الحكومة بين العُجَم والعرب
في الجاهلية والإسلام يعرفه
أهل الرواية والتفتيش والطلب

وكان بعض القضاة يروى رقيق الشعر ، وكان فيهم شعراء . وهذا قاض منهم واضح الصبابة ، أو جيد التقليد ، وهو هرون بن عبد الله ، الذي ولي القضاء من قبل المأمون سنة ٢١٧ ، وكان من خير القضاة وأحسنهم إشرافاً ، وأدقهم مباشرة لما يليه ، ويروى عنه أنه أنشد عبد الملك بن عبد العزيز بن الماجشون ^(١) .

ولما رأيت البينَ منها فجاءة وأهونُ للمكروه أن يُتَوَقَّعَا
ولم يبق إلا أن تودع ظاعن مقبلاً ، وَيَذْرى عبْرَةً أن تُودَّعَا
نظرت إليها نظرة فرأيتها وقد أبرزت من جانب الخدر إصبعا
وأخبره أن قابلها رجل قرشي . فقال ابن الماجشون أحسن والله . فقال هرون : أنا والله قلبها في طريق سرتها إليك . قال : قد والله عرفت الضعف فيها حين أنشدتني !

ويذكرنا هذا بما رواه القاضي الجرجاني ^(٢) من أن إسحاق الموصلي أنشد الأعمى شعراً نسبته إلى الجاهلية فأبدى إعجابه به ، فقال له الموصلي : إنهما ليليتهما . فقال الأعمى : لا عجب ؛ والله إن أثر التكلف فيهما ظاهر . وذلك تعصب منه للقديم مصدره الهوى لا الذوق ولا العقل .

(١) الكندي ص ٤٤٨ .

(٢) الوساطة ص ٢٣ .

الشعر في خلق القرآن والخلافات المذهبية :

وولى القضاء محمد بن أبى الليث من قبل المعتصم سنة ٢٢٣ . وكان مقبلاً بها من سنة ٢٠٥ ، وفقها بمذهب الكوفيين — كان حنفياً — وفى أيام الواثق أمر بامتحان الناس بخلق القرآن ، واشتد فى ذلك ، وأمر أن يكتب على باب المساجد : لا إله إلا الله رب القرآن المخلوق . ومنع الفقهاء من أصحاب مالك والشافعى من الجلوس فى المسجد وأمرهم ألا يقربوه . ومن امتحن بذلك هرون بن عبد الله .

قال الحسين بن عبد السلام الجمل^(١) لمحمد بن أبى الليث : وكأنه يستعرض أعماله أو يسجل حوادثه وأخباره فى ميدان الصراع المذهبى والفقهى ويمدحه بالبشاشة والساحة ، والعلم النافع . وكان ابن أبى الليث حنفياً متعصباً لمذهبه ، فخذ الحسين بن عبد السلام عمله فى محاربة مخالفيه ، والتشهير بمن قال بغير رأيه أو مذهبه :

وُلِّيتَ حَكَمَ الْمُسْلِمِينَ فَلَمْ تَكُنْ	بَرَمَ اللَّقَاءَ وَلَا بِفَقْطٍ أَزُورُ
وَلَقَدْ بَجَسْتَ الْعِلْمَ فِي طُلَابِهِ	وَفَجَرْتَ مِنْهُ مَنَابِعًا لَمْ تُفْجِرْ
فَحَمِيتَ قَوْلَ أَبِي حَنِيفَةَ بِالْهَدَى	وَمُحَمَّدَ وَالْيُوسُفِي الْأَذْكَرَ
وَفُتِّي أَبِي لَيْلَى وَقَوْلَ قَرِيعِهِمْ	زَفَرَ الْقِيَاسَ أَخِي الْحُجَّاجَ الْأَنْظَرَ

وَحَطَمْتَ قَوْلَ الشَّافِعِيِّ وَصَحْبِهِ	وَمَقَالَهُ ابْنِ عُلَيَّةٍ لَمْ تُصَحِّرْ
أَزَقْتَ قَوْلَهُمُ الْحَصِيرَ فَلَمْ يَجْزِ	عَرَضَ الْحَصِيرَ فَإِنْ بَدَا لَكَ فَاشْبِرْ
وَالْمَالِكِيَّةَ بَعْدَ ذِكْرِ شَائِعِ	أَخْلَتَهَا فَكَأَنَّهَا لَمْ تَذْكَرْ

أين ابن هرمز أوربيعة لا يرى
كسرتة، فهوى، رأيك كسرة
أعطتك السنة أئتاك ضميرها
فأطفت بالأيلى ينطق صائحا
ومحمد الحكيم أنت أطفقه
كل ينادى بالقرآن وخلقه
لم ترض أن نطق بها أفواههم
لما أريتهم الردى متصورا
ماذا تقول بالقول الأجور
لبثت على قدم المدى لم تجبر
وأنتك السنة بما لم تضمير
في كل مجمع مشهد أو محضر
وأخاه ينطق بالصياح الأجر^(١)
فشهرتهم بمقالة لم تشهر
حتى المساجد خلقه لم تُنكر
زعموا بأن الله غير مصور

واشتدت الحنة، فهرب بعض الناس، واختفى بعضهم، مثل يوسف بن أبى طيبة،
وأحمد بن صالح، ومحمد بن سالم القطان، وأبو يحيى الوقار، وهرب ذو النون بن
إبراهيم الإخميمي، ورأى أن يرجع فوقع في يده؛ قال الجمل:

أحجرت يوسف في خزانة بيته
أخليت من عمر الزناء مقامه
وكفرتك الأرضون حين سألها
جحدتك أقطار البلاد فما على
وثوى ابن سالم خفية في بيته
فأقنى به كفر يج أو كآبى الندى
فطوته عنك وطالما لم يُجحر
وعمرت منه مداخلا لم تعمر
خبر ابن صالح الخبيث الأكر
حركته وسكوته من مظهر
ثم امتطى غلس الظلام الأستر
والناس بين مهلل ومكبر

(١) أخرج الأيلى من المسجد وعمامته في رقبته، ومطر غلام ابن أبى الليث يسوقه،
وهو ينادى بخلق القرآن، وفعل مثل ذلك بمحمد بن عبد الله بن الحكم. ولما هم مطر بتناول
قلنسوته بادر فأخذها فجعلها في كفه. الكندى ص ٤٥٢ — ٤٥٣.

وكذلك داود بن حماد اختفى
 أسقى على شيطانه إذ أفلتت
 ألا أرى مطرا يطوف بنصفها
 والنصف عند مخلق ومقصر
 وطالب ابن أبي الليث يونس بن عبد الأعلى بأموال كانت عنده ، وقال الجمل
 بمحمد له ذلك ويذكر حرصه على الأموال العامة .

ودعوت أصحاب الوصايا بالذي
 فأتاك من خشى العقاب بماله
 فجعلت أطباق السجون بيوتهم
 وثنيت وحدتهم بيونس مؤنسا
 طرحوا لها الأموال خلف ظهورهم
 أرضى لهم ضحك السجون وضيقها
 لم يشيع الثلثان جوع بطونهم
 فكأنني بك قد حشوت ببعضهم
 قعدوا عليه من التراث الأوفر
 وطوى الوصية كل عود مجسر
 لا يأنسون بمقبل أو مدبر
 وفتى أبي عون الخثون الأكبر
 ولقوا السجون بعقدة وتبصر
 ولجأ رأيك في الألد الأنغر
 حتى غشوا ثلث الضعيف الأفقر
 وعمر السجون وكل حبس أقدر

ابن القطاس وابن أبي الليث :

وكان سعيد بن زياد الملقب بابن القطاس ، يتنقص ابن أبي الليث ويتكلم
 في المسجد بالطعن فيه ، والدعاء عليه ، فاستدعاه فأنكر ، وأتى إلى ابن
 أبي الليث رجل فأخبره أن ابن القطاس مملوك لم يجر عليه عتق ، وشهد
 اليهود بذلك ، وادعى رقبته رجل من الأزد ، يقال له ابن الأبرش ، فحبسه القاضي
 خمسة أيام ، ثم حكم بشهادة اليهود ، وأمر به فنودى عليه ، فبلغ ديناراً ، فاشتراه
 محمد بن أبي الليث ثم أعتقه ، فقال الجمل :

وبطشت بالقَطُوس بطشة قائم بالحق غير مُقَصَّر ومبذر
ما زلت تفحص عن أمور شهوده في السر والعلن المبين الأظهر
فربطته في رِقْمِه ومنعته يطاء الحرائر وهو غير مُحَرَّر

ابن الليث والعمائم العالية :

وكان زى أهل مصر ؛ وجمال شيوخهم وأهل الفقه والعدالة منهم ، لباس^(١)
القلانس الطوال ، وكانوا يبالغون فيها . وأشار ابن دارم إلى ذلك في قوله :
تحت أميال طوال كبراطيل اليهود
فأمرهم ابن أبي الليث بتركها ومنعهم لباسها ونهاهم أن يتشبهوا بلباس القاضي
وزيه ، فلم ينتهوا ، فجلس ابن أبي الليث في مجلس حكمه في المسجد ، واجتمع
أولئك الشيوخ عليهم القلانس ، فأقبل عبد الغنى ومطر : فضربا رءوس الشيوخ
حتى القوا قلانسهم . ولعب بها الصبيان والرعا ، وكانوا بعد ذلك لا يدخلون إلى
ابن أبي الليث ولا يحضرون مجلسه في قلنسوة :

وأنشد اسماعيل بن اسحاق بن ابراهيم بن تميم ، من شعر الجمل في هذا :
وأخفت أيام الطوال وأهلها فرموا بكل طويلة لم تقصُر
ما زلت تأخذهم بطرح طوالهم والمشي نحوك بالرءوس الحُسُر
حتى تركتهم يروُن لباسها بعد الجمال خطيئة لم تغفر
يتفزعون بكل قطعة خرقة يجدونها من أعين ومُخَبِّر
فإذا خلا بهم المكان مشوا بها وتأبطوها في المكان الأعمَر

(١) وهي التي أمر بلبسها يحيى بن داود الحرسى والى مصر سنة ١٦٥ . (الكندى ص ١٢٣) وقد أخذ الفقهاء والأشراف بلبس القلانس الطوال في الدخول بها على السلطان يوم الاثنين والخميس .

فلئن ذعرت طواهم فلطالما
كانوا إذا دلفوا بهن لفضل
كم موسر أفقرته ومفقر
ما إن عليك لقيت منهم واحداً
لبسوا الطوال لكل يوم شهادة
مالى أراهم مطرقين كأنما
ذعرت ، ومن برؤاها لم يذعر
أمضى عليه من الوشيج الأسمر
أغنيته من بعد جهد مفقر
وإني العجاج مدججاً في مفقر
ولقوا القضاة بمشية وتبختر
درفت رءوسهم بحمى خير

وتوقف النيل فاستسقى أهل مصر ، وحضر ابن أبي الليث معهم ، فوثب
المصريون ، وأخذوا قلنسوته فلبعوا بها ، بعد ما آذى قلانسهم ^(١) .
ولما عزل ترك الكثير منهم لبس القلانس وكأنهم قد تعودوا هذا .

وقد تجدد في هذه القصيدة ميلا إلى تكلف الاستعارات ، وضعف التأليف ،
واجتلاب الكلمات التي تتم بها القافية ، ولكن طبيعة الموضوع رغم الشاعر
على هذا ، فالتسجيل والسرد من عمل المؤرخ لا الشاعر ، والجل قد جعل من
نفسه مؤرخاً ومحامياً ، ولكنه استطاع أن يجيد في كثير من الأبيات :

وكان رجل يسمى يحيى بن زكريا ، مولى كندة ، يجلس في المسجد فيخبر بعزل
محمد بن أبي الليث ويشنع عليه فأرسل إليه ابن أبي الليث فلم يكف ، فضر به وحبسه
حيناً ، قال الجمل :

كم يعزلونك من يوم ويكذبهم
سيعلمون من العزول عندهم
هيهات ! منتهم الآمال باطلها
أما قضاياكم فيهم فعملة
حمل القمطر فما انحاشوا وما وكلوا
أنت أم هم ، إذا فاتهم الأكل
وأى مستضعف لم يخدع الأمل
ما إن لإرجافهم من فسخها عمل

يا أوجهها لهم ، ما كان أصفقهها من أوجهه ! كيف لا يثنى عليهم الخجل !
قالوا عزلت ، وما يدرون أنهم عن الشهادات والزور الذى عزلوا

وترى أن هذا الشعر كله لم يخل من إشارات ودلالات اجتماعية تبين بعض أخلاق الناس أو عاداتهم كقصيدة أنيس بن دارم التى تشير إلى قوة العنصرية فى مصر بين طبقتين من المسلمين ، إحداها عربية ، والثانية مصرية .

فى قصيدته^(١) الدالية ذم لأصحاب القاضى ابن لهيعة من المصريين ، وعلى رأسهم ابن تليد . وفيها أن الأسماء والسكنى يجب أن تكون وفقاً على العرب لأنها للرفعة . ونفهم من شعر يحيى الخولانى أن اللهو كان معروفاً ، وكان فى الحاضرة شراب وغناء ، وأن بعض القضاة كان يسمع الغناء ، ويركب إلى الملامى علناً فى جماعة من أصحابه ، وأن الرشوة كانت شائعة فى أتباع القاضى وكتابه ، وأن العرب أبوا أن يشاركونهم مسلمو مصر فى الانتساب لأنهم أقل منهم قدراً .

فلما وصل القبط إلى ذلك سخط العرب واثرت ثأرتهم على القاضى العمرى ، ولم يسكتوا حتى رفض القاضى البكرى ما فعله القاضى العمرى ، وأخرجهم من نسبهم العربى .

وفى قصيدة الحسين بن عبد السلام الجمل^(٢) ، وأنيس بن دارم دلالة على أن ملابس الرأس كانت عمام عالية ، ثم حاربها القاضى ابن أبى الليث حتى قضى عليها سنة ٣٢٠ . وفى قصيدة الحسين أيضاً صورة عنيفة من الخلافات المذهبية والدينية . وفى شعر إسحاق بن معاذ أن المفضل بن فضاله كان قاضياً « له شعر طويل مرجل » .

ولو جاءنا كثير من هذا الشعر لكانت دلالاته أقوى وفائدة التاريخ منه أعظم .

الفصل التاسع

الشعراء في عهد العباسيين

(١) شعراء مصر :

أما شعراء مصر في هذه الفترة فلم يكن عددهم كثيراً ، ولا كان الشعر عملهم إذا استثنينا المَعْلَى والحسين بن عبد السلام الجمل . لكن الشعر الباقي لنا يدل على استعداد قيم ، وعلى مواهب لوقيض لها من يشجعها أو انصرف أصحابها إلى ترقيةها لأبدعوا وأجادوا ، كإسحاق بن معاذ بن مجاهد بن خير ، ويحيى الخولاني . وأشهر هؤلاء الشعراء سعيد بن عفير ، والمعلّى الطائي ، والحسين بن عبد السلام الجمل .

١ — سعيد بن كثير بن عفير : (١٤٦ — ٢٢٦ هـ)

أول شعراء هذا العصر ، وهو رجل متعدد النواحي إذ كان فقيهاً ومحدثاً وكاتب قضاء ، كما كان شاعراً راوية للأدب ، عالماً بالأنساب والأخبار ، وأيام العرب ومآثرها ووقائعها ، والمناقب والمثالب ، وكان في ذلك كله شيئاً عجباً^(١) . أما شعره فيمتاز بالصدق والصراحة ، والبعد عن الزلفي . وفيه النقد الحر للوالى . وقد تقدم أكثر شعره الذي جاء به الكندي . وأول ما روى له من الشعر متصل بسنة ١٦٨ هـ ، وآخر ما روى له كان في سنة ٢٠٩ . وقد يبدو في

شعره أثر العصبية والميل إلى قحطان وإلى قضاة ، وشعره في جملة جيد الأسلوب صادق المعنى .

٢ — المعلّى الطائى :

عاش المعلّى وسعيد بن عفير زمنا . والأشعار التى رواها الكندى له تمتد من سنة ١٩٤ — ٢١٤ هـ . وقد شغلا شعرهما بالأخبار والحوادث ، أو رجال الدولة وأعمالهم ، أو بالسياسة وتطورها ، ولكن اختلفت طباعهما وثقافتهما وصلتهما بالولاة ، ويظهر أن المعلّى كان أقربهما إلى الشعر ، وأكثرهما تجويداً له وعناية به ، كما كان أصغرهما سناً .

وللمعلّى الطائى شعر فى غير الكندى . فقد روى له الأغاني بيتين^(١) فى الدعوة إلى الصبّوح صبيحة النيروز ، وفى تبسم الربيع عن نواره . وروى له قصيدة فى مدح عبد الله بن طاهر والاعتذار إليه بعد تغلبه على ابن السرى^(٢) .

وقصة هذا المدح أنه لما فتح ابن طاهر مصر « سوغه المأمون خراجها ، فصعد المنبر ، فلم يزل حتى أجاز بها كلها ثلاثة آلاف دينار أو نحوها ؛ فأتاه معلّى الطائى ، وقد أعلموه ما صنع عبد الله بن طاهر بالناس فى الجواز ، وكان عليه واجداً ، فوقف بين يديه تحت المنبر فقال : أصلح الله الأمير . أنا مُعلّى الطائى ، وقد بلغ منى ما كان منك من جفاء وغلظ ، فلا يغلظنّ على قلبك ، ولا يستخفنك الذى بلغك . أنا الذى أقول :

يا أعظم الناس عفوا عند مقدرة	وأظلم الناس ، عند الجود ، للمال
لو أصبح النيلُ يجرى ماؤه ذهباً	لما أشرّتْ إلى خزنٍ بمثقال
تغلى بما فيه رِقّ الحمد تملكه	وليس شيء أعاضَ الحمدَ بالغالى

تَفُكْ باليسر كَفَّ العسر من زمن
لم تَحُلْ كَفْكَ من جُودٍ مُخْتَبِطٍ
وما بَثَّتْ رَعِيلَ الخيل في بلد
إن كنتُ منك على بالٍ مننتَ به
مازلتُ مقتَضِباً لولا مجاهرة
من ألسِن خُضْنٍ في صدري بأقوال
قال : فضحك عبد الله ، وُسْرًا بما كان منه ، وقال : يا أبا السمراء . أقرضني
عشرة آلاف دينار ؛ فما أمسيت أملكها . فأقرضه ، فدفعها إلى .

وهذا من جيد المدح لحسن السبك ولطف المعاني .

واستدل بعض المؤرخين بهذا المدح على أن المعلي كان متنقلاً في ولائه ، وأنه
كان متكسباً بشعره . ولكن ذلك كان شائعاً في أكثر الشعراء . فكيف يؤخذ
المعلي وحده بذنبه ؟ أما ابن طاهر فكان سخياً ، سريع العفو عنه ؛ لما كان يعرفه
عن الشعراء من ولاء متنقل ، وإخلاص لمنصب الوالي وعطائه ، ولما فيه من ذوق
رقيق وحس مرهف يتأثر بهذا البيان القوي ، والشعر السائر .

وروى ابن عبد ربّه خبر رثاء المعلي لجاريته ، فقال ^(١) :

« كان لمعلي الطائي جارية يقال لها « وصف » وكانت أديبة شاعرة . فأخبرني
محمد بن وضاح قال : أدركت معلي الطائي بمصر وأعطى بجاريته « وصف »
أربعة آلاف دينار فباعها ، فلما دخل عليها قالت له : بعتنى يا معلي ؟ قال نعم .
قالت : والله لو ملكت منك مثل ما تملك منى ما بعتهك بالدنيا وما فيها ! فرد الدنانير

(١) العقد الفريد ص ١٨٩

واستقال صاحبه . فأصيب بها بعد ثمانية أيام . فقال يرثيها :

ياموت كيف سلبتني « وصفا » قَدَّمَتْهَا وَتَرَكْتَنِي خَلْفًا
هلا ذهبت بنا معاً ، فلقد
وأخذت شق النفس من بدني
فعليك بالباقي بلا أجل
ياموت ما بقيت لي أحداً
هلا رحمت شباب غانية
ورحمت عيني ظبية جعلت
تُغَضِّي إذا انتصفت مرابضه
فإذا مشى اختلفت قوائمه
متحيراً في المشي مرتعشاً
فكانها « وصف » إذا جعلت
ياموت أنت كذا لكل أخى
خليتني فردا وبنيت بها
فتركتها بالرغم في جدث
دون المقطم لا يلبسها

قَدَّمَتْهَا وَتَرَكْتَنِي خَلْفًا
ظَفِرَتْ يَدَاكَ ، فَسَمَّيْتَنِي خَسْفًا
فَقَبْرَتَهُ ، وَتَرَكْتَ لِي النِّصْفَا
فَلَمُوتٍ بَعْدَ وَفَاتِهَا أَعْنَى
لَمَّا رَفَعْتَ إِلَى الْبَلَى « وَصَفَا »
رَبَّيَا الْعِظَامِ وَشَعْرَهَا الْوَحْفَا^(١)
بَيْنَ الرِّيَاضِ تَنَاضُرِ الْحُسْفَا^(٢)
وَتَظْلِلُ تَرَعَاهُ إِذَا أَعْنَى
وَقْتُ الرِّضَاعِ فَيَنْطَوِي ضَعْفَا
يَخْطُو فَيَضْرِبُ ظِلْفُهُ الظِّلْفَا
نَحْوَى نُحَيْرٍ مُحَاجِرَا وَطُفَا^(٣)
إِلْفٍ يَصُوتُ بِيْرِهِ الْإِلْفَا
مَا كُنْتُ قَبْلَكَ حَامِلَا وَكُفَا^(٤)
لِلرِّيحِ تَنْسِفُ رَبَّهَ نَسْفَا
فِي زِينَةٍ قُلُوبَا وَلَا شَنْفَا^(٥)

(١) الوحف : الكثير الأسود .

(٢) الحشف : بفتح الحاء وكسر ها : ولد الظبي أول ما يولد ، أو أول مشيه .

(٣) شعر أجفانها كثير : جمع وطفاء .

(٤) الوكف : الضعف ، والثقل ، والشدة .

(٥) القلب سوار المرأة . الشنف : ما يعلق في أعلى الأذن كالقِرط .

أَسْكَنْتَهَا فِي قَعْرِ مَظْلَمَةٍ يَتَّى يَصَافِحَ تَرْبُهُ السَّقْفَا
يَتَّى إِذَا مَازَارَهُ أَحَدٌ عَصَفَتْ بِهِ أَيْدَى الْبَلَى عَصْفَا
لَا نَلْتَقِي أَبَدًا مَعَايِنَةً حَتَّى تَقُومَ لِرَبِّنَا صَفًّا
الْبَسْتُ ثِيَابَ الْحَتَفِ جَارِيَةً قَدْ كُنْتُ أَلْبَسُ دُونَهَا الْحَتْفَا
فَكَأَنَّهَا وَالنَفْسَ زَاهِقَةً غَصَنَ مِنَ الرِّيحَانِ قَدْ جَفَّا
يَا قَبْرَ أَبِيقَ عَلَى مُحَاسِنِهَا فَلَقَدْ حَوَيْتَ الْبِرَّ وَالظَّرْفَا

والقدمة التي جاء بها ابن عبد ربه تثير العطف والإشفاق على تلك الجارية الضعيفة الحيلة ، مع سيدها الذي آثر الدنانير عليها . وقد استطاعت أن تهز مشاعره ، وتعطف قلبه ؛ فاستردها مشفقاً عليها ، واستبقاها متأثراً بعبابها الباكي الحزين . لكن الموت عدا عليها بعد أيام . ولا ندرى إن كان ذلك من خشية الفراق ، أم من مرض قاتل .

وقد رثاها المعلى ، فجعل رثاءه حديثاً إلى الموت ، مملوءاً بالحسرة الشديدة على حسننها الفاني ، وشبابها المختضر . وعتاباً لهذا الموت الذي لم يرق للجهال الغض ، بل عصف به ، فأسكنه جدثاً موحشاً ، وأسلمه إلى أيدي البلى تعبت به ماشاءت ، حتى تحيله تراباً . ويختم الرثاء بضراعة لا تجدى ، ونداء لا يفيد . إذ يقول :

يَا قَبْرَ أَبِيقَ عَلَى مُحَاسِنِهَا فَلَقَدْ حَوَيْتَ الْبِرَّ وَالظَّرْفَا

وقد اختارها ابن عبد ربه مثلاً في رثاء الجوارى فأحسن الاختيار ؛ لما فيها من سهولة في التعبير ، وقدرة على إثارة الأشجان ، وحسن اختيار المعاني التي دار حولها الرثاء .

وللمعلى الطائي شعر يصف فيه محبة الآباء لأولادهم فيقول :

لَوْ لَا بُنَيَاتُ كَزُغَبِ الْقَطَا مُجِئِمَنَ مِنْ بَعْضٍ إِلَى بَعْضٍ
الْكَانَ لِي مُضْطَرَبٌ وَاسِعٌ فِي الْأَرْضِ ذَاتِ الطُولِ وَالْعَرْضِ

وإنما أولادنا بَنَيْنَا أَكْبَادُنَا تَمْشِي عَلَى الْأَرْضِ
 إِنَّ هَبَّتِ الرِّيحُ عَلَى بَعْضِهِمْ أَشْفَقَتِ الْعَيْنُ مِنَ الْغَمَضِ^(١)
 وهو شعرسائر ، يتردد صدهاء في الأجيال والأقطار ، وذلك لاتصاله بكل قلب ،
 وتعلقه بكل نفس ، وإحساس الناس جميعاً بمعناه إحساساً عميقاً ، وفيه من السهولة
 والقوة ما ضمن له الخلود والذیوع .

٣ — الجبل الشاعر : (١٧٠ — ٢٥٨ هـ)

وهو أبو عبد الله الحسين بن عبد السلام ، الشاعر المصري المشهور ،
 المعروف بالجبل .
 تقدمت لهذا الشاعر أبيات في مدح القاضي محمد بن أبي الليث^(٢) وذم أعدائه
 سنة ٢٢٧ هـ . وقال عنه ياقوت إنه كان « شاعراً مقلعاً ، مدح الخلفاء والأمراء » .
 وإنه « قدم دمشق وافداً على أحمد بن المدبر ؛ وكان أحمد مقصد الشعراء ؛ فمن
 مدحه بشعر جيد أجزل صلته ، ومن مدحه بشعر ردىء وجه به مع خادم له إلى
 الجامع ، فلا يفارقه حتى يصلي مائة ركعة ثم يصرفه ، فدخل عليه الجبل
 وأنشده^(٣) :

أُرِدْنَا فِي أَبِي حَسَنٍ مَدِيحاً كَمَا بِالْمَدْحِ تُنْتَجَعُ الْوُلَاةُ
 فَقَالُوا أَكْرَمُ الثَّقَلَيْنِ طَرًّا وَمِنْ جَدَّوَاهُ دَجَلَةُ الْفِرَاتِ
 وَقَالُوا يَقْبَلُ الشُّعْرَاءَ ، لَكِنْ أَجَلُ صَلَاتٍ مَادِحِهِ الصَّلَاةُ

(١) نسبها ابن سعيد في المغرب ص ١٠١ إلى المعلي الطائي ، وجاء ابن عبد ربه بالأبيات
 الثلاثة الأولى ونسبها إليه ، مع تغيير كلمة « جعن » إلى « خططن » ج ١ ص ٣٦٤ .
 ولكن أبا تمام في الحماسة ج ١ ص ١٠٨ ينسبها إلى حطان بن المعلي مع ثلاثة أبيات قبلها في
 الشكوى من الدهر .

(٢) ص ٢٠١ من هذا الكتاب . (٣) معجم الأدباء ج ١٠ ص ١٢١ .

ثقلت لهم : وما يغني عيالي صلاتي ؟ إنما الشأن الزكاة
 فيأمر لي بكسر الصاد منها فتصبح لي الصلاة هي الصلات
 وقد تجد في هذا الشعر تكلفاً وصنعة ثقيلة في تكرار الصلات والصلاة ،
 وكسر الصاد لينال ما ينتغيه ، والتعبير عن ذلك بالزكاة . ولكنه في جملة شعر
 خفيف الروح لطرافة الموضوع ، وغرابة العقاب .

ويظهر من تاريخ الحسين بن عبد السلام أنه كان متكسباً بشعره مادها ،
 مرتاحلاً أو مقياً . فقد مدح المأمون لما قدم إلى مصر ، ومدح الأمراء مثل
 عبد الله بن طاهر . فإذا حيل بينه وبين ممدوحه عتب أو هجأ ، كمادة كثير
 من الشعراء .

روى ابن عبد ربه في العقد^(١) « أن حسين بن الجمل بكر إلى باب سليمان بن
 وهب ، فحجبه الحاجب وأدخل ابن شعْوَة وحمْدويه ، فقال الجمل :

ولعمري لئن حُجِبْنَا عن الشيد	خ فلا عن وجهه هناك وَجِيه
لا ، ولا عن طعامه التافه الزر	ر الذي حوله لَطَامُ بنيه
بل حُجِبْنَا عن الخسف والمسد	خ وذاك التبريق والتَّمويه
فجزى الله حاجباً لك قَطًّا	كل خير عَنَّا ، إذا يَجْزِيه
فلقد سرني دخولُ أخي شَمْع	وة دوني ، وبَعْدَه حمْدويه

وترى في هذا الهجاء لساناً حديداً ، وطعنًا في تلك الوجوه القبيحة ، وآثاماً
 بالبخل والشح وقلة الطعام . وترى فيه مغالطة الشعر عندما دعا للحاجب الفظ ،
 لأنه أحسن إليه فتنعه من لقاء تلك الوجوه .

(١) ج ١ ص ٤١ وقد اختصراً اسمه كما ترى

ولعله قد لقي من الرفض والحرمان يوماً ما آثار نفسه ، فدعا إلى القناعة وقال :
 إذا أظمأتك أكف اللثام كفتك القناعة شبعاً ورّياً
 فكُن رجلاً رجُلُه في الثرى وهامة همته في الثريا
 أيساً لنائل ذي قروة تراه بما في يديه أيساً
 فإن إراقة ماء الحيا دون إراقة ماء الحيا
 وربما كان شعره هذا أثراً من آثار ضيق النفس بذل السؤال ، ورجوعها إلى
 رشدّها وتذكّرها للمثل العليا ، والأخلاق الكريمة . وهو شعر غريب ممن كان
 على مثل صفاته ؛ إذ يقول عنه ابن يونس في تاريخ مصر^(١) إنه كان « شرها في
 الطعام ، دنىء النفس ، وسخ الثوب » وتلمح آثار الشره في قصيدته السابقة لما
 حجب عن طعام سليمان بن وهب .

وفي شعر الجمل هذا ما في شعر زمانه من عناية بالبديع ومحسناته ، وفي بعضها
 تكلف وثقل كما في شعره لابن المدبر ، وانظر إلى الأبيات الثلاثة الأخيرة تجدها
 ممتلئة بالجناس والمقابلة والاستعارة .

(ب) الشعراء الزائرون :

لم تخل مصر من شعراء قدموا إليها مادحين ، يرجون خيراً من ولائها ،
 وشيئاً من ثمراتها ، « فإن أعطوا منها رضوا وإن لم يُعطوا منها إذا هم
 يسخطون » ولكن هذه الوفادة لم تصل إلى ما كان في عهد عبد العزيز بن مروان .

١ — من سدحوا يزيد بن حاتم

من الولاة الذين وفد عليهم الشعراء بمصر الوالى يزيد بن حاتم المهلبى (من
 سنة ١٤٤ — ١٥١) .

وكان ربيعة الرّقى (الشاعر العراقي) قد قدم مصر فأقن يزيد بن حاتم السلمى .

(١) نقلاً عن معجم الأدباء ج ١٠ ص ١٢٢

فلم يعطه شيئا ، ثم عطف على يزيد بن حاتم الأزدي فشغل عنه ببعض الأمر ،
فخرج وهو يقول ^(١) :

أَرَانِي ، وَلَا كُفْرَانَ لِلَّهِ ، راجعا يَخُفِّي حُحْنِي مِنْ نَوَالِ ابْنِ حَاتِمِ
فسأل عنه : فأخبر أنه قد خرج وقال كذا — وأُنشِدَ البيت — فأرسل في
طلبه ، فأتى به ، فقال : كيف قلت ؟ فأنشده البيت . فقال : شغلنا عنك !
ثم أمر بحففيه فخلعتا من رجليه وملثا مالا . وقال : ارجع بهما بدلا من خفي حنين .
ولما عزل عن مصر ، وولياها يزيد بن حاتم السلمي قال ربعة :

بَكَى أَهْلَ مِصْرَ بِالدَّمْعِ السَّوَارِجِ غَدَاةَ غَدَا مِنْهَا الْأَعْرُ ابْنُ حَاتِمِ
وفيها يقول :

أَسْتَتَانِ مَا بَيْنَ الْيَزِيدَيْنِ فِي النَّدَى يَزِيدِ سَلِيمِ وَالْأَعْرُ ابْنِ حَاتِمِ
فَهَمْ الْفَتَى الْأَزْدِيُّ لِتَلَاْفِ مَالِهِ وَهَمْ الْفَتَى الْقَيْسِيُّ جَمْعِ الدَّرَاهِمِ
فَلَا يَحْسَبِ التَّمَامُ أَنِّي هَجَوْتُهُ وَلَكِنِّي فَضَّلْتُ أَهْلَ الْمَكَارِمِ
وخرج إليه رجل من الشعراء يمدحه . فلما بلغ مصر وجده قد مات ،
فقال فيه :

لَئِنْ مِصْرُ فَأَنْتَنِي بِمَا كُنْتُ أَرْتَجِي وَأَخْلَفَنِي مِنْهَا الَّذِي كُنْتُ أَمْلُ
فَمَا كُلُّ مَا يَخْشَى الْفَتَى بِمُصِيبَةٍ وَلَا كُلُّ مَا يَرْجُو الْفَتَى هُوَ نَائِلُ
وَمَا كَانَ بَيْنِي لَوْ لَقِيتُكَ سَالِمًا وَبَيْنَ النَّفْسِ إِلَّا لِيَالٍ قَلَائِلُ
وقصده محمد بن عبد الله بن مسلم — ابن المولى — ومدحه بقصيدة جميلة أولها :
وإذا تباع كريمة أو تشتري فسواك بأئمةا وأنت المشتري ^(٢)

(١) العقد الفريد ج ١ ص ١٥٦ .

(٢) النجوم الزاهرة ج ٢ ص ٢ .

وزيد بن حاتم معدود من أجواد العرب الذين سارت بمجودهم الركبان ، ويفهم من مقدمة هذه الأبيات الأخيرة أنه أقام بمصر بعد عزله وظل بها حتى مات .

٢ — أبو نواس بمصر :

ويحدثنا التاريخ الأدبي أن والياً بمصر اسمه الخصيب بن عبد الحميد^(١) كان مقصد شاعر من كبار شعراء بغداد ، هو الحسن بن هانيء الملقب بأبي نواس . وقد سكت التاريخ السياسي فلم يتحدث عن الخصيب هذا ، لكن تاريخ الأدب خلد اسمه في قصائد أبي نواس التي قالها مدحا وهجاء في وفادته عليه .

روى أنه لما قدم أبو نواس على الخصيب بمصر ، صادف في مجلسه جماعة من الشعراء ينشدونه مدائح لهم . فلما فرغوا استنشد الخصيب فقال : ألا تنشدنا يا أبا علي . فقال أبو نواس : أنشدك أيها الأمير قصيدة هي بمنزلة عصا موسى تلقف ما يافككون ، فأنشده قصيدته الرائية التي أولها :

أَجَارَةَ يَمْتَنِينَا أَبُوكَ غَيُورٌ وَمَيْسُورٌ مَا يُرْجَى لَدَيْكَ عَسِيرٌ

حتى أتى على آخرها ، فانفض الشعراء من حوله ، واهتز لها الأمير ، وأمر له بجائزة سنية .

ويقال إنه كان قد خرج إلى مصر في زى الشطار وتقطيعهم ، بطرّة قد صففها ، وكُمّين واسعين ، وذيل مجرور ، ونعل مطبق . وكان خروجه مع سليمان بن أبي سهل ، فلما دخل على الخصيب بهذه الصورة ازدراه واستخف به ، وكان تورّد عليه كتب الجلّة ممن بباب السلطان ، ووردت كتب أبي نواس فيها ، فقرأها ولم يستنشده ، فانصرف مهموماً ، وجاءه أهل الأدب ، فاستمعوا

(١) الخصيب بن عبد الحميد أمير مصر على الخراج حوالى سنة ١٩٠ وإليه تنسب منية الخصيب .

شعره ، وكتبوه وأنشدوه للخصيب ، فاستحضره فأنشده^(١) :

أجارة بيتينا أبوك غيور
فإن كنت لا خلا^(٢) ولا أنت زوجة
وجاورت قوما لا تراور^(٣) بينهم
فما أنا بالمشغوف ضربة لازب
وإني لطرف العين بالعين زاجر
كما نظرت ، والريح ساكنة ، لها
طوت ليلتين القوت عن ذي ضرورة
فأوفت على علياء حين بدا لها
تقلب طر فافى حجاجي مغارة
ولما قال أبو نواس :

تقول التي من بيتها خف مركبي
أما دون مصر للغنى متطلب^(٤)
فقلت لها واستعجلتها بواذر
ذريني أكثر حاسديك برحلة
قال له الخصيب : إذا يكثر حسادها ، وتبلغ أملها ، وأمر له بألف دينار .
ويقول فيها :

إذا لم تزر أرض الخصيب ركابنا
فأى فتى بعد الخصيب ترور^(٥)

(١) عصر المأمون ج ٣ ص ٢٣٤ .

(٢) الحلم : الصديق .

(٣) شكير : الریش أول ما ينبت .

(٤) الضرب : الثلج أو الجليد .

(٥) الحجاج : العظم ينبت عليه شعر الحاجب . ذرور : ما يذر في العين من الدواء .

فما جازه جودٌ ولا حلٌّ دونهُ
فتى يشتري حسنَ الثناءِ بماله
ولم تر عيني سوددًا مثلَ سوددِ
وأطرقَ حياتُ البلادِ لِحَيَّةِ
سموت لأهل الجوزِ في حالِ مُنهِمِ
إذا قام غمَّتُه على الساقِ حَلِيَّةُ
فمن يك أمسى جاهلاً بمقالتي
فما زِلْتُ توليه النصيحةَ يافعا
إذا غاله أمرٌ فامَّا كَفَيْتُهُ
ويعصف منازلُه بالطريق حتى يصل إلى الفسطاط ، ثم يقول :

زها بالخصيب السيف والرمح في الوغى
جوادٌ إذا الأيدي كففن عن الندى
له سَلَفٌ في الأعجمين كأنهم
وإني جدير إذ بلغتك بالني
فإن تولني منك الجميل فأهله
وفي السلم يزهو منبر وسرير
ومن دون عوراتِ النساءِ غيور
إذا استؤذنا يوم السلام بدور
وأنت بما أملت منك جدير
وإلا فباني عاذر وشكور

وقلدها كثير من الشعراء ، وسارت بذكرها الأحاديث في الأدب العربي ، وعدت من عيونه إلى الآن .

ولا تخلو وفادة أبي نواس على الخصيب من أخبار ؛ بعضها بعيد عن التصديق كالقدمة التي سبقت هذه القصيدة ، وهناك رواية^(٣) عن لقاء أبي نواس للخصيب في الشام بعد عزله ، وأن أبا نواس لم يعرف صاحبه ، فعرفه بنفسه ، فنزل عن دابته

(٢) قتيب : شبيب .

(١) تسور : تثب .

(٣) معاهد التنصيص ج ٢ ص ٢٢٢ .

وقبل يده ورجله ، وسأله عن تغير حاله ، ودفع إليه ما كان معه من ثياب وراحلة ونفقة ، فأقسم الخصيب ألا يأخذ شيئاً .

وكان أبو نواس يعتز بشعره ، ويعرف مبلغ سحره . فقد روى أنه كان مع الخصيب يوماً في مجلس شراب ، وماج الناس بسبب الأسعار ، وتظاهروا ، فقال أبو نواس : دعني أيها الأمير أسكنهم . فقال : ذلك إليك . فخرج أبو نواس حتى وافى المسجد الجامع ، فصعد المنبر وعليه ثياب مُشَهَّرَات ، فقال ^(١) :

منحتكم يا أهل مصر نصيحتي ألا فخذوا من ناصح بنصيب
ولا تلبسوا وثب السفاه فتر كسبوا على حد حامى الظهر غير ركب
فإن يك باق إفك فرعون فيكم فإن عصا موسى بكف خصيب
« رماكم أمير المؤمنين بحية » أكل لحيات البلاد شروب

قال : فتفرق الناس ولم يجتمعوا بعده ، وصدق ظن أبي نواس في شعره .

وحكى عن إسماعيل بن أسباط ^(٢) قال : لما قال أبو نواس :

« منحتكم يا أهل مصر نصيحتي »

رأى الخصيب في المنام قائلاً يقول : يا خصيب ، ما فوق هذا المدح مدح . قال : فما جزاؤه ؟ فأخبره أنه يستحق ألفاً . فلما أصبح الخصيب صبح أبا نواس بألف دينار . فقال أبو نواس قصيدة أخرى في مدحه بدأها بمقدمة تقليدية فيها حديث عن السكر ، وعن الناقة التي حملته إليه ^(٣) ، ثم قال ^(٤) :

أنت الخصيب وهذه مصر فتدققاً فكلاركما بحر

(١) الديوان ص ٧٨ .

(٢) معاهد النصيب ج ٢ ص ٢٢٣ . (٤) الديوان ص ١٦٩ .

لا تصعدا بي عن مَدَى أَمَلٍ شيئاً ، فإلّا يكابه عُذْرُ
ويحق لي إذ صرْتُ بينكما ألا يحل بساحتي فَقْرُ
النيل يُنْعِشُ ماؤه مصراً ونذاك يُنْعِشُ أهله الغمرُ

ومدحه بقصيدة أخرى نونية تذكر فيها الكرخ وهو بمصر ، وذكر ما فيها
من حانات وقصور كان يفد عليها للخمر ، أو للنائل الغمر ، ثم يخاطب
ابنته فيقول :

يَا ابْنَتِي أَبْشِرِي بِمِيرَةِ مِصْرٍ وَتَمَنِّي وَأُسْرِفِي فِي الْأَمَانِي
أَنَا فِي ذِمَّةِ الْخَصِيبِ مُقِيمٌ حَيْثُ لَا تَعْتَدِي صُرُوفُ الزَّمَانِ
قَدْ عَلِقْنَا مِنَ الْخَصِيبِ جِبَالاً آمَنْتَنَا طَوَارِقَ الْخَدَّانِ^(١)
وغير ذلك من الأبيات .

وهجا الخصيب حين سخط عليه ، هجاء يكذبه مدحه فيه ؛ يقول :

خُزْنُ الْخَصِيبِ مَعْلَقٌ بِالسُّكُوكِ يُحْمَى بِكُلِّ مُثَقَّفٍ وَوُشَطِّ^(٢)
وقال فيه أيضاً :

نَفْسُ الْخَصِيبِ جَمِيعُهُ كِذْبٌ وَحَدِيثُهُ لَجْلِيسِهِ كَرْبٌ
تبكي الثياب عليه مُعْوَلَةٌ أَنْ قَدْ يَجْرُ ذِيوُهَا كَلْبٌ^(٣)

أما هجاءه لهاشم بن حديج فقد تجاوزه إلى أجداده وبعض مواقفهم التاريخية ،
ومنها ما فعله جده بمحمد بن أبي بكر إذ يقول له^(٤) :

(١) الديوان ص ٢٩٣ .

(٢ ، ٣) الديوان ص ٨٢ ، والمثقف : الرمح . والمشط : السيف .

(٤) الديوان ص ١٣٤ .

يا هاشم بن حديدٍ ليس نخركمُ بقتلِ صهرِ رسولِ الله بالسَّددِ
أذرجتمُ في إهابِ العيرِ جُنته فبئس ما قدمتُ أيديكمُ لِعَدِ
إن تقتلوا ابنَ أبي بكرٍ فقد قتلتمُ حُجراً بدارَةِ مَلْحُوبِ بَنُو أُسدِ
وحُجَرُ المشارِ إليه هو والدِ امرئِ القيسِ ، الذي قصر في الأخذ بشاره
تقصيراً معيياً عند أبي نواس فقال فيه :

ألهى امرأ القيسِ تشبيبُ بغانيةٍ

عن ثأره ، وصفاتُ النوى والوَدِ
وهجا أهل مصر جميعاً أو عابهم عتاباً قاسياً ، ولم يرض إلا عن أحمد بن
حوى العذرى الذى كان والياً على الشرطة سنة ١٨٩ هـ . فقال ^(١) :

دَمُ المكارمِ بالفُسْطَاطِ مَسْفُوحُ والجُودُ قد ضاع فيها وهو مَسْطَرُوحُ
يا أهلَ مصرَ لقد غبتمُ بأجمعكم لما حوى قَصَبَ السبقِ المَسَامِيحُ
أموالكمِ بجمَّةٍ والبُخلِ عَارِضَهَا والنيلُ ، معُ جودِهِ ، فيه التماسيحُ
لولا ندى ابنِ حوىٍ أحمدٌ نطقتُ منى المفاصِلِ فيكمُ والجواريحُ

وتجد في شعر أبي نواس بمصر كثيراً من خصائصه ، وشيئاً من أثر البلاد
والرحلة والمدوح في شعره .

فأثر البلاد ظاهر في إشارات أبي نواس إلى تاريخها ، وبخاصة فرعون وموسى
والعصا والحية والنيل والتماسيح . وما سمعنا بمثل هذا في غير شعره المصرى .
كما كان للتاريخ الإسلامى أثر في شعره عندما هجا آل حديد بقتلهم لصهر رسول
الله . وقد تردد اسم الخصيب وهاشم بن حديد ومصر في شعره كثيراً .

٣ — أبو تمام :

وهو الشاعر الذي اختلف فيه ؛ ونسب إلى مصر . والمشهور أنه ولد في قرية « جاسم »^(١) بالشام (سنة ١٩٠ هـ) وأنه عربي طائي ، ولكن قل أن سلم شيء من ذلك ولم يختلف فيه ، حتى دين أبيه . وهو خلاف لا يؤثر كثيراً في شاعرية أبي تمام ، والذين نسبوه إلى مصر لا يستطيعون أن يجدوا في شعره من أثر البلاد وتاريخها مثل ما وجدوا لأبي نواس .

قيل إنه جاء إلى مصر صغيراً وتربى بها ، وتعلم الأدب وحفظ الأخبار وروى الأشعار ، وأنشد شعره بجامع عمرو ، ومدح وهجاً . ثم خرج من مصر ساخطاً ومدح وهجاً قوماً آخرين في بغداد وغيرها .

وفي ديوانه من أشعاره بمصر شيء كثير ، بعضها في مدح عيَّاش بن لميعة يقول فيها^(٢) :

رَأَيْتُ لَعَيَّاشٍ خَلَّاقَ لَمْ تَكُنْ لَتَكْمُلَ إِلَّا فِي اللَّبَابِ الْمَهْدَبِ
لَهُ كَرَمٌ لَوْ كَانَ فِي الْمَاءِ لَمْ يَغْضُ وَفِي الْبَرْقِ مَا شَامَ امْرُؤٌ بَرْقَ خُلْبِ
إلى أن يقول :

وَأَنْتَ بِمَصْرٍ غَابِي وَقِرَابِي بِهَا ، وَبَنُو أَبِيكَ فِيهَا بَنُو أَبِي
وَلَا غُرُوَ إِنْ وَطَّأَتْ أَكْنَافَ مَرْتَمِي لِمَهْمَلٍ إِخْفَاضِي ، وَرَفَّهَتْ مَشْرَبِي
فَقَوَّمَتْ لِي مَا عَوَجَّ مِنْ قَصْدِ هَمِّي

وَبَيَّضَتْ لِي مَا اسْوَدَّ مِنْ وَجْهِ مَطْلَبِي

كما مدح المعتصم — أو المأمون — بقوله^(٣) :

(١) على بعد ثمانية فراسخ من دمشق . (٢) الديوان ص ٢٤ .

(٣) ص ١١٢ .

فَانْتَشَرَ مَصْرَ مِنَ اللَّتْيَا وَالَّتِي بَتَجَاوَزَهُ وَتَعَطَّفَ وَتَعَمَّدَ
وقد أشار إلى تنقله في البلاد ومنها مصر فقال (١) :

بِالشَّامِ أَهْلِي وَبَعْدَادِ الْهَوَى وَأَنَا بِالرَّقَّتَيْنِ وَبِالْفُسْطَاطِ إِخْوَانِي
وَمَا أَظُنُّ النَّوَى تَرْضَى بِمَا صَنَعْتُ حَتَّى تُشَافِيَهُ بِي أَقْصَى خُرَّاسَانَ
خَلَفْتُ بِالْأَفُقِ الْغَرْبِيِّ لِي سَكَنًا قَدْ كَانَ عِيشِي بِهِ حُلُوءًا بِحُلُوانِ
وسبق له أبيات في انتصار عبد الله بن طاهر على ابن السري (٢) . وفي رثاء
عمير بن الوليد وإلى مصر سنة ٢١٤ (٣) .

وعاتب عياش بن لهيعة (٤) لأنه لم يكافئه على مداخحه ، ولم يحسن إليه بما أحسن
فيه من أشعار .

وضاق رزقه بمصر ، فدعا لدمشق أن يجودها الحيا لجود أهلها ، وفدى بنفسه
أرض الشام ، التي عدته عنها غربة النوى مكرها خمسة أعوام ، فقال (٥) :

أَخْمَسَةُ أَعْوَامٍ مَضَتْ لِمَغِيْبِهِ ؟

وشهران ، بل يومان ، تُكَلِّلُ مِنَ التُّكَلِّلِ
تَوَانِي وَشَيْكُ النَّجْجِ عَنْهُ ، وَوُكِّلَتْ بِهِ عِزْمَاتٌ أَوْقَفَتْهُ عَلَى رِجْلِ

لَقَدْ طَلَعَتْ فِي وَجْهِهِ مَصْرَ بِوَجْهِهِ — بِلا طالع سعدٍ ولا طائر سهيل —
وَسَاوَسُ أَمَالٍ وَمَذْهَبُ هَمَّةٍ غِيْمَةٌ بَيْنَ الْمَطِيَّةِ وَالرَّحْلِ

(١) الديوان ص ٣٢٣ .

(٢) الكندي ص ١٨٠ ، ١٨٣ .

(٣) الديوان ص ٣٨٩ .

(٤) الديوان ص ٤٠٠ ، ٤٠١ .

(٥) الديوان ص ٤٢١ .

نَأَيْتُ ، فَلَا مَالًا حَوَيْتُ ، وَلَمْ أَقِمِ فَاْمَتَعَ ، إِذْ جَجُتُ بِالْمَالِ وَالْأَهْلِ
وَفِي أَيْيَاتِ أَبِي تَمَامِ هَذِهِ مِنَ الثَّوْرَةِ النَّفْسِيَّةِ وَالْأَلْمِ الْمَرِيرِ مَا لَيْسَ فِي حَاجَةٍ إِلَى
التَّعْلِيْقِ . وَكَانَ يَنْتَظِرُ مِنْ عِيَاشِ بْنِ لَهْيَعَةَ شَيْئًا كَثِيرًا فَلَمْ يَحْقُقْ أَمَلَهُ ، فَهَجَاهُ فِي
كَثِيرٍ مِنَ الْقَصَائِدِ حَيًّا وَمَيِّتًا . وَمِنْ هَجَائِهِ فِيهِ مَيِّتًا قَوْلُهُ ^(١) :

أَيَّامِنَ أَعْرَضَ اللَّهُ عَنِ الْعَالَمِ مِنْ بُغْضِهِ
وَيَا مَنْ بَعْضُهُ يَشْهَدُ بِالْبُغْضِ عَلَى بَعْضِهِ
وَيَا أَثْقَلَ خَلْقِ اللَّهِ مِنْ مَاشٍ عَلَى أَرْضِهِ
وَمَنْ عَافَ مَلِيكَ الْمَوْتِ وَاسْتَقْدَرَ مِنْ قَبْضِهِ

وَرَى لِهَذَا الْبَيْتِ الْآخِرِ صَدَى فِي قَصِيدَةِ أَبِي الطَّيِّبِ الْمَتْنَبِيِّ ، الَّتِي قَالَهَا فِي
هَجَاءِ كَافُورٍ وَقَوْمِهِ وَهُوَ هَارِبٌ مِنْ مِصْرَ ، إِذْ يَقُولُ :

مَا يَقْبِضُ الْمَوْتُ نَفْسًا مِنْ نَفْسِهِمْ إِلَّا وَفِي يَدِهِ ، مَنْ تَتَنَّهَى ، عَوْدُ
وَهَجَا أَبُو تَمَامٍ شَاعِرًا مِنْ شُعْرَاءِ مِصْرَ اسْمُهُ يُوسُفُ السَّرَّاجُ . وَاسْتَكْثَرَ
عَلَيْهِ أَنْ يَكُونَ أَدِيبًا وَهُوَ سَرَّاجٌ ، فَقَالَ لَهُ ^(٢) :

أَيُّوسُفُ جِئْتَ بِالْعَجَبِ الْعَجِيبِ تَرَكْتَ النَّاسَ فِي أَمْرِ مُرِيبٍ
سَمِعْتُ بِكَ دَاهِيَةً نَادٍ وَلَمْ أَسْمَعْ بِسَرَّاجٍ أَدِيبٍ
أَمَا لَوْ أَنَّ جَهْلَكَ كَانَ عِلْمًا إِذَا لَنَفَذْتَ فِي عِلْمِ الْغُيُوبِ
فَمَا لَكَ بِالْغَرِيبِ يَدٌ ، وَلَكِنْ تَعَاطَيْكَ الْغَرِيبَ مِنَ الْغَرِيبِ
فَلَوْ نَبِشَ الْقَابِرُ عَنْ زُهَيْرٍ لَصَرَاحَ بِالْعَوِيلِ وَبِالنَّحِيبِ
مَتَى كَانَتْ قَوَافِيهِ عِيَالًا عَلَى تَفْسِيرِ بَقَرَاطٍ الطَّيِّبِ

فكيف ولم يزل للشعر ماءً يرفُّ عليه ريحانُ القلوبِ
أرى ظلميكَ إنصافاً وعدلاً وذنبى فيك تكفيرَ الذنوبِ

وقد كان هذا النقد ، الذى وجهه أبو تمام إلى يوسف السراج فى شعره ، سهماً صوبه عبد العزيز الجرجاني فى الوساطة إلى أبى تمام نفسه ؛ فإنه أورد الأبيات الثلاثة التى قبل الأخير ، وعلق عليها بأن أبا تمام نفسه لم يتبع ذلك فى شعره ؛ فاحتاج إلى تفسير بقراط وتأويل أرسطوليس ^(١) .

وهجا عيسى بن يزيد الجلودى لما انهزم فى موقعة « النورية » أمام أهل الحوف سنة ٢١٤ . وقد تقدم بعض هذا الهجاء ، وهجا المطلب الخزاعى وكان مدحه ^(٢) .

وكذلك كانت حياته فى مصر مدحاً وهجاء كما كانت حياة أبى نواس . وكنت أود أن أنسب أبا تمام لمصر معتمداً على ما قيل من نشأته بها ، لولا أن هذه النشأة لم تترك أثراً كبيراً فى شعر أبى تمام ، فيما عدا الموضوعات والأشخاص الذين هجأهم ومدحهم . والأثر الذى تركته فيه هذه الحياة بمصر أقل مما تركته فى أبى نواس ، الذى جاء فى زيارة قصيرة ثم رحل .

٣ — دعبل بن على الخزاعى :

وهناك شاعر آخر له بمصر مدح وهجاء ، وهو دعبل بن على الخزاعى المتوفى سنة ٢٤٦ هـ . وكان دعبل هجاء خبيث اللسان ؛ جاء إلى مصر طامعاً فى نوال رجل من أقربائه ، وهو المطلب بن عبد الله الذى ولى مصر مرتين إحداهما سنة ١٩٨ والثانية سنة ١٩٩ هـ .

(٢) الديوان ص ٤٩١

(١) الوساطة ص ٢٣

أما وفادة دعبل عليه فقد انتهت روايتها في الأغاني^(١) إلى دعبل نفسه . فقد روى أنه رجع من الحج ، إلى مصر ، فلقى بالطريق رجلا يقال له أحمد السراج ، وكان مع دعبل أخوه رزين ، وبدا لهما من حسن أدب السراج ما عطف قلبهما عليه ، فتبرعا له بقصيدة من شعرها ينشدها ، ويأخذ عليها جائزة من المطلب الخزاعي . فلما وصلوا مصر ودخلوا على المطلب خيب السراج ظنهما — وكان أسبق دخولا عليه — فأنشده من شعره مدحا قال فيه :

إِنِّي اسْتَجَرْتُ بِأَسْتَارَيْنِ مُسْتَلِمًا رَكْنَيْنِ ، مُطْلِبًا وَابَيْتَ ذَا الْحُجْبِ
فَذَاكَ لِلْأَجْلِ الْمَأْمُولِ الْمُسْهِ وَأَنْتَ لِلْعَاجِلِ الْمَرْجُوِّ وَالطَّلَبِ
هَذَا ثَنَائِي ، وَهَذِي مِصْرُ سَانِحَةٍ وَأَنْتَ أَنْتَ ، وَقَدْ نَادَيْتُ مَنْ كَسَبِ

فصاح مطلب : لبيك لبيك . ثم قام إليه فأخذ بيده وأجلسه معه . وقال : يا غلمان ، البِدَرُ . فَأَحْضِرْتِ . ثم قال : الخِلْعُ . فنشرت . ثم قال : الدواب . فَأَمْرَ لَهُ مِنْ ذَلِكَ بِمَا مَلَأَ عَيْنِيهِ وَأَعَيْنَنَا وَصَدُورَنَا ، وَحَسَدَنَا عَلَيْهِ . وكان حسدنا له بما اتفق له من القبول وجودة الشعر ؛ وَغِيْظُنَا بِكُتْمِهِ إِيَّانَا نَفْسَهُ ، واحتياله علينا أكثر وأعظم . نخرج بما أَمْرَ لَهُ بِهِ وَخَرَجْنَا صَفْرًا . وغاز ذلك دعبلا ؛ فهجا المطلب .

وقيل إن سبب غضب دعبل عليه من أول يوم أنه كان جاء إلى مصر أيام ثورة رجل من العلويين ، وكان المطلب قد وكل بالأبواب من يمنع الغرباء دخولها ، فَمُنِعَ دَعْبِلَ ، فَأَغْلَظَ لِمَنْ مَنَعَهُ ، فَتَقَتَّمَهُ بِالسُّوْطِ وَحَبَسَهُ . فمضى أخوه رزين فأخبر المطلب ، فَأَمْرَ بِإِطْلَاقِهِ ؛ ودعا به فخلع عليه . فقال له : لا أرضى أو تقتل الموكل بالباب . فقال له : هذا لا يمكن لأنه قائد من قواد السلطان فغضب وهجا .

ثم ولاه المطلب أسوان ، ولما بلغه هجاءه عزله . ومن هذا الهجاء قوله :
 تَلِصِقُ مَصْرُ بَكَ الْمُخْزِيَاتِ وَتَبْصُقُ فِي وَجْهِكَ الْوَصِيلُ
 وَعَادَيْتَ قَوْمًا فَمَا ضَرَّهُمْ وَشَرَّفْتَ قَوْمًا فَلَمْ يَنْبُلُوا
 شِعَارُكَ عِنْدَ الْحُرُوبِ النِّجَا وَصَاحِبُكَ الْأَخَوَرُ الْأَفْشَلُ
 فَأَنْتَ إِذَا مَا التَّقَوَّا آخِرُ وَأَنْتَ إِذَا أَنْهَزَمُوا أَوَّلُ

وقال يجرد قبيلته من شهرتها القديمة في الكرم ، بسبب لؤمهم الحديث الذي
 أكسبهم مطلب إياه وكأنه يقول : تعارضا فتساقطا . وذلك إذ يقول :

اضرب ندى طلحة السَّلَحَاتِ مُتَّيِّدًا

بلؤم مطلب فينّا وكن حَكَمًا
 تَخْرُجُ خِزَاعَةً مِنْ لَوْمٍ وَمِنْ كَرَمٍ فَلَا تَعُدُّ لَهَا لَوْمًا وَلَا كَرَمًا
 ولما عزله عن أسوان بسبب هذا الهجاء ، أنفذ إليه كتاب العزل مع مولى له
 وقال : انتظره حتى يصعد المنبر يوم الجمعة ، فإذا علاه فأوصل الكتاب إليه ،
 وامنعه من الخطبة ، وأزله عن المنبر واصعد مكانه .

فلما أن علا المنبر وتحنج ليخطب ، ناوله الكتاب ، فقال له دعبل : دعني
 أخطب فإذا نزلت قرأته . قال : لا ، قد أمرني أن أمنعك الخطبة حتى تقرأه .
 فقرأه . ونزله عن المنبر معزولا .

أما مدحه في المطلب فقد روى الأغاني منه بيتين لفظهما قليل ، ومعناها كثير
 إذ مدحه بالجوّد ، ولام من يقصدون غيره ، وعجب منهم ، وقدم أسرته عند الفخر
 بالكثرة ، وقدمه يوم التفاخر بالواحد ، وذلك إذ يقول :

أَبْعَدَ مَصْرٍ وَبَعْدَ مُطَلِبٍ تَرْجُو الْغَنَى ؟ إِنْ ذَا مِنَ الْعَجَبِ !

إن كانوا جئنا بأسرته وإن وآحدونا ، جئنا بطلب
ولا ننسى أبيات دعبل التي شيع بها المطلب ساخرًا متهكمًا^(١) . عند ارتحاله
من مصر إلى الحجاز .

هذا هو الشعر العربي في مصر زمن العباسيين ، وهؤلاء هم رجاله . والمصري
منه شعر حفظته بعض كتب التاريخ والقضاء ، وندر وجود شيء منه في كتب
الأدب كما سبق . وأكثره مقطعات ومختارات تساق استشهاده فيحذف منها كثير ،
ويستغنى عن أوائلها وأواخرها غالباً ، وقد لا تكون مرتبة كترتيبها في الأصل .
وتحس من قراءة ما اختاره الكندي أن الشاعر ينتقل انتقالًا مفاجئًا ، وأن المعاني غير
مسلسلة . ودليلنا على أن هذا الاختيار لا يتفق مع الأصل دائماً تلك أبيات التي
جاء بها لأبى تمام في هجاء الجلودى ، فقد روى منها ستة أبيات بدأت من العاشر
ووراء البيت العشرون . وتلك القصيدة الدالية في رثاء عمير بن الوليد فإنها أربعون
بيتاً في الديوان لم يذكر منها إلا أربعة أبيات غير متتابعة .

وليس من العدل أن نطالب مؤرخاً برواية القصائد كاملة ، فليس ذلك من
عمله ، ولكن الاقتصار على كتب التاريخ وحدها ، مع فوائدها التي لا توجد في
غيرها ، لا يصور الأدب في نواحيه المتعددة .

ولا بد أن يكون التعليق عليه محدوداً . فطالع قصائده غير معروفة ، والحكم
عليها لا يعتمد على أساس من الشواهد ، والانتقال من هذه المطالع إلى الأغراض
الأصلية غير معروف . وإن غلب على الظن أنه كان مع التمهيد وحسن الربط ،
لا مفاجئاً كما كان في العصر الجاهلي مثلاً . وروى فيه حسن التخلص من المقدمة إلى
الفرض .

وارتباط الأبيات ، وحسن تأليف العبارات ، وحسن المعاني ولطفها ،

(١) ص ١٦٩ من هذا الكتاب ، الكندي ص ١٦١ .

ويختلف الحال عن ذلك كثيراً في الشعر العباسي . فإنه كان دواوين كاملة ، فسُنحت القرص لدراسته دراسة وافية ، وعرفنا منه صلتته بالشعر القديم ، ومدى بعده عنه واقترابه منه ، وخصائصه وبواعثه ومميزاته ، والعوامل التي وجهته إلى الحضارة ووصفها ، أو المدح والمبالغة فيه ، أو الفلسفة والعناية بها ألفاظاً ومعاني ، أو السياسة واشتراكه فيها ، أو البديع وغلبته عليه ، وغير ذلك .

وكان شعر الوافدين على مصر شعر مدح وهجاء . يمتاز بحسن البيان ، والبعد عن التكلف ، والبراعة في أداء المعاني المتشابهة بعبارات قوية جميلة . أما هذه المعاني فكان أكثرها مما شاع في المدح والهجاء . وقليل منها كان من وحي البلاد ، كهجاء أبي نواس لأهل مصر ؛ أو من وحي المهجو نفسه ، كقصيدة أبي تمام في يوسف السراج .

الفصل العاشر

شعر الطولونيين

كان للأدب العربي رعاة من الملوك والأمراء ، يعطفون على شعرائه وكتابه في زمن الأمويين والعباسيين ، وكان هؤلاء جميعاً أدباء ، يتذوقون الأدب الرفيع ، ويعجبون بالأخبار الطريفة ، والروايات المستملحة ؛ إعجاباً بالأدب لذاته ، أو لماله من آثار سياسية أو خلقية أو حماسية .

وكان من هؤلاء في مصر عبد العزيز بن مروان ؛ الذي ازدهر الشعر في أيامه ازدهاراً عظيماً ؛ إذ مكثه طول عهده في البلاد أن يري الأدب ويكون مقصد الأدباء . وقد حدث هذا بمصر نادراً ، لا لقلّة الولاة الأدباء الذين كانوا يعطفون على الأدب ورجاله . ولكن لقصر عهودهم ، وعدم استقرار البلاد . وظل كذلك حتى استقرت الأمور لبني طولون ، ثم للاخشيديين فتأثر الشعر بذلك كثيراً .

١ — في عهد دولتهم (٢٥٤ — ٢٩٢)

وكان من المنظور أن يرقى ابن طولون بالشعر ، وأن يعرف قدره الأدبي والسياسي ؛ كما عرف فضل الكتابة في خدمة دولته . وكنا نظن خيراً بالشعر في عهده وهو الأديب الذي يقدر الفصاحة قدرها ، ويستخدم كتاباً مجيدين في دولته . ولكن الظاهر من تاريخه أنه لم يكن يري الشعر ولا يهتم به . ويؤكد هذا ما روى عنه من إهمال للبحر ، حتى هجاه بعد مدحه .

وكان خمارويه يود أن تنافس القطائع حاضرتة ، بغداد حاضرة الخلافة ؛ وكان

زواج ابنته قطر الندى ، عاملاً يثير الشعر والخيال ، وكاد ما بلغه هذا الزواج من أبهة وإسراف في مظاهر الترف يفوق المروى في ألف ليلة ولكن أين الشعر الذي قيل فيه ؟ ثم تنازع أمراء بني طولون بعده حتى ذهبت ريجهم سنة ٢٩٢ هـ .

والشعر الباقي من هذه الدولة كلها قليل محدود الأغراض لا يتجاوز المدح والهجاء ، وقليلًا من الأبيات في بعض الحوادث ؛ لأن النزاع بين الطولونيين والعباسيين خلق عداوة بين القطرين ، فلم يكن من السهل أن يفد على الطولونيين شعراء الحاضرة وهم يومئذ أشهر الشعراء ، وما كانت الدولة هادئة مطمئنة تستطيع أن ترمي الأدب ، وتجذب الشعراء وذلك للخلافات الداخلية بين الطولونيين بعد خمارويه .

ولكنه لم يعدم شعراء يمدحون أو يهجون أو يصفون ، بل إن المقرئ^(١) نقل عن القاضي أبي عمرو عثمان النابلسي في كتاب « حسن السيرة ، في اتخاذ الحصن بالجزيرة » أنه قال : رأيت كتاباً قدر اثنتي عشرة كراسة مضمونه فهرست شعراء الميدان الذي لأحمد بن طولون ، وقال : فإذا كانت أسماء الشعراء في اثنتي عشرة كراسة ، كم يكون شعرهم ؟ مع أنه لم يوجد من ذلك الآن ديوان واحد ! وفي هذا الخبر ما فيه من المبالغة فإن الباقي من شعر الميدان قليل وكله في رثائه . أو وصفه أو الاعتبار به وبمن أنشأه .

وبقي عندنا شعر متصل بالسياسة والحوادث الجارية ظهر في مناسبات أكثرها متصل بالتاريخ . ومن غريب الصدف أن يكون أقدم ما بقي منه هجاء ، فقد أمر أحمد بن طولون بينيان المسجد على جبل يشكر في صفر سنة ٢٥٩ ، وأمر أيضاً بينيان المارستان للمرضى .

فقال محمد بن داود يهجو ويشتير الناس عليه^(٢) :

ألا أيها الأغفال أيها تأملوا وهل يوقظ الأذهان غير التأمل

ألم تعلموا أن ابن طولونَ نَقَمَةٌ تُسَيِّرُ مِنْ سُفْلٍ إِلَيْكُمْ وَمَنْ عَلَـ
ولولا جنائيات الذنوب لما علت عليكم يد العِلْجِ السَّخِيفِ الْمَجْهَلِ

فيا ليت مارستانه نيط بِاسْتِهِ وما فيه من عِلْجٍ عُتِلَ مَقَلُّ
فكم ضجعة للناس من خلف ستره تضح إلى قلبٍ عن الله مُغْفِلِ

فترى في شعره توجيهاً للناس إلى الوالى ، ودعوة لهم إلى الثورة عليه ، وذلك
إذ جعله نقمة شاملة ، وجعل هذه النقمة بما كسبت أيديهم ، واتخذ من إصلاحه
ومنشأته النافعة سخرية وموضع هجاء ، فذمه وذم القائمين على مستشفاه ،
وأسف في هجائه .

وكان أبو أحمد الموفق يكره ابن طولون ، فتقدم إلى موسى بن بغا في صرفه
عن مصر ، فسار حتى نزل الرقة . وبلغ ابن طولون أنه سائر إليه ، وأنه مجد في
محاربتة ، فابتدأ ببناء حصن الجزيرة سنة ٢٦٣ معقلاً لِماله وحرمة . وبني كثيراً
من المراكب الحربية وأطافها بالجزيرة ، ولكن موسى أقام بالرقة عشرة شهور ثم
اضطرب أمر أصحابه ، وتوفي في صفر سنة ٢٦٤ .

وقال محمد بن داوود^(١) :

لما ثوي ابن بُغَا بالرقتين مَلَا ساقيه زَرْقاً إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَالْعَقِبِ
بني الجزيرة حصناً يستجِنُ بِهِ بالعسف والضرب ، والصناعُ فِي تَعِبِ
له مراكب فوق النيل رَاكِدَةٌ فما سوى القار ، لِلنُّظَارِ ، وَالْخَشَبِ
يُرَى عليها لباس الذل مذنبت بالشط ممنوعةٌ من عَزَّةِ الطَّلَبِ

فما بناها لغزو الروم محتسبا لكن بناها غداة الروع للهرب
وهذه فرصة عرضت له لم يهملها ؛ فهجا ابن طولون ، وذم حصنه ومراكبه ،
ورماه بأنه بناها للهرب لا للدفاع والغزو . وكان لا يتورع عن اللفظ القذر كالمبت
الأول من هذه الآيات .

وخرج العباس بن أحمد على سلطان أبيه سنة ٢٦٦ هـ ، واضطر أن يذهب إلى
إفريقية للحرب ، وكانت خاضعة لسلطان إبراهيم بن الأغلب ، فبعث إليه ابن الأغلب
بجيش ، فباشر العباس الحرب بنفسه وحسن بلاؤه . وقال العباس يومئذ (١) :

لله دري إذ أغدو على فرسي إلى الهياج ونار الحرب تستمر
وفي يدي صارم أفرى الرءوس به في حده الموت لا يُسقى ولا يذر
إن كنت سائلة عنى وعن خبري فما أنا الليث والصمصامة الذكر
من آل طولون أصلى إن سألت فما فوق لفتخر بالجدود مفتخر
ورثت مجد أبى عنه ، وورثني مجدا أناف به آباؤه الغرر
لو كنت شاهدة كرى « بليدة » إذ بالسيف أضرب والهجمات تبتر (٢)
يدعون لا أين ، والعباس يقدمهم كأنهم حمير واليـث مقتـر
إذا لعائنت منى ما تسير به عني الأحاديث والأنباء والخبر

وهو نخر شاعر فارس بشجاعته وبآبائه الأجداد .

ولكنه أصيب هو وأصحابه إصابة بليغة ، ورجع هارباً إلى برقة .

ورأى بعض الشعراء في أعمال ابن طولون ما هو جدير بالمدح فمدحه :
فإنه لما هرب المعتمد من بغداد سنة ٢٦٩ ، أرسل إليه أخوه الموفق ، صاعد

(٢) لبة : مكان المعركة .

(١) ض ٢٥٤ سيرة ابن طولون للبلوى

ابن مخلد وإسحاق بن كنداج ، فظفرا به ، ورداه إلى سر من رأى . فعقد الموفق لإسحاق على مصر . وعلم ابن طولون بهذا وهو بدمشق ، فكتب إلى أهل مصر من هناك يخبرهم بما حدث للمعتمد ويطلب منهم خلع الموفق وجهاده .

وقال قعدان بن عمرو يمدحه بالدين والشجاعة وحسن القيادة ، ويمدح الخليفة معه ، ويحث الناس على الخروج لنصرة الخليفة^(١) :

طَالَ الهدى بابن طولونَ الإمامِ كما	يزهو به الدين ، عن دينٍ وإسلامٍ
قَادَ الجيوش من الفُسْطَاط يقدمها	منه على الهول ماضٍ غيرُ محجامٍ
في جحفل ، للمنايا في مَقَانِيهِ	مكَامٍ بين رايات وأعلامٍ
يَسْمُو به من بني سَام غَطَارِفَةٌ	بِيضٌ ، وَسُودٌ أَسُودٌ من بني حَامٍ
لو أن رُوحَ بني كُندَاجٍ مُعلَقَةٌ	بالمشترى لم يَقُتْهُ ، أو بِبَهْرَامٍ
حَاطَ الخِلافةَ والدنيا خَليفَتُنَا	بصارمٍ من سيوف الله صَمَصَامٍ
يَا أيها الناس هُيُّوا ناصرينَ له	مع الأميرِ بِدُهمٍ الخيل في اللَامِ

وهذا مدح سياسي في غايته ، فالثناء على الوالى وأفعاله ، والدعوة إلى نصرته الخليفة ومن يدافع عنه يحمل في طياته تأييداً لسياسته ، وتبشيراً بحسن سيرته .

وقال قعدان بن عمرو مرة ثانية ، يستنهض الناس لنصرة الخليفة ، ويدعوهم أن ينضموا إلى ابن طولون في دفاعه عنه :

من مبلغٌ مُضَرَّ الشَّامِ وما حوت	مصرٌ ومن هو مُتهمٌ أو مُنَجِدٌ
ما بالكم هَضُمْتُمْ جَنَاحَ سنانكم	بتَوَا كُلِّ من فعلكم لا يُحمَدُ

أَتَى، وكيف يطيبُ من أحوالكم^(١) ، خفض الميثة والإمامُ مقيدُ !
حزان أفرِدَ من بَنِيهِ وأهله بأبي وأمي المستضام المفردُ !

وقال منصف^(٢) بن خليفة الهذلي يمدح أفعاله ، ويشير إلى سعة ملكه ،
وإخلاص أهل مملكته له ، ودفاعه عن الخليفة دفاعاً مجيداً^(٣) :

يَا عُزَّةَ الدِّينِ الذي أفعالهُ غُرَّرَ بها كل الوري تتعلَّقُ
أنت الأميرُ على الشَّامِ وثغرها والرَّقَّتَيْنِ وما حواه الشرقُ
وإليك مصرُ وبرقةٌ وحجازها كلُّ إليك فؤاده متشوقُ
هتاك الخلافة صاعدٌ وخليله إسحاقُ لعباً ، والحسودُ الأخرقُ
أسيافُنا بيضُ المنونِ فليتها بنَجِّيع من خذل الإمامُ مُخلَقُ^(٤)
تُسمي وتُصبح ضارباً من دونه بِمَهَنِّدٍ منه الختوفُ تفرَّقُ

وهو شعر سياسي كسابقه يرمي الشاعر من ورائه إلى بيان فضل ابن طولون
على الخليفة ، وتبرير حربه مع الموفق ، ورضا الناس عن سلطانه في البلاد
التي يحكمها .

وقال الوليد بن عبيد البحتري ، قصيدة طويلة في مدح أحمد بن طولون
ومنها^(٥) :

فأصبحتُ في بغدادَ لا الظل واسع ولا العيش طل في غصَّارته رطبُ

(١) في السكندی (يطيب . . . لكم) فأَ كَلَّمَهَا بما يمكن أن يتم به المعنى .
(٢) في سيرة ابن طولون للبلوي ص ٣٠٠ أنه من شعراء الشام . وله قصيدة نونية
هناك في معنى هذه القصيدة :

(٣) السكندی ص ٢٢٨ .

(٤) النجيع = الدم . تخلق = تعطر .

(٥) ديوان البحتري ج ٣ ص ٧٧ . والمشهور أنه « الوليد بن عبادة »

أُمدح عمال الطَّسَاسِيحِ راغباً

إِليهم ، وَلِي بِالشَّامِ مُسْتَمْتَعٌ رُغْبٌ^(١)

وعند أبي العباس لو كان دانياً

نواحي الفناء السهل والكنف الرخب

وكانت بلاءً نيتى عنه ؛ والغنى ، غنى الدهر ، أدنى ما يُنَوَّلُ أو يحبو

ثم يصف الخارجين عليه وينذهم فيقول :

وكانوا ثمودَ الحِجْرِ حَقَّ عَلَيْهِمُ وقوع العذاب ، وألْحَصَى لَهُمُ سَقَبٌ^(٢)

وما شك قوم أوقدوا نارَ فتنه . وسرت لهم ، في أن نارهم تخبو

كأن لم يروا « سيما الطويل » وجمعه وما فعلت فيه وفي جمعه الحرب^(٣)

ولو لم يحاجز لؤلؤ بفراره . لكان لصدر الرمح في لؤلؤ ثقب^(٤)

ويقول عن هؤلاء الخارجين على ابن طولون :

مخاذيل لم يَسْتَرْ فضاخَ فعلِهِمُ وفاءً ، ولم ينهض بغدرهم شغب

أخاف كَأَنِّي حَامِلٌ وَزَرَ بعضهم من الذنب أو أنى لبعضهم إلب

وما كان لي ذنب فأخشى جزاءه وعفوك مر جؤ وإن كان لي ذنب

(١) الطَّسَاسِيحُ = النواحي : رغب = متسع .

(٢) السقب ولد الناقة وهو الذي أنذر ثمود بالهلاك . فكأن خصام كانت نذير هلاك كما كان السقب لثمود .

(٣) سيما الطويل : كان حاكماً على أنطاكية قتل سنة ٢٦٥ في معركة بينه وبين ابن طولون . سيرة البلوى ص ٩٦ .

(٤) كان لؤلؤ مولى لابن طولون ثم غدر ، وانضم إلى الموفق

وتاريخ هذه القصيدة سنة ٢٦٩ هـ لما خرج ابن طولون إلى الشام . وكان الشاعر يطمع في عطائه على هذا المدح . ويظهر أن ابن طولون لم يعطه شيئاً فهجاه ولامه على تعرضه لهذا الهجاء ، ورماه بالجهل فقال من قصيدة طويلة :

ولولا غُلوُّ الجهل ما عُدَّ هَيِّنًا تكبُّدُ سُخْطِي واصْطِلَاءُ حَرِيقِ
ثم يقول فيه هاجياً :

وعاهرة أدَّتْ إلى عَـيْرِ عاهرٍ مَـشَاهِدِ كَلْبٍ في الكلابِ عَرِيقِ
لِيَلْبُخْ أَوْ طُولُونُ يُعْزَى ، فَقَدَحَتْ على اثنتين : زوجٍ منهما وعَشِيقِ^(١)

وهكذا الشعراء يسرفون في المدح والهجاء .

وارتحل ابن طولون من أذنة إلى المصيصة ، فأقام بها أياماً ، وعرضت له علة التي كان منها حتفه ، فأغذَّ في السير إلى مصر ، والعله تزيد عليه حتى بلغ الفرما ، فركب في الليل إلى القسوط ، فدخلها يوم الخميس ٢٠ جمادى الآخرة سنة ٢٧٠ ، وظلت العلة تأتي عليه شيئاً فشيئاً حتى مات في ١٠ من ذى القعدة سنة ٢٧٠ ، فحزن عليه المعتمد واشتدَّ وجده ، وقال يرثيه^(٢) :

إلى الله أشكو أسي عَرَائِي كَوَقْعِ الْأَسَلِ
على رجلٍ أروعٍ يُرَى فيه فَضْلُ الرَّجُلِ
شهابٌ خبا وَقْدُهُ وعَارِضُ غَيْثٍ أَفْلٍ
شَكَتْ دولتي فَقْدَهُ وقد كانَ زَيْنَ الدَّوَلِ
إذا أَمَّه الْقاصِدُونَ خباهُمْ جَمِيعَ الْأَمَلِ

وهذا رثاء عام يدور حول فضل ابن طولون وكرمه ومنزلته في الدولة ، وهو

(١) يلبخ = كان زوجاً لأُم أحمد بن طولون بعد موت أبيه .

(٢) سيرة ابن طولون للبلوي ص ٣٥٨

أشبه بالحديث ، وكان أولى بالخليفة أن يذكر فضله عليه في تثبيت ملكه ، ولكن منعه عن الخلافة من أن يشير إلى شيء من ذلك .

وقال ابن داود يهجو بعد موته ويفحش (١) :

عَرَّجْ عَلَى الْيَحْمُومِ فَانْزِلْ بِهِ فَاسْلَخْ عَلَى قَبْرِ ابْنِ طُولُونَا (٢)
ويخاطب هذا القبر فيقول :

يا حفرة النار التي أضرت وظل فيها الرجس مدفونا
لا تجعل لي بسنة جثمانه إلا الأفاعي والشعايبنا

ويرى أن الذين فقدوه وأصيبوا به هم إبليس والشياطين ، وهم الذين يعزون فيه لأنه كان ولياً لهم ، ويفسد في الأرض مثلهم فيقول :

فعرَّ إبليس بها أولا وعزَّ من بعد الشياطينا
وقل لهم : قد كان يكفيكم ويهتك المعروف والدينا
ثم مضى غير فقيد ، ولا كان حميداً عمره فينا
وقال أيضا :

مضى غير مفقود وما كان عمره سوى نعمة للخلق شعاء صيِّم
لقد زيد في اليعموم بالرجس لعنة ولم يسق بالمرجوس رب المقطم
ولم تبكه الأرضون ، لكن تبسم سروراً ، ولولا موته لم تبسم
يبشره إبليس عند قدومه عليه بأحى بقعة في جهنم
لقد طهر الأرضون من سوء فعله ومن وجهه ذاك ، الكريه المورم
فلا سقيت أجداً أنه صوب مزنه وأنا وفيها شر أولاد آدم !

ولعل ابن داود كان موتورا أو ساخطا أو محروما أو مأجورا ، فحمل هذه الحملات العنيفة على ابن طولون في حياته وبعد مماته ، وهي بعيدة عن تصويره على حقيقته ، ولكنه الشعر والشعراء .

ومن شعر هذا العصر قصائد للكاتب جعفر بن جدار بعيدة عن التاريخ والسياسة فتخف وترق .

ومن ذلك أبيات في صديق له يمدحه ويعاتبه ويطمع في خيراته ^(١) :

يا ابن المقفع في البيا ن ويا إياساً في الذكاء
يا ناظراً في المشكلات المعضلات ، ويا ضيائياً
إيها ، جعلت فداك ! فميم طويتني طى الرداء ؟
ورغبت عما كنت تر غب فيه من لطف الإخاء
من بعد أنى كنت عندك وابن أمك بالسواء
فوحق كفك ، إنها كف كأخلاف السماء
لأخلى لك والهوى ولأصبرن عن اللقاء
ولأشكونك ما استطعت إلى حفاظك والوفاء
ولأصبرن على رقيقك في ذرى درج العلاء
فهناك أجنى ما غرست إليك من ثمر الرجاء
وقال في مغنية جميلة ^(٢) :

جاءت بوجه كأنه قرء على قوام كأنه غصن

(١) اسمه « حذار » أحيانا . قتله ابن طولون سنة ٢٦٧ لأنه عدده مسئولاً عن ثورة العباس على أبيه : معجم الأدباء ج ٧ ص ١٨٤ .

(٢) معجم الأدباء ج ٧ ص ١٨٥ . وله قصيدة في الغزل أرهقها بالبديع فنقلت به (العقد الفريد ج ٣ ص ٤٢٦) .

تَرَنُوْا بَعِيْنَ إِذَا تَعَايَنَهَا حَسِبْتَ أَنْ فِيْ جَفَوْنَهَا وَسَنُ
حَتَّى إِذَا مَا اسْتَوَتْ بِمَجْلِسِهَا وَصَارَ فِيْهِ مِنْ حَسْنِهَا وَنُ
غَنَتْ فَلَمْ يَبْقَ فِيَّ جَارِحَةٌ إِلَّا تَمَنَيْتُ أَنَّهَا أَدُنُ

وفي هذه الأبيات حسن تعبير عن إعجابه بهذه المغنية ، ومدح لجمال صوتها ،
ودليل على فتنة الشاعر واستغراقه ، ولهذا تمنى أن تكون كل جارحة فيه أذنا ليكون
لها حظ التمتع والسرور ، وينال من ذلك النعم الجميل أكبر قسط ينعم به
الجسد والروح .

ومن شعره في ثقلاء زاروه فأكلوا ، واستولوا على الباقي وهم خارجون ^(١) :

زَارَنِي زَوْرُ ثَكَلَتِهِمْ وَأَصْبِيُوا حَيْثَا سَلَكُوا
أَكَلُوا حَتَّى إِذَا شَبِعُوا حَمَلُوا الْفَضْلَ الَّذِي تَرَكُوا

وفي سنة ٢٧٢ هـ خرج أبو الجيش خمارويه إلى دمشق وهزم إسحاق بن
كنداج ، وتبعه حتى سر من رأى ، فقال القاسم بن يحيى المرمي ^(٢) يمدحه ،
ويصف كثافة جيشه وهزيمة عدوه :

أَنَا أَبُو الْجَيْشِ الْأَمِيرُ يُؤْمِنُهُ فُشِّرَدَ عَنَا الْجُورُ وَافْتَقَرَ الْعُسْرُ
فَإِنْ تَكْ أَرْضَ الرِّقَتَيْنِ بِهِ اكْتَسَتْ ضِيَاءَ وَإِشْرَاقًا ، لَقَدْ أَظْلَمَتْ مِصْرُ
فَسَائِلُ بِهِ إِسْحَاقَ إِذْ سَارَ نَحْوَهُ بِجَيْشٍ كَعَرْضِ النَّيْلِ يَقْدُمُهُ النُّصْرُ
تَبَاعَدَتْ الْأَفْطَارُ مِنْهُ كَكثَافَةٍ فِي مَشْرِقِ قَطْرِ وَفِي مَشْرِقِ قَطْرِ
فَأَبْلَسَ إِذْ قِيلَ الْأَمِيرُ يَبَالِسُ

وَأَضْحَى ضَعِيفَ الْعَقْدِ إِذْ عُقِدَ الْجَنْسُ ^(٣)

(١) معجم الأدباء ج ٧ ص ١٨٦ .

(٢) المرمي من شعراء مصر المشهورين ، كان مختصا بخدمة خمارويه (المغرب ص ١٠٢)

(٣) أبلس : يئس وتوهم . بالس : بلد بشط الفرات .

ولما رأى الجيش ابن كنفداج مقبلاً
فولى شريداً ذا ارتيماع كأنه
لئن سراً إسحاق النجاة بنفسه
فلا يُغَبِّطُنْ بالعيش من بعد هذه
أرته المنايا الحمر أعلامه الحمر
بكل بلاد طائر ماله وكر
لقد ساءه في جمعه القتل والأسر
فقد كسرت كسرة مالها جبر

وافتقار العسر في البيت الأول غريب . وفي الشعر كثير من البديع ، وزينته
بلا تكلف ولا ثقل .

وبلغ خمارويه أن محمد بن ديوداد المعروف بابن أبي الساج خارج إليه
فلقيه خمارويه فهزمه بثنية العقاب من أرض دمشق سنة ٢٧٤ ، فقال القاسم بن
يحيى المريعي ^(١) :

فتوح الأمير نجوم تلوح
تسير لها في جميع البلاد
إذا حاد عن أمره حائد
نصحننا لشر بني ديوداد
ولم يكن الغدر مستقبحا
تعاطى نطاح كباش الحروب
لئن كان ولي سليما صحيحا
أباح حماءه فتى لم يزل
إذا هو لم يسترح من عدو
وإن هم بالسير لم يثنه
فليس تقاس إليها فتوح
ركائب تغدو بها وتروح
أتاح له الخف منه متيح
بتحذيره لو أطيع النصيح
وفي الغدر شين وعار قبيح
فغودر وهو صريع بطيح
فما القلب منه سليم صحيح
يحوط حمى وحى يستبيح
فليس إلى لذة يستريح
سنيح يعن له أو يريح

(١) الكندي ٢٣٨ .

وفى البيت الأول معنى لطيف وتشبيه غير مألوف ، وهو تشبيه الفتوح
بالنجوم . وقال الوليد بن عبيد البحرى :

وقد رأيت جيوش النصر مُنْزَلَةً على جيوش أبى الجيش بن طولونا
يوم الثانية إذ ثنى بكرته فى النقع خمسين ألفاً أو يزيدونا
مظفر لم يزل يلقى بطلعته كواكب السعد والطير الميامينا
يمشى قريباً من الأعداء ، لو وقفوا بالصين من بعدها ، ما استبعد الصينا
ومات الموفق سنة ٢٧٨ .

ثم توفى المعتمد سنة ٢٧٩ ، وبويع للمعتضد بن الموفق بالخلافة فبعث خمارويه
إليه بالهدايا ، وكتب إلى خمارويه فى ربيع الأول سنة ٢٨٠ بولايته هو وولده
ثلاثين سنة من الفرات إلى برقه ... على أن يحمل إليه فى كل عام مبلغاً .
وبعث إليه برسوله ومعه الخلع ، وسيف وتاج ووشاح ، وعقد المعتضد على
قطر الندى بنت خمارويه سنة ٢٨١ ، ثم خرج خمارويه إلى دمشق وقتل بها سنة
٢٨٢ هـ ، وحمل إلى القسطنطينية فدفن بها فكانت ولايته اثنتى عشرة سنة .
ثم وليها أبو العساكر جيش بن خمارويه فى ٩ ذى القعدة سنة ٢٨٢ .

ووليها بعده هارون ، وثار عليه عمه ربيعة والى الاسكندرية ، ثم قدم بجيش
إلى منبوبة (إمبابة) وعدى النيل ، ثم هزم وأمر وضرب ألف سوط ثم مات
بعد أيام .

وثار دميانة والى الاسكندرية وبعث المكتفى محمد بن سليمان الكاتب ، إلى
مصر ، فخالفه دميانه ، وأطاعه الحسين بن أحمد الماذرائى ، والتقى جيش هارون
بجيش دميانه فى تنيس ، وذهب هرون إلى المعركة ، ولكنه كان يلهو ويعبث .
فانهز عمّاه شيبان وعدى إحدى سكراته فقتلاه فى صفر سنة ٢٩٢ .

وولى البلاد بعده عمه شيبان ، وكان على يديه ذهاب ملك بنى طولون ، ودخل البلاد محمد بن سليمان من قبل المكتفى بالله سنة ٢٩٢ .

وأمر محمد بن سليمان بإحراق القطائع ، ونهبت الفسطاط ، وأخرج من مصر بنى طولون ومواليهم ومن يمت إليهم « فلم يبق بمصر منهم أحد يذكر ، فخلت منهم الديار ، وعفت منهم الآثار ، وتعطلت منهم المنازل ، وحل بهم الدل بعد العز ، والتطريد والتشريد بعد اجتماع الشمل ونصرة الملك ومساعدة الأيام »^(١).

٣ — الشعر فى أعقاب الطولونيين :

ووقف الشعر من الطولونيين بعد زوال ملكهم موقفين :
أحدهما شامت فيهم فرح بما أصابهم ، مرحب بمن أتى بعدهم ، ممجد لفتوحهم وما كسبوا من نصر مبين .
والثانى شعر حزين باك يرثى دولتهم ويتفجع لما حل بهم ويشير الأشجان لنكبتهم .

وهو فى الحالتين شعر موعظة واعتبار ، يذكر بصروف الأيام ، ويدعو إلى التفكر فى أحداث الأزمان .

ومن الشعر الأول ما قاله أحمد بن محمد الحبشى يتشفى ويمدح القائد الفاتح^(٢) :

الحمد لله إقراراً بما وهبا	قد لم بالأمن شعب الحق فانشعبا ^(٣)
الله أصدق هذا الفتح لا كذب	فسوء عاقبة المشوى لمن كذبا
فتح به فتح الدنيا محمدها	وفتح الظلم والإظلام والكربا
لا ريب ، رب هياج يقتضى دعة	وفى القصاص حياة تذهب الريبا

(١ ، ٢) والكندى ص ٢٤٨ .

(٣) انشعب : التأم واجتمع .

رمى الإمام به عذراء غادره فافتض عذرتها بالسيف واقتضبا
محمد بن سليمان أعزهم نفسا ، وأكرمهم في الذاهبين أبا
سرى بأسد الشرى، لو لم يُروا بشرًا أضحى عمرينهم الخطي لا القضا

إيها علوت على الأيام مرتبة أبا على ترى من دونها الرتبة
هارت بهارون من ذكراك بقعته وشيَّب الرعب شياناً وقد رغبا
فأصبحوا لا ترى إلا مساكنهم كأنها من زمان غابر ذهباً
وكم ترى تركوا من جنة أنف ومن نعيم جنى من غدرهم غضبا

وكان هذه القصيدة من وحي أبي تمام في فتح عمورية . وأظهر ما تجمد ذلك
الوحي في القافية البائية ، والبحر « البسيط » .

أما الاقتباس من القرآن الكريم والعناية بمحسنات البديع ، فن الصفات
التي كانت تغلب على الشعر في هذا العصر ، ثم أزهقته في العصور التالية .
وقال الحبيشى لأبي على الحسين بن أحمد المازرائي :

هنيئاً لمصر قد فتحت راجها وقُلِّدَتْ ما قُلِّدَتْه بتحكم
وما الفتح إلا فتح رأيك لا الذي تجمع يوم الجمع من كل مُعَلَّم
وكنف وشييان غداة لقيته كموسى وفرعون غداة المعظم
كفيت الإمام المكتفى ما ينوبه ولم يك يرجوه بكل مُرَجَّم
وما زلت ترمى آل طولون قبلها وقد خالفوا السلطان ، منك بصيلم

وقال ابن أبي يعقوب شامتا هاجيا :

الدار بعد تفرق الأظعان مسرورة بتفرق السكان
لم تبد من حزن على أربابها إذ في الترحل راحة الجيران

رحلوا فلا تزلوا بروض عزهر وعدهم سبيلُ الغمام الداني
 حرموا صبيب المزن أنى يعموا وتقسمهم سبطوة الرحمن
 ما كان أثقلهم على كتف العلا وأكف أيديهم عن الإحسان
 ما كان أزدل دولة سعدوا بها وأحقها بتهدم الأركان
 ما عاشروا نعم الإله بشكرها فأثابهم بمثوبة الكفران
 ماذا أريحت مصر منه وما إلى أرض العراق ، مضى من البهتان !
 ويتسم هذا الشعر بالبعد عن المقدمات والدخول في الموضوع ، أو براعة
 الاستهلال وهي التي تلحظ في الإشارة إلى الموضوع من أول بيت .

ثم يصرح بالعبرة ، ولا يخفى الشماعة بهم والرضا عما أصابهم فيقول :
 إن كنت تسأل عن جلالة ملكهم فارتع وعجْ بمراتع الميدان
 وانظر إلى تلك القصور وما حوت واسرح بزهرة ذلك البستان
 وإن اعتبرت ففيه أيضاً عبرة تنبيك كيف تصرف العصران
 يا قتل هرون اجتثت أصولهم وأثبت رأس أميرهم شيبان
 لم يغن عنهم بأس قيس إذ غدا في جحفل لجب ، ولا غسان
 وعُدَّةُ البطل الكمي وخزرج لم ينصرا بأخيهما عدنان
 ذقتُ إلى آل النبوة والهدى وتمزقت عن شيعة الشيطان
 عظمة ملكهم وعمارتهم :

وكان عز بنى طولون عزيزا ، ومجدهم عظيما ، ورخاؤهم عيما ، ونعيمهم موفورا
 وملكهم كبيرا ، وكانت قصورهم مشيدة ، وصروحهم مبردة ، وجنائهم ناضرة ،
 ورياضهم عاطرة .

واقراً بعض ما كتبه صاحب النجوم في وصف ديارهم وعزهم قال ^(١) :

ولما ملك خارويه الديار المصرية ، بعد موت أبيه أحمد بن طولون ، أقبل على عمارة قصر أبيه ، وزاد فيه محاسن كثيرة ، وأخذ الميدان الذي كان لأبيه ، المجاور للجامع ، فجعله كله بستاناً ، وزرع فيه أنواع الرياحين وأصناف الشجر ، وحمل إليه كل صنف من الشجر المطعم ، وأنواع الورد . وزرع فيه الزعفران ، وكسا أجسام النخل نحاساً مذهباً حسن الصنعة ، وجعل بين النحاس وأجسام النخل مزاريب الرصاص ؛ وأجرى فيها الماء المدبّر ، فكان يخرج من تضاعيف قائم النخل عيون الماء ، فينحدر إلى فساقى معمولة ، ويفيض الماء منها إلى بحار تسقى سائر البستان . وغرس في أرض البستان من الرياح المزرورع في زى نقوش معمولة ، وكتابات مكتوبة ، يتعاهدها البستاني بالمقاريض حتى لا تريد ورقة على ورقة ، لئلا يشكّل ذلك على القارىء ، وحمل إلى هذا البستان النخل من خراسان وغيرها ... وسرح في البستان من الطير العجيب كالطواويس ودجاج الحبش ونحو ذلك شيئاً كثيراً .

وعمل في هذا البستان مجلساً له سماه « دار الذهب » ، طلى حيطانه كلها بالذهب واللازورد في أحسن نقش ، وجعل في حيطانه مقدار قامة ونصف صُوراً بارزة من خشب ، معمول على صورته وصور حظاياه ، والمغنيات اللاتي تغنيه في أحسن تصوير وأبهج ترويق ، وجعل على رؤوسهن الأكلیل من الذهب والجواهر المرصعة ، وفي آذانها الأخراس الثقال ، ولونت أجسامها بأصناف تشبه الثياب من الأصباغ العجيبة ، فكان هذا القصر من أعجب ما بنى في الدنيا .

وجعل بين يدي هذا القصر فسقية ملاًها زُبَقاً . وسبب ذلك أنه اشتكى إلى

طبيبه كثرة السهر وعدم النوم ، فأشار عليه بالتكيس ، فأنف من ذلك وقال : لا أقدر على وضع يد أحد على ، فقال له الطيب : تأمر بعمل بركة من زئبق ، فعمل البركة المذكورة ، وطولها خمسون ذراعاً في خمسين ذراعاً عرضاً ؛ وملاؤها من الزئبق ، فأنفق في ذلك أموالاً عظيمة ، وجعل في أركان البركة سككا من فضة ، وجعل في السكك زناير من حرير محكمة الصنعة في حلق من فضة ، وعمل فرشاً من آدم يحشى بالريح حتى ينتفخ فيحكم حينئذ شدّه ، ويلقى على تلك البركة الزئبق ، ويشد بالزناير الحرير التي في حلق الفضة المقدم ذكرها ، وينزل خمارويه فينام على هذا الفرش ، فلا يزال الفرش يرتج ويتحرك بحركة الزئبق ما دام عليه . وكانت هذه البركة من أعظم الهمم الملوكية العالية ، وكان يرى لها في الليالي القمرية منظر عجيب إذا تألف نور القمر بنور الزئبق .

قال القضاى : ولقد أقام الناس مدة طويلة بعد خراب هذا القصر يحفرون لأخذ الزئبق من شقوق البركة .

ثم بنى خمارويه فى القصر أيضاً قبة تضاهى قبة الهواء سماها « الدكة » وجعل لها الستر الذى يقى الحر والبرد فيسدل حيث شاء ، ويرفع متى أحب ، وكان كثيراً ما يجلس فى هذه القبة ليشرف منها على جميع ما فى داره من البستان والصحراء والنيل والجبل وجميع المدينة .

ثم بنى ميداناً آخر أكبر من ميدان أبيه . وبنى أيضاً فى داره المذكورة داراً للسباع ، وعمل فيها بيوتا ، كل بيت لسبع ... وكان من جملة هذه السباع سبع أزرق العينين يقال له « زُرَيْق » قد أنس بخمارويه ، وصار مطلقاً فى الدار لا يؤذى أحداً . وراتبه على عادة السباع ، فلا يلتفت إلى غذائه بل ينتظر سماء خمارويه ، فإذا نصبت المائدة أقبل « زريق » معها وربض بين يدي خمارويه ، فيبقى خمارويه يرمى إليه بيده الدجاجة بعد الدجاجة ، والقطعة الكبيرة من اللحم

ونحو ذلك ، مما على المائدة ... وكان إذا نام خارويه جاء « زريق » وقعد ليحرسه ،
فإن كان قد نام على سريره ربض بين يدي السرير ، وجعل يراعيه ما دام نائماً ،
وإن نام خارويه قعد قريباً منه وتفتن لمن يدخل أو يقصد خارويه ،
لا يغفل عن ذلك لحظة واحدة ، وكان في عنق زريق طوق من ذهب ، فلا يقدر
أحد أن يدنو من خارويه ما دام نائماً ، لمراعاة زريق له وحراسته إياه ؛ حتى أراد
الله إنفاذ قضائه في خارويه ، كان بدمشق وزريق بمصر ، ولو كان زريق حاضراً
لما كان يصل إلى خارويه أحد . فما شاء الله كان .

فلا عجب أن بكى الشعراء ، واعتبروا ، ووعظوا ، وامتلا شعرهم بالزفرات والحسرات
على ما فعلته الأيام بآل طولون وما شادوا من قصور وما كان لهم من ملك كبير .
ومن هذه القصائد قول إسماعيل بن أبي هاشم ^(١) :

قَفْ وَقْفَةً بَفَناءِ بابِ السَّاجِ	والقصر ذى الشرفات والأبراج
وربوع قومٍ ازعجُوا عن دارهم	بعد الإقامة أيمًا إزعاج
كانوا مصابيحاً إذا ظلم الدجى	يسرى بها السارون في الإدلاج
وكانَ وجوهُهُمُ إذا أبصرتها	من فضة مصبوغة أو عاج
كانوا الثريا لا يرَامُ حِماهُمُ	في كل ملحة وكل هياج
فانظر إلى آثارهم تلتقى لهم	علماً بكل نسيئة وفجاج
وعليهم ما عشت لا أدعُ البكا	مع كل ذى نظره وطرف ساج

وقال سعيد القاص ^(٢) يبكي أيام ابن طولون ، ويرثى له ، وللبلاذ والدين والدنيا
التي أصيبت جميعاً بفقده ، وجعل هذا البكاء مقدمة للحديث عن عظيم الآثار
التي شيدها ، وعن دولته التي أسسها وانظر إليه يقول :

جرى دمه ما بين سحرٍ إلى تحيرٍ ولم يجر حتى أسلمته يدُ الصبرِ

(١) المخطوط ج ١ ص ٣٢٣ والكندي ٢٥٢ .

(٢) الكندي ص ٢٥٣ . خطط المقرئ ج ١ ص ٣٢٣ .

وَبَاتَ وَقِيداً لِلَّذِي خَامَرَ الْحَشَا
وَهَلْ يَسْتَطِيعُ الصَّبْرُ مِنْ كَانَ ذَا أَسَى
تَتَابُعُ أَحْدَاثٍ تَحْيِفُنْ صَبْرَهُ
أَصَابَ عَلَى رَغَمِ الْأَنْوَفِ وَجَدْعُهَا
طَوَى زِينَةَ الدُّنْيَا وَمَصْبَاحَ أَهْلِهَا
فَبَادُوا وَأَضْحَوْا بَعْدَ عَزٍّ وَمَنْعَةٍ
ثُمَّ يَبْدَأُ الْحَدِيثَ الْخَاصَّ ، وَيَتَجَهَّزُ إِلَى مَدْحِ ابْنِ طُولُونَ خَلْقاً وَخُلُقاً
بِمَا يَلِيْقُ بِأَمِيرِ عَظِيمِ الْأَفْعَالِ ، عَلَى الْهَمَّةِ فِيَقُولُ :

وَكَانَ أَبُو الْعَبَّاسِ أَحْمَدُ مَاجِداً
كَانَ لَيَالَى الْدَّهْرِ كَانَتْ ، لِحُسْنِهَا ،
يَدُلُّ عَلَى فَضْلِ ابْنِ طُولُونَ هَمَّةً
جَمِيلَ الْحَيَا لَا يَبِيتُ عَلَى وَتَرٍ
وَيُشْرَاقُهَا فِي عَصْرِهِ ، لَيْلَةَ الْقَدْرِ
مُحَلَّقَةً بَيْنَ السَّمَائِ كِينَ وَالْغَفَرِ (٢)

وَيَسْتَشْهَدُ بِالْآثَارِ ، وَهِيَ شَاهِدٌ عَدْلٍ ، نَاطِقٌ فِي صَمْتِهِ بِلِسَانٍ مُبِينٍ ، وَمِنْهَا ذَلِكَ
الْمَسْجِدَ الَّذِي بَنَاهُ ابْنُ طُولُونَ سَنَةَ ٢٥٩ عِنْدَ الْمَكَانِ الْمُسَمَّى تَنُورِ فِرْعَوْنَ :

فَإِنْ كُنْتَ تَبْنِي شَاهِداً ذَا عَدَالَةٍ
فَبِالْجِبِلِّ الْغَرْبِيِّ خِطَّةٍ يَشْكُرُ
يَدُلُّ ذَوَى الْأَبْلَابِ أَنَّ بِنَاءَهُ
بَنَاهُ بَاجِرٌ وَأَسَّ وَعَمَّرَ عَمَرُ
بَعِيدُ مَدَى الْأَقْطَارِ ، سَامٌ بِنَاؤُهُ
يَخْبِرُ عَنْهُ بِالْجِلِّيِّ مِنَ الْأُمَرِ
لَهُ مَسْجِدٌ يَفْنَى عَنِ الْمَنْطِقِ الْهَذَرِ
وَبَانِيَهُ لَا بِالضَّنِّينِ وَلَا الْغَمْرِ (٣)
وَبِالْمَرْمَرِ الْمَسْنُونِ وَالْجِصِّ وَالصَّخْرِ (٤)
وَتَثْبُتُ الْمَبَانِي مِنْ عَقُودٍ وَمِنْ جُدُرٍ

(١) الْوَقِيدُ وَالْوَقُودُ : الْحَطَبُ وَشَبِيهِهِ . (٢) الْغَفَرُ = ثَلَاثَةُ أَتْجَمِ صَفَارٍ .

(٣) الضَّنِّينَ = الشَّجِيعَ . الْغَمْرُ = الْحَامِلُ الَّذِي لَمْ يَجْرِبِ الْأُمُورَ .

(٤) آس = نَوْعٌ مِنَ الشَّجَرِ . الْعَرَعَرُ = شَجَرُ السَّرُورِ . الْمَسْنُونُ = الْمَصْقُولُ .

فسيحُ الرحابُ يحسِرُ الطرفُ دونه
وتسورُ فرعونَ الذي فوق قُلَّةِ
بنى مسجداً فيه ، يفوقُ بناؤه
تحالَ سنًا قنذيله وضياءه

وعينُ معينُ الشرب ، عينُ زكية
كأن وفود النيل في جنباتها
فأرفأها مستنبطاً لمعينها
يمر على أرض المفاقر كلها
قبائل لا نوء السحاب يدها

ولا تنسِ مارستانه واتساعه
وما فيه من قوامه وكفاته
فللميت القبور حسنُ جهازه
وإن جئت رأس الجسر فانظر تأملاً
ترى أثراً لم يبق من يستطيعه
مأثرُ لا تبلى وإن بادَ ربها
لقد ضمّن القبر المقدّر ذرعه

ثم انتقل إلى أبنائه وما أصابهم به الدهر حتى وهى عقدهم فتنازرت جواهره .
قال :

وقام أبو الجيش ابنه بعد موته

رقيقُ النسيم طيب العرفِ والنشرِ
على شاهيق عال ، على جبل وعمر
ويهدى به في الليل ، إن ضل ، من يسرى
سهيلاً إذا ملاح في الليل للسفرِ

وغير أجاج للرؤاة وللطهر
روحُ وتغدو بين مدّ إلى جزر
من الأرض من بطن عميق إلى ظهر
وشعبان والأحمر والحى من بشر
ولا النيل يرويه ولا جدولٌ يجري

وتوسّعة الأرزاق للأحول والشهر
ورفقهم بالمعتفين ذوى الفقر
وللحى رفقٌ في علاج وفي جبر
إلى الحصن أو فاعبر إليه على الجسر
من الناس في بدو البلاد ولا حضر
ومجدٌ يؤدّى وارثيه إلى الفخر
أجل ، إذا ما قيس ، من قبتى حجر

ثم انتقل إلى أبنائه وما أصابهم به الدهر حتى وهى عقدهم فتنازرت جواهره .

كما قام ليث الغاب في الأسل السمر

أنته المنايا وهو في أمن داره
كذلك الليالى من أعارته بهجة !
فأصبح مسلوباً من النهى والأمر
فيالك من باب حديد ومن صُفْر !

وورث هرون ابنه تاج ماجد
وقد كان « جيش » قبله في محله
فقام بأمر الملك هرون مدة
وما زال حتى زال والدهر كاشح
يذكرهم لما مضوا فتتابعوا
كما ارفض سلك من هجان ومن شذر

فمن بيبك شيئاً ضاع من بعد أهله
ليبك بنى طولون إذ بان عصرهم
لفقدهم فليبك حزننا على مصر
فبورك من دهر وبورك من عصر

وورد كتاب المكتفى بولاية الحسين بن أحمد الماذرائى على الخراج وجعل إليه
النظر فى أمر بنى طولون وضياعهم .

ثورة ابن الخليج :

ولما خرج محمد بن سليمان أخرج معه جماعة كثيرة من بقاياهم ، ومنهم محمد
ابن على الخليج وجماعة ، فثاروا وعادوا إلى مصر وأثاروا فتنة بها ، فأرسل المكتفى
إليهم رجلاً يقال له أبو الأغر سنة ٢٩٣ فهزمه جيش ابن الخليج .

فقال إسماعيل بن أبى هاشم ^(١) :

أميرنا يابن البهليل الفرر
صدورنا . وقيت من كل حذر
شفيت من عدونا أبى الأغر
إذ جاء فى الشوك إلينا والشجر

فِي جَحْفَلٍ كَوَجٍ بِحَرْ قَدَزَ خَرٌ يَتَّبِعُهُ أَهْلُ الْبَوَادِي وَالْخَضَرِ
صَبَرْتُ إِذْ لَا قِيَتَهُ وَمَا صَبَرٌ قَرَّ فِي أَسْرَعٍ مِنْ لَحِ الْبَصَرِ
يَقْطُرُ مِنْهُ بَوْلُهُ قَطْرُ الْمَطَرِ أَحْدَثَ فَوْقَ سِرْجِهِ وَمَا شَمَرِ
شَفِيقَتُنَا مِنْ تُرْكِهِمْ مَعَ الْخَزَرِ ثُمَّ عَفَا أَمِيرُنَا لِمَا قَدَرِ
وَهُوَ رَجَزٌ سَهْلٌ بَعِيدٌ عَنِ التَّكْلَفِ مَعَ قُوَّةِ عِبَارَتِهِ . وَتَمَاسُكِ أَجْزَائِهِ .
وَوُضُوحِ صُورَتِهِ .

وقال أحمد بن محمد الحبشي^(١) في أبي الأغر وابن الخليلج .

غَضِبْتَ لِمَصْرٍ وَمَا نَالَهَا وَشَرَّدْتَ بِالْخَوْفِ مِنْ غَالِهَا
تَلَافِيَتَهَا بَعْدَ إِدْبَارِهَا وَأَقْبَلْتَ تَطْلُبُ إِقْبَالِهَا
وَكَادَتْ تَوَوِّهُ شَوْقًا إِلَيْكَ وَتَظْهَرُ بِالشَّوْقِ بِلِبَالِهَا
وَمَا شَوْقُهَا كَانَ مِنْ طَبْعِهَا وَلَكِنْ رَبِّكَ أَوْحَى لَهَا
لَقَدْ فَرَّجَ اللَّهُ كَرْبَ النُّفُوسِ وَبَلَّغَهَا فِيكَ آمَالِهَا
وَلَمَّا رَأَيْتَكَ فِي مِصْرِنَا مِنْحَنَا الْإِمَارَةَ إِجْلَالِهَا
وَمَا زِلْتَ تَطْلُبُهَا هِمَّةً وَتَرْكِبُ بِالسَّيْفِ أَهْوَالِهَا
وَتَعْلَمُ نَفْسُكَ أَنَّ الْأُمُورَ رَإِمًا عَلَيْهَا وَإِمَامَا لَهَا
تَمَنَّوْا لِقَاكَ فَلَمَّا رَأَوْكَ رَأَوْا لِلْمَنِيَةِ إِظْلَالَهَا
وَمَرُّوا بِطَيْعُونَ فِي كُلِّ شَيْءٍ رَأَوْهُ النَّسَايَا وَإِزْأَالَهَا
وَكَانَ أَبُوكَ خَلِيجَ الْعُقَاةِ وَبِحَرْ الثُّغُورِ الَّتِي عَالَمَا
بِهِ كَانَتْ الرُّومُ فِي أَمْنِهَا تَفَزَّعُ لِلذَّنْبِ أَطْفَالُهَا

وقد خلت هذه القصيدة من المقدمات التقليدية ، وابتدأت بالحديث في الموضوع ولعل هذا الموضوع ذاته هو الذى نفر من تلك المقدمات . ثم بلغ ابن الخليج مسير أبي شجاع فأتاك المعتضدى إليه ، ومسير دميانة فى المراكب ، ونزل أبو شجاع ومعه بدر الحمأى بالنويرة ، وعسكر ابن الخليج بباب المدينة ، وسار فى ثلاثة آلاف من أصحابه ليلا ليبيت بهم فأتاك فضاؤوا الطريق ، وأسفر الصبح قبل أن يبلغوا غايتهم ، والتقى الجمعان فهزم أصحاب ابن الخليج وذلك يوم الخميس ٣ رجب سنة ٢٩٣ واستتر ابن الخليج فى منزل رجل يقال له (تريك) .

قال سعيد القاص لبدر الحمأى ^(١) :

حالت معارفهم إلى إنكار	وغدا الخميس لهم يوم بوار
وتقاطعوا وتدابروا وتنافروا	وتلاعنوا فيها كأهل النار ^(٢)
وأتوك بين مُعذِّرٍ فى عذِّره	خجل وبين مصرِّح الإقرار
وترعزت تلك الرماح فصورت	ركن المقطم فى حفيرة هار
طلعت نجومٌ فى الرِّماح بروجها	فسقطن إذ طلعت نجوم قدار
لما انجلي ذاك الغبار رأيتهم	صرعى وقد لبسوا بريم غبار
فأسعد بنصر الله والفتح الذى	عظمت به النعمى على الأبرار

ودخل دميانة فى مراكبه إلى الفسطاط ، وأقبل النوشرى والحسين بن أحمد الماذرائى ومن كان معهم إلى الفسطاط فدخلوها فى ٥ رجب سنة ٢٩٣ ، ودلهم « تريك » على ابن الخليج فأخذ وقيد ، بعد أن أقام منتزياً ٧ أشهر و ٢٠ يوماً . ودخل فأتاك الفسطاط فى عسكره يوم الخميس ١٠ رجب سنة ٢٩٣ ، وأمر

(١) شرحه ص ٢٦١

(٢) إشارة إلى سورة الأعراف « كلما دخلت أمة لعنت أختها » أو « ص » « إن ذلك لحق ، تخاصم أهل النار » . وليس فى الشعر ضعف .

دميانة بالخروج ، وأخرج معه ابن الخليفة في ٦ شعبان سنة ٢٩٣ . ثم طيف بابن الخليفة وأصحابه ببغداد ، واجتمع الناس لهم هناك ، وكان يوماً مذكوراً .

ثم أمر الحسين بهدم الميدان فابتدىء في هدمه في شهر رمضان سنة ٢٩٣ وبيعت أنقاضه وذر كآنه لم يكن .

وحمل الوفاء بعض الشعراء على البكاء ، وظهر في الشعر العربي لأول مرة قصائد متعددة في آثار دولة زائلة ، وهذا شعر جديد في معانيه ، محزن في نغماته ، متنوع في أناته وزفراته .

قال محمد بن طشويه : (١)

من لم يرَ الهدم للميدان لم يرَ
لو أن عين الذي أنشأ تبصره
كانت عيون الورى تغشى لهيبته
أين الملوك التي كانت تحلبه
وأين من كان يحميه ويحرسه
صاح الزمان بمن فيه ففرقهم
وأخلق الدهر منه حسن جدته
دكت مناظره واجتث جوسقه
أو هبَّ إعصار نار في جوانبه
كم كان يؤوى إليه في مقاصره
كم كان فيه لهم من مشرب غدق

تبارك الله ما أعلاه وأقدره (٢)
والحادثات تعاديه ، لا كبره
إذا أضاف إليه الملك عسكره
وأين من كان بالإتقان دبره
من كل ليث يهاب الليث منظره
وحط ريب البلى فيه فدعثره
مثل الكتاب مخالعصران أسطره
كأنما انحسف فاجاه فدعمره
فعاد معروفه للعين منكروه
أحوى أغن غضيض الطرف أحوره
فعب طرف الردى فيه فكدره

(١) الكندي ص ٢٦٣

(٢) صوابه « ما أعلى وأقدره » ليستقيم الوزن

أين ابن طولون بانيه وساكنه أماته الملك الأعلى فـأقبره
ما أوضح الأمر لو صحت لنا فكر طوبى لمن خصه رشد فذكره !

وقال أحمد بن إسحاق الحكر^(١) :

وإذا ما أردت أعجوبة الدهر — ر تراها فانظر إلى الميدان
تنظر البثَّ والهموم وأنوا عاً توات به من الأشجان
يعلم العالم المبصر أن الدهر — ر فيما نراه ذو ألوان
أين ما فيه من نعيم ومن عيـ ش رخى ونضرة وجنان
أين ذاك المسك الذي ذيف بالعمـ ير بحتاً وُعلَّ بالزعفران
أين ذاك الخز المضايف والـ وشى وما استجلبوا من الكتان
أين تلك القيان تشدو على الـ فرش بما استحسنوا من الألمان
دور الدهر آل طولون في هـ — وة قفر مَسْكُونُها غير دان
وأعاض الميدان من بعد أهليـه ذئاباً تعوى بتلك المغانى

وقال سميد القاص^(٢) :

وكان الميدان تمكلى أصيبتْ بحبيب صباح ايلة عرس
تغشى الرياح منه محلا كان للصون في ستور القدس
ولفرش الإضريح والبُسْطِ الديـ باج في نعمة وفي لين مَسْـ
ووجوه من الوجوه حسان وخدود مثل اللآلىء مُلس
كل كحلأ كالغزال ونجلا رداح من بين حور ولُمس

(١) روى هذا الشعر في الخطط ج ١ ص ٣٢٥ منسوباً إلى أحمد بن إسحاق الجفر .
وهو شاعر نحوى مصرى ترجم له ياقوت باختصار في معجم الأدياء ج ٢ ص ٢٢٦ ومات سنة ٣٠١
(٢) الكندى ص ٢٦٦

آل طولون كنتم زينة الأر ض فأضحى الجديد أهدام لبس
وكأنه يقتنى آثار البحترى فى إيوان كسرى ببحراً وقافية وعبارات . ولا شك
أن سينية البحترى هى التى أوحى إليه بهذه الأبيات .

وقال ابن أبى هاشم ^(١) :

يا منزلا لبني طولون قد دثرا سقاك سوب الغواذى القطر والمطرا
يا منزلا صرت أجفوه وأهجره وكان يعدل عندى السمع والبصرا
بالله عندك علم من أحببنا أم هل سمعت لهم من بعدنا خبرا
ولكن المنزل لم يجبه ، ولم يبق إلا بعض آثارهم تشهد بما كان لهم من عز وسلطان .
حرب مع الغرب :

وكانت المغرب ثائرة على الخلافة ، وأراد المقتدر بالله أن يخضعها ، وجعل ذلك
إلى والى مصر ، أبى منصور تسكين ، فأرسل من قبله أحد عماله فسار إلى برقة
ومنها إلى «سرت» ولكن رجلا من البربر من كتامه اسمه «حباسة» قاد المغاربة
إلى اسكندرية فدخلها فى سنة ٣٠٢ (السبت ٨ رمضان) ، فقدم القاسم بن سينا
إلى مصر مددا لتسكين ، ثم قدم أبو على الحسين بن أحمد الماذرائى ، وأبو بكر محمد
ابن على بن أحمد الماذرائى إلى مصر على تديرها ، وقدم معهما أحمد بن كيفلغ .
وسار حباسة إلى مشطول ، والتقى بالمصريين فى يوم خميس وسبت من
جمادى الآخرة سنة ٣٠٢ .

قال نافع بن محمد بن عمرو ^(٢) .

الأشقى جيب الصبر إن كنت موجعا ولا يُلف لاح فيك للعذل مطعما

(١) خطط المقرئى ج ١ ص ٢٣٥

(٢) السكندى ص ٢٧١

لما دهم الإسلام من فجح حادث
 نصرع إخوان على الدين صرّعوا
 فاتوا كراما ما استضيّموا ، أعزّة
 ألم ترهم يوم الخميس وقد غدا
 وقد صاح فيهم بالنفير أميرهم
 فصادمهم في الناكثين فأبدوا
 فولى بخزى طوقته كتامة
 ألوف أباد القتلُ جمّ عديدهم
 ترى القوم صرعى في الحلافى جوائما
 وطيف بهام الفاسقين على القنا
 وكانت لحزب الكفر إذ ذاك عطفة
 فصلى على تلك النفوس مليكها
 ترهم له أركانه أن تضعضعا
 لنصرة دين الله ، يالك مصرعا !
 يلاقون في الله الأسنة شرّعا
 عدوهم فيمن أعدّ وجما
 فجاءوا سراعا حاسرين ودّرعا
 وكان حجة الدين أعلى وأمنعا
 وقد سُقيت كأساً من الموت مُترعا
 فأمسوا طعاماً للكلاب ومترعا
 كأعجاز نخل بالبقيع ثقلعا
 وبضع من لحماتهم ما تبضعوا
 فقتل من أشياعنا من تسرعا
 وعوضها أبقي ثواب وأنفعا

وليس من شك في أن هذا الشعر قيل بعد الواقعة بقليل ، كما يدل على ذلك
 تعيين يوم الخميس ، ونذكر أنه شعر يختلف عما سبقه من شعر الحوادث ، فهو
 شعر ديني حماسي . شعر يخشى أن يتصدع الإسلام لمصرع من ماتوا في الدفاع
 عنه ، ويصف أعداءهم بالفسق والخروج على الدين وأنهم حزب الكفر ، وانظر إلى
 ما فيه من إنصاف اقتضى أن يصف ما فعله أعداؤه بأشياعه ، وترجم على من قتل
 من رجاله ، وسأل الله لهم حسن الثواب .

الفصل الحادي عشر

الشعر في عهد الإخشيديين

حاول محمد بن طنج الإخشيد أن يستقل بمصر وما يتبعها من بلاد الشام ، وأراد أن يكون له فيها ملك متوارث ، كما كان للطلوليين ، وقد نجح في ذلك ^(١) وساعده على الاستقلال ضعف الخلافة ، واستبداد القواد والوزراء الأتراك بأمورها ، وكثرة الفتن والثورات في حاضرتها وولاياتها .

وكان هذا الاستقلال سبباً في استمرار النهضة بالنواحي الأدبية التي بدأت تنافس من عهد الطولونيين . وكان من آثارها ظهور كتاب وشعراء مصريين ، وزيادة العناية بالنقد والرواية ، ووفادة العلماء والأدباء على هذه البلاد للتعليم أو التعليم ، وطلب الغنى والجاه فيها ، والاستقرار بها إذا طاب لهم المقام . وكان لتشجيع الأمراء ورجال الدولة أثر كبير في هذه النهضة ، فكان الإخشيد ممدحاً لفضله وأعماله ، وكان كافور أديباً أريباً محباً للعلم ، وألف الكندي له كتاب فضائل مصر ^(٢) وكان محباً للأدب حريصاً على المدح والإثابة عليه ، وكان الوزير جعفر بن الفرات المعروف بابن حنزابه فاضلاً محباً للأدب حريصاً على المدح ، معنياً بالعلم والحديث خاصة .

(١) تولى محمد بن طنج أمر مصر سنة ٣٢٣ ، ومنحه الخليفة لقب الإخشيد سنة ٣٢٧ ومات سنة ٣٣٤ ، وهي السنة التي صار الأمر فيها للبويهيين ببغداد ، وأخذ البيعة قبل موته لابنه أبي القاسم أونوجور ، فبايعه القواد وكان أونوجور صغيراً فاختر أبو المسك كافور قوماً عليه ، فاستبد بالأمر وظل صاحب السلطان في البلاد حتى مات أونوجور سنة ٣٤٩ ، وولى بعده أخوه أبو الحسن علي بن الإخشيد ، وكان صغيراً أيضاً ، فبقى السلطان لكافور ، ثم مات أبو الحسن سنة ٣٥٥ فاستأثر كافور بالأمر حتى مات سنة ٣٥٧ ، خلفه صبي من الإخشيديين اسمه أبو الفوارس أحمد بن علي ، ثم استولى عليها الفاطميون سنة ٣٥٨ هـ .

وكان في البلاد شعراء في زمن الإخشيديين ، نعد منهم صالح بن مؤنس ،
ومحمد بن الحسين بن زكريا ، ومهلل بن يموت ، وعبد الله بن أبي الجوع ، وسعيد
ابن فاخر المعروف بقاضي البقر ، والحسن بن علي الأسدي ، وصالح بن رشدين ،
والعباس البصري ، وأبا هريرة عبد الله بن أبي العصام . كما وفد عليها شعراء من
الأقطار المجاورة ، كأبي الفتح كشاجم ، وأبي الطيب المتنبّي .

وظهر في البلاد شعر متنوع الأغراض والأساليب ، ولكنه كان في جملة
مطبوعاً بطابع الروح المصرية ، ومتصلاً بالبيئة التي نشأ فيها ، ومتأثراً بالحياة التي
عاشها شعراؤه . وترى فيه المدح ، لرغبة أولئك الرؤساء فيه ، وحرصهم عليه ،
ومجازاتهم للشعراء إذا مدحوا . كما ترى فيه الهجاء إذا سخط الشاعر على هؤلاء
الرؤساء والسادة ، أو ضاق ذرعه بغير هؤلاء من الأصدقاء أو الأعداء . وترى فيه
الوصف الجميل لمناظر البلاد ومنتزهاتها التي كانت مشهورة عندئذ ، وللأديرة وما يحيط
بها من جنات ، وما يتصل بها من لهُو ومرح وشراب وصيد ، وما يكون بها من
متع وراحة نفس .

ولا يخلو مثل هذا الشعر المرح من عبث أحياناً ، ومن مبالغة قد تخرج
صاحبها على حدود الأدب أو الدين ، ولكن بعض الشعراء كانوا يجدون من
الحرية والتسامح ، وكان فيهم من ضعف الدين ، أو الرغبة في التظرف ، ما يجعل
مجاورة هذه الحدود أمراً يسيراً .

وإذا رجعت إلى هذا الشعر وجدت فيه من المدح شعراً سهلاً كتلك الأبيات
التي مدح بها صالح بن مؤنس جعفر بن الفرات وأهله ، فقال فيهم ^(١) :

قد مر عيد وعيد ما اخضر لى فيه عود

وكيف يخضر عودى والماء منه بعيد
يا من له عددُ المجد كلها والعديد
آل الفرات ندام على الفرات يزيد
وأنت فضلك فيهم عليك منه شهود
وكل يوم لغيري من راحتك مُدود
هل لي إلى الرزق ذنب فكان منه صدود
ما الناس إلا شقى في دهرنا وسعيد

وكان أبو القاسم بن أبي العفير الأنصاري ممن يعارض المتنبى ، وقد يحضر
مجلسهما كافور وبعض الوزراء ، كأبي بكر بن أبي صالح الروزباري ، وأبي الفضل
جعفر بن الفرات . وكان لأبي القاسم مدائح في الوزير أبي بكر ^(١) . كقوله :

أما الثناء فصادر بك وارد بادٍ بما تسدى إلى وعائد
لك يا أبا بكر إلى صنائع أيقظن أحوالى وجدى راقد
أوليتني نعم متى أنكرتها شهدت على مواهب وفوائد
ثم يشير إلى كثرة مدائحه فيه فيقول :

وقصائد لي فيك لولا أنها كلم شهدت بأنهن مشاهد
ولهن في عين الولي شواهد تترى ، وفي عين العدو جلامد

ومن الهجاء قصيدة قالها كشاجم في هجاء غلام له اسمه كافور ، وعرض فيها
بكافور الإخشيد ؛ إذ يقول :

حكيت سميك في برده وأخطأك اللون والرائحة ^(٢)

وقال صالح بن مؤنس قصيدة في هجاء عبد الله بن أبي الجوع رواها الثعالبي في بقيمة الدهر^(١) ، وستأتي بعض أهاجي المتنبي في مصر وفي كافور .

رثاء الأخشيد :

ولا يخلو شعرهم من رثاء :

إذ كان الرثاء وما زال مظهرآ من مظاهر الوفاء للموتى ، أو التقرب إلى الأحياء من ذوي قرباتهم ، أو مشاركة في حزن عام عند فقد العظماء .

وكان موت محمد بن طغج الإخشيد مثيراً لشاعرية بعض الشعراء فرثاه جماعة ، منهم محمد بن الحسن بن زكريا^(٢) ، في قصيدة لامية تحدث فيها عن موطن العبرة في الموت ، وأنه مدرك كل امرئ أينما كان ، والدنيا فانية ، والمنون دائرة لا مفر لأحد منها ، ثم قال :

فجعتنا بواهب لا نراه	يخلق الوجه عنده بابتدال
فجعتنا بمن حمى حرمة الإس	لام من حادث ومن ختال
فجعتنا بالباسل البطل السا	مى غداة الوغى إلى الأبطال

ويشير إلى كرمه وحرصه على المدائح بقوله :

أين من يشتري المدائح والشك
ر بأسنى وفرد وأوفى نوال
قطع الموت وصلنا منه كرها
والردى قاطع لكل اتصال
ثم ترحم عليه وسقى جدته . ثم خرج من الرثاء إلى مدح ابنه فقال :

إن خبأ بدره فقد لاح للام
ة ، لما خبا ، طلوع الهلال

(١) ج ١ ص ٣٤٧

(٢) نهاية الأرب للنويري ج ٥ ص ١٨٤

نوره مُشرقٌ مضيءٌ مدى الدهر منيرٌ وليس ذا اضمحلال
ورثاه رجل آخر من شعراء مصر اسمه مهلهل بن يموت فقال ^(١) :

أى عز مضي من الإسلام ! أى ركن أضى حديث انهدام
ذاق مَوْتاً محمد بن طُغجٍ هو ليث الشرى وغيث الغمام
ويستمر في الرثاء ولا يأتى بمعنى جديد إلى أن يقول واصفاً سعة ملكه .
فَقَدَّتْكَ الفسطاط وجداً مدى الدهر ومن بعدها بلادُ الشَّامِ
فَجُعْتُ بِشَرْبٍ ومكة والبيد ت إلى زمزم ، أجل ، والمقام
ويعتبر بمن مضي من الملوك السالفين الذين دهمتهم حوادث الأيام .

ثم ينتقل إلى تعزية ابنه أبى القاسم وتشجيعه فيقول :

أيهذا الأمير ، بل يا أبا القا سم يا بن السميدع القمقام ^(٢)
ارضَ حَكمَ الإله في الملك الما ضى وسلمٌ لنا فِذِ الأحكام
وهَنَّاكَ الذى بَلَغْتَ من الأمر وما حُزَّتْه بحسن انتظام
ما كمثل الذى رُزِيت ولا مثل الذى قد ملكت في ذا العام
أنت مثل الإخشيد فانهض بما مَلَّكَتْ بالجد منك والإعترام
وأورد النويرى قصيدة عينية للمتنبى في رثائه وتهنئته ابنه أبى القاسم فقال ::
هو الزمان مُشِيت بالذى جمعا في كل يوم نرى من صرفه بدعا
لو كان مُمتنع تغنيه مَنَعَتْهُ لم يصنع الدهر بالإخشيد ما صنعا
ثم أشار إلى نكبة الإسلام فيه فقال :

لله ما حل بالإسلام حين نُوى ! لقد وهى شعب هذا الدين فانصدعا

وجاء بأعذار عن عدم سعى اللحد إليه فقال : إنه لم يستطيع ذلك ، لأنه
 يجهل قدر من حل فيه ، ثم أعظم مصيبته عند معتفيه ومنتجميه ثم قال :
 لأن مضيت حميد الأمر مُفْتَقِداً لقد تركت حميد الأمر مُتَّبِعَا
 وهنا تخلص من الرثاء إلى مدح خلفه أبي القاسم ، ومضى في المدح فقال :
 أعطت أبا القاسم الأملاكُ يبعثها ولو آبت أخذت أسياؤه اليأس
 وانقاد أعداؤه ذُلًّا لهيبته وظل متبوعهم من خوفه تبعا
 أضحت به همُّ الغلمان عاليةً كأن مولاهم الإخشيد قد رجعا
 ولم يكن الإخشيد مجهولا في البلاد التي كان ينزلها المتنبي ، وقد عرفه وكرمه
 من قبل . فكان رثاؤه له تقديراً وجزاء .

والمتنبي أقوى هؤلاء الشعراء في رثائه ^(١) ، وليس في شعرهم جميعاً من جديد حتى
 التخلص من الرثاء إلى التهنية فإنه قديم في الأدب العربي ؛ فقد دخل عبد الله بن همام
 السلولى على يزيد بعد موت معاوية فقال ^(٢) :

اصبر يزيد فقد فارقت ذا مقعة واشكر حباء الذي بالملك حابا
 وكثر الجمع بينهما لما تقضى به المجاملة وحسن التعزية ، وكان ذلك أكثر عند
 رثاء ذوي السلطان .

* * *

(١) وكان الإخشيد بالشام في بعض السنين وبلغه خبر المتنبي ، فاستدعاه وأكرمه ، وقال
 أنشدني قصيدتك الدالية في ابن الفصيصي ، (علي ابن إبراهيم التنوخي) فأثدده ، حتى بلغ
 إلى قوله .

فلما جئته أعلى محلى وأجلسني على السبع الشداد
 تبسم قبل تسليمي عليه وألقى كيسه قبل الوساد
 فقام الإخشيد ، ولم يجلس له حتى يفرع (المغرب ص ٣٥) .

(٢) نهاية الأرب ج ٥ ص ١٨٥

(٣) العقد الفريد ج ٣ ص ١٣٢

ومن الرثاء قصيدة طريفة في موضوعها دقيقة في معانيها حرص فيها قائلها على أن تكون ذاتية لا يشرك الميت فيها أحد ، وهي التي قالها عبد الرحمن الخشاب المصري النحوى ، في أبي سعيد عبد الرحمن بن أحمد بن يونس بن عبد الأعلى الصدفى ، المؤرخ المصرى المتوفى سنة ٣٤٧ ، قال (١) :

بثت علمك تصنيفاً وتقرباً وُعدتْ بعد لذيذ العيش مندوباً
أبا سعيد ، وما نألوك إن نشرت عنك الدواوين تصديقا وتصويبا
ما زلت تلهج بالتاريخ تكتبه حتى رأيناك فى التاريخ مكتوبا
نشرت عن مصر من سكانها علماً مبجلاً بجمال القوم منصوباً
كشفت عن فخرهم للناس ماسجعت ورُقُّ الحما على الأغصان تطرباً
حُجِبَتْ عنا ، وما الدنيا بمظهرة شخصاً ، وإن جل ، إلا عاد محجوباً
كذلك الموت لا يُبْقَى على أحد مدى الليالى من الأحباب محبوباً

شعر الأديرة وما يتصل بها :

وكان فى البلاد كثير من الأديرة بعضها قريب من الفسطاط وبعضها بعيد عنها ، وكانت مواقعها جميلة على النيل أو فى سفوح الجبال ، وكان يحيط بها جنات من نخيل وأعنان ، وحدائق فيها أنواع الزهر ، وكان فيها قصف ومرح . فكثر الشعر المصرى فى وصف هذه الأديرة وما يتصل بها ، وصفاً يمزجه الشاعر بما كان من مغامرات وسكرات ، ومجالس أنس ولهو ، وطرب ورياضة ، وتمتع بالصيد والقنص ، وقد يذكره ممزوجاً بالحسرة على الزمن الماضى أو الشباب الذاهب . ومن هذه الأديرة التى اشتهرت فى الشعر المصرى : دير القصير ، ودير نهيا ، ودير طمويه ، ودير سيناء ، ودير مارحنا .

ومن الشعراء الذين تحدثوا عن دير القصير شاعر مصري اسمه أبو هريرة
ابن أبي العصام قال :

كم لي بدير القصير من قَصْفٍ مع كل ذي صبوة وذى ظَرْفٍ ^(١)
ولأبي الفتح كشاجم قصيدة يحن فيها إلى هذا الدير ، ويذكر ما كان له من
مآرب ومشارب ، وأيام سرور ولهو ، ويحكي معه جنات حلوان والنخلات فيقول :

سلام على دير القصير وسفحه	جنات حلوان إلى النخلات ^(٢)
منازلُ كانت لي بهن مآربُ	وكانت مواخيرى ومُنْتَزَهاًتي
إذا جئتها كان الجياد مراكبي	ومنصرَفي في السُّفن منحدرات
فأقنص بالأسحار وحشِيَّ عَيْنِها	وأقنص الإنسِيَّ في الظلمات
ممي كلُّ بسام أغرَّ مَهْذِبِ	على كل ما يهوى النديمُ مُوَاقِي
ولحْمانُ مما أَمْسَكَته كلابُنا	علينا ، ومما صيد في الشبكاتِ
إذا ما شئت باشرت طبخه	على كثرة من غلمتي وطَهاتي
وصفراءُ مثل التبر يحمل كأسها	شديدُ فتور الطرف واللحظات
كأن قضيبَ البان عند اهتزازه	تعلم من أعطافه الحركات
هنالك تصفو لي مشاربُ لذتي	وتصحب أيامُ السرور حياتي

وكان هذا الدير على رأس جبل مشرف على النيل قرب حلوان في طريق
الصعيد ، في غاية النزاهة والحسن ، وبه صورة مريم البتول ، وفي حجيرها السيد
المسيح ، في غاية إتقان الصنعة . وكان أهل مصر ينتابونه ، ويتزهون فيه لقربه
من الفسطاط ^(٣) .

(٢) ديوان كشاجم ص ١٩

(١) بقيمة الدهر ج ١ ص ٣٦١

(٣) خطط المقرئ ج ٢ ص ٥٠٢

وفيه يقول محمد بن عاصم المصري من أواخر دولة الإخشيد^(١) :
 إن دير القصير هاج أدكارى كهو أيامنا الحسانِ القصارِ
 وكأني إذ زرته بعد هجر لم يكن من منازلٍ وديارى
 إذ صعودى على الجيادِ إليه وانحدارى فى المنشآت الجوارى
 منزلا لست مُحْصِيًّا ما بقلبي ولنفسى فيه من الأوطارِ
 منزلا من علوه كسماء والمصاييحُ حوله كالدرارى
 كم شربنا على التصاوير فيه بصغارِ مُحْثُوثَةٍ وكبارِ
 صورة من مصور فيه ظلت فتنة للقلوب والأبصارِ
 لا وحسن العينين والشفة اللـمـياء منها وخدّها الجللانارى
 لا تخلفت عن مزارى دياراً هى فيه ، ولو نأى بى مزارى
 فسقى الله حلوان فالنجد فدير القصير صوب المشارِ
 كم تنبّهت من لذّاذة نوى بنعير الرهبانِ فى الأسجارِ
 والنواقيس صائحات تنادى حى يا نائماً على الإبتكارِ

ودير طمويه فى الغرب بإزاء حلوان ، والدير راكب البحر ، حوله الكروم
 والبساتين والنخل والشجر ، وهوزة عامر أهل ، وله فى النيل منظر حسن ، وحين
 تخضر الأرض يكون فى بساطين من البحر والزرع ، وهو أحد منزهات أهل
 مصر المذكورة ، ومواضع لهوها المشهورة^(٢) .
 ولابن أبى عاصم المصري فى هذا الدير^(٣) .
 واشرب بطمويّه من صهباء صافية تزرى بخمر قرى هيت وعانات

(١) مسالك الأبصار لابن فضل الله العمري ج ١ ص ٣٦٣

(٢) مسالك الأبصار ج ١ ص ٣٧١ نقلا عن الشاشي . (٣) خطط المقرئى ج ٢ ص ٥٠٤

على رياض من النوار زاهرة
كأن نبت الشَّقيق العُصفَرى بها
كأن زجسها من حسنه حَدَقْ
كأنما النيل في مر النسيم به
منازل كنت مفتونا بها شغفا
إذ لا أزال ملما بالصَّبوح على
تجرى الجداول فيها بين جنات
كاسات خمر بدت في إثر كاسات
في خفية يتناجى بالإشارات
مستلئم في دروع سابرِيات
وكن قدما مواخيرى وحاناتى
ضرب النواقيس صَبًا بالديارات

وكان دير مارحنا على شاطئ بركة الحبش، وكان بقره جيزة يجتمع الناس عندها ويشربون، وكان يذهب إلى هذا الدير شاعر مصرى ظريف ماجن، اسمه العباس ابن البصرى من شعراء أبى القاسم أونوجور بن الإخشيد وكان مقرباً إليه ويركب معه، ويلبس طيلسانا أزرق يتشبه بالقضاة، وكان مليح المجالسة لطيف النادرة. وللعباس شعر فى وصف الأديرة كقوله فى دير « نهيا » بالقرب من الجيزة^(١):

يا للديارات الملاح وما بها
أيام كنت وكان لى شوق بها
يا دير « نهيا » ما ذكرتك ساعة
والدهر غَضُّ والزمان مساعد
يا « دير نهيا » إن ذكرت فأننى
أسمى إليك على الخيول سبق

ثم يصف صيد الطيور وما صاده منها فيقول :

وإذا سئلت عن الطيور وصيدها
فالفرد فالكبروان فالفارور إذ
وجنوسها فاصدق وإن لم تصدق
يشجيك فى طيرانه المتحلق

أَشْهَدَتْ حَرْبَ الطَّيْرِ فِي غِيْطَانِهِ لَمَّا تَحَرَّقَ مِنْهُ كُلُّ مُحَرَّقٍ
وَالزَّمَجُ الْغَضْبَانُ فِي رَهْطِهِ لَهُ يَنْحَطُّ بَيْنَ مُرَعِّدٍ وَمُبَرِّقٍ
وَرَأَيْتُ لِلْبَازِيِّ سَطْوَةً مُوسِرَةً وَلغَيْرِهِ ذُلَّ الْفَقِيرِ الْمُلْقِ
كَمْ قَدْ صَبَوْتُ بِغَرَّتِي فِي شِرَّتِي وَقَطَعْتُ أَوْقَاتِي بِرَمِيِ الْبُسْدُقِ
وَخَلَعْتُ فِي طَلَبِ الْمَجُونِ حَبَائِلِي حَتَّى نُسِبْتُ إِلَى فَعَالِ الْأَخْرَقِ
وَمَهَاجِرٍ وَمُكَاسِرٍ وَمُنَافِرٍ قَلَقَ الْفَوَادُ بِهِ وَإِنْ لَمْ يَقْلُقِ
لَوْ عَيْنَ الثَّفَاحِ حِمْرَةَ خَدِهِ لَصَبَا إِلَى دِيْبَاجِ ذَاكَ الرُّونِقِ
يَا حَامِلَ السِّيفِ الْغَدَاةَ وَطَرَفِهِ أَمْضَى مِنَ السِّيفِ الْحَسَامِ الْمَطْلُقِ
أَرْفُقْ بِعَبْدِكَ لَا تَطْلُ أَشْجَانَهُ وَارْفُقْ بِهِ يَا صَاحِبَ الثَّغْرِ النُّقِ

وهذا شاعر آخر من شعراء الإخشيديين هو عبد الله بن محمد بن أبي الجوع
الذي صادق المتنبي وروى عنه . وكان من كبار علماء اللغة في مصر .

كان هذا الشاعر يستبق اللذات ويهرع إليها في شعبان قبل أن يدركه
الصوم ^(١) . ويدعو إخوانه إلى حفلة مريحة فيها خمر ونساء وورد وغناء فيقول :

شُعْبَانٌ قَدْ صَارَ نِصْوَا وَلَمْ نُفِدْ فِيهِ لَهْوَا
وَلَيْسَ ذَلِكَ مِنْنَا جَهْلًا ، وَلَا كَانَ سَهْوَا
فِي الْمَوَدَّةِ إِلَّا بَكَرَتْ لِلْقَصْفِ عَدْوَا
حَتَّى نَقُومَ فَتَرْفُو مَا خَرَّقَ الدَّهْرَ رَفْوَا
مِنْ بَعْدِ تَقْدِيمِ جَدِي مُسَمَّنٌ ظِلُّ يُشْوَى
لَهُ ثَلَاثُونَ يَوْمَا يُجْبَوُ إِلَى الضَّرْعِ حَبْوَا
لَمَّا انْتَزَعْتُ حَشَا عَوَضَتْهُ الْبَقْلُ حَشْوَا

وقد عنيت بِجَامٍ مَلَأْتُهُ لَكَ حُلُوى
وقهوة بنتِ كَرَمٍ صَفَتْ مِنْ الذَّمِّ صَفُوى
مَا شُعْشَعْتَ قَطًّا إِلَّا سَطَتْ عَلَى الْهَمِّ سَطُوى
جَنَّبْتُهَا كُلَّ وَغْدٍ يَمْحُو الْحَاسِنَ مَحُوى
إِلَّا إِذَا مَا اقْتَنَصْنَا عَذَبَ الْخِلَاقُ حُلُوى

وَشَادِنِ ذَى دَلَالٍ يَشْدُو فِيلْهِيكِ شَدْوى
إِمَا غَفَاءً وَإِمَا عَجَائِبًا عَنْهُ تَرْوى
حَتَّى تَظَلَّ بِمَا فِيهِ مِنْ وَقَارِكَ خِلُوى
وَعِنْدَنَا لَكَ وَرْدٌ يَحْدُو الْمَسْرَةَ حَدْوى
رِيحَانُهُ لَا يُوَازَى لُونًا وَعَطْرًا وَسَرْوى
فَمَا اعْتَذَارِكَ فِي أَنْ تُقْنَى زَمَانُكَ صَحُوى
وَأَنْتَ بَعْدَ قَلِيلٍ بِالصُّومِ، وَاللَّهِ، تُطَوِّى

والناحية اللفظية في هذه القصيدة رشيقة خفيفة مرقصة ، وهى قصيدة جميلة بما فيها من سهولة ورقة وحسن تल्प وإغراء بالطعام والشراب والغناء والريحان . وترى في هذا الوصف الخاص مقدمة لما كثر في شعر الفاطميين والأيوبيين والمماليك من تعرض للحياة الخاصة في مثل هذا الأسلوب .

وله من قصيدته التى تقدمت فى وصف « دير نهيا^(١) » : « أبيات فى الربيع :

أَوْ مَا تَرَى وَجْهَ الرَّبِيعِ وَقَدْ زَهَتْ أَنْوَارُهُ بِنَهَارِهِ الْمَتَالِقِ
وَتَجَاوَبَتْ أَطْيَارُهُ وَتَبَسَّمَتْ أَشْجَارُهُ مِنْ ثَغْرِ زَهْرِ مُورِقِ

لم يَغْدُها طل الرِّذاذِ بيرده حتى تفتَح كل جفن مطبَّق
والبدْر في وسط السماء كأنه وجهٌ مليحٌ من قناع أزرق
وللسَّاعر صالح بن موسى في وصف الربيع وآثاره وأزهاره :

أو ما ترى حسن الريا ض وما اكتسين من الزهر
وجه الربيع وحبذا وجه الربيع إذا ظهر
الوشى يُنَشِّرُ والملا حفُ والمطارفُ والخبِر
هذا البنفسجُ في الحدَا دِ بغير حزنٍ قد ظهر
وأتى البهَّارُ بِصُفْرَةٍ فلكل حسنٍ قد بهر
وكأنَّ آذِرُونَهُ كاساتُ خمر تُبْتَدَرُ
وكأنما المنثورُ عِقدٌ دُ في جوانبه انتثر
والأقحوان فضاحك عن عسجد فيه درر
وشقائق النعمان كالـ أعلامٍ تَمَّ لمن نظر
وتوردَ الورد الذكي وفاح مسكا في السحر
وتجاوبُ الطيرُ الغصو نَ بكل لحنٍ مشتهر
فغرَّدُ حسن الغينا ءِ شدا وآخرُ قد زَمَرُ
وتسرقت أنفاسنا بنسيم أنفاس السحر

وقد ترى شاعراً يقدم كتاباً إلى صديق له فيجعل التقديم شعراً ، كما فعل
الحسن بن علي الأسدي لما بعث « كتاب الأنيس » إلى صديق له : (١)
قد بعثنا بمؤنس لك في الوحـ مدة يدعى كتاب الأنيس

فيه ما يشتهي الأديب من العلف — هم وفيه جلاء هم النفوس
فيه ما شئت من بدور معان ضاحكات إلى وجوه شمس
والنفيس البهي ما زال يهدى كل حين إلى البهي النفيس

وأثر من هذا العهد نوع من الشعر الذي سميناه الشعر القضائي . ومن ذلك
أبيات قيلت في هجاء القاضي أبي بكر بن الحداد سنة ٣٢٤ والظعن في أحكامه^(١) :

قولوا لحدادنا الفقيه العالم الماهر الوجيه
وليت حكماً بغير عهد وغير عقد نظرت فيه
ثم أبحث الفروج لما وقعت فيها على البديه
هذا فعال حملت فيه وزرك مع وزر من يليه
وهل ترى ذا ولست فيه بجائر من مخالفه
أنكرت حالاً من ابن عمرو ما أنت فيه ومرتضيه
وخفت عهداً ، والله ربي لناقض العهد مبتليه
والسكر في الناس داء سوء والعجب أيضاً لمرتديه

وكانت ولايته من جهة الإخشيد ، وكان رجلاً فاضلاً عالماً فلما رميت الرقاع
في المسجد تتضمن الظعن فيه ، ومنها هذه ، أجاب جماعة من المصريين عنها .
ومدحه شاعر اسمه أحمد بن محمد بن أبي السكحال بقصيدة يقول فيها :

كالشافعي تفقهاً والأصم — سي تفكهاً ، والتابعي ترهداً

ومدحه محمد بن موسى المعروف بسبيويه بقصيدة فيها :

ما يضر البحر أمسى زاخراً أن رمى فيه صبي بحجر

وولى قضاء مصر رجل يسمى عبد الله بن أحمد بن شعيب ، ويعرف بابن
وليد . وكان القاضي محمد بن بدر يكرهه ولا يثق بأحكامه ولا بكاتبه ، فقال فيه
من قصيدة طويلة^(١) :

لو كنت تخشى قضيات المعادى لما	ألقيت فى كل أمر فاضح علما
أعنى عن الرشد فى كل الأمور فقد	أصبحت فى الدين بين الناس متهما
يا ابن الوليد تدبر ما أتيت به	ولا تكن للهوى مستكملا عما
لو كنت تسمع قول الحق معتمدا	أو كنت تخشى عذاب الله معتصما
لما استعنت بحماد اللعين ، وما	رأيت أنت له فى صالح قدما
جعلته كاتباً يمضى الأمور ولم	يمس فى العلم قرطاساً ولا قلما

وقد تولى جماعة من المصريين هجاءه أيضاً .

ولكن هذا الشعر كله — على ما فى بعضه من جمال ورقة وطرافة — ترك
الميدان لشعر المتنبي الذى روى الدهر قصائده معجبات بها ؛ فى مصر وفى غيرها
أكثر من ألف عام .

المتنبي فى مصر :

كان المتنبي فى حلب شاعر سيف الدولة ، وكان يتعالى على الشعراء ويدل
بنفسه وأدبه على الأمراء ، فكثير حاسدوه ، وملئوا نفس سيف الدولة ،
فسخط عليه . وأحس المتنبي أن حلب لم تعد المنزل الكريم الذى كان ينزله من
قبل ، ففارقها إلى دمشق غضبان أسفاً .

وكانت شهرة المتنبي الأدبية تملأ الآفاق ، فلما وصل إلى دمشق أراد ابن ملك

اليهودى — حاكمها من قبل كافور — أن يمدحه أبو الطيب ، فأبى ، وتركها إلى الرملة ؛ حيث الأمير الحسين بن طنج الإخشيد ، فمدحه ، ثم مدح أبا القاسم العلوى بعد تمتع وإباء .

حرص كافور على المتنبى :

وكان كافور يقدر أدب المتنبى ، ويعرف فضله فى الإشادة بسيف الدولة ، ونشر اسمه فى الآفاق . فما إن أحس بالنفور بينهما ، وبانتقال المتنبى إلى دمشق حتى طلبه من ابن ملك . فلما ارتحل إلى الرملة طلبه من أميرها الحسين بن طنج الإخشيد .

مدحه وهجاؤه لكافور :

وجاء المتنبى إلى كافور بمصر فنزل عنده منزلاً كريماً ؛ ولكنه جاء وفى نفسه أشد الأسف لفراق سيف الدولة ، والتبرم بالأعداء الذين أوقعوا بينهما ، والسخط على الأصدقاء الذين لا وفاء عندهم ، وكان كبير الآمال طامعاً فى الحكم . فقدم على كافور راجياً أن يهب له ضيعة أو ولاية ؛ ولهذا نرى أكثر شعره فى مصر يدور حول هذه الأغراض : الحنين إلى العهد القديم ، والأمل فى المستقبل الباسم عند كافور ، والشكوى من الأيام والناس لما لقي منهم ، والفخر بنفسه وبأصله . وقد تجمد ذلك كله فى أول قصيدة مدح بها كافوراً ، لما وفد عليه سنة ٣٤٦ . وهى التى مطلعها :

كفى بك داءً أن ترى الموت شافياً وحسبُ النسايا أن يكسُنَ أمانياً
تمنيهاً لما تمنيتَ أن ترى صديقاً فأعيا ، أو عدواً مُداجياً

ومنها :

حَبَّبْتُكَ قَلْبِي قَبْلَ حُبِّكَ مِنْ نَأْيٍ وَقَدْ كَانَ غَدَارًا فَكُنْ لِي وَافِيَا
وَأَعْلَمْ أَنَّ الْبَيْنَ يَشْكِيكَ بَعْدَهُ فَلَسْتُ فَوَادِي إِنْ رَأَيْتُكَ شَاكِيَا
وَتَحَدَّثَ عَنْ خَيْلِهِ الَّتِي سَارَتْ :

قَوَاصِدَ كَافُورٍ تَوَارَكَ غَيْرُهُ وَمَنْ قَصَدَ الْبَحْرَ اسْتَقَلَّ السَّوَاكِيَا
فَجَاءَتْ بِنَا إِنْسَانًا عَيْنَ زَمَانِهِ وَخَلَّتْ بِيَاضًا خَلْفَهَا وَمَآكِيَا
ثُمَّ يَخَاطِبُهُ فَيَقُولُ :

أَبَا كُلِّ طَيْبٍ ، لَا أَبَا الْمَسْكِ وَحْدَهُ وَكُلِّ سَجَابٍ ، لَا أَخْصُ الْعَوَادِيَا
وَيَسْأَلُهُ مَا يَرِيدُ فِي قَوْلِهِ :

وغيرُ كثيرٍ أَنْ يَزُورَكَ رَاجِلٌ فَيَرْجِعَ مَلَكًا لِلْعِرَاقِينِ وَالْيَسَا
فَقَدْ تَهَبَّ الْجَيْشَ الَّذِي جَاءَ غَازِيَا لِسَائِلِكَ الْفَرْدِ الَّذِي جَاءَ عَافِيَا

ويقول صاحب الصبح المنبئ^(١) : إِنَّ أَبَا الطَّيِّبِ سَأَلَ كَافُورًا أَنْ يُولِيَهُ صِيْدَاءَ مِنْ
بِلَادِ الشَّامِ ، أَوْ غَيْرَهَا مِنْ بِلَادِ الصَّعِيدِ فَأَبَى ، وَأَلَحَّ أَبُو الطَّيِّبِ ، فَقَالَ لِكَافُورٍ فِي
شَوَالِ سَنَةِ ٣٤٧ هـ :

أَبَا الْمَسْكِ هَلْ فِي الْكَأْسِ فَضْلٌ أَنَالَهُ فَإِنِّي أَغْنِي مِنْذُ حِينٍ وَتَشْرَبُ
وَهَبْتَ عَلَى مَقْدَارِ كَسْفِي زَمَانَنَا وَنَفْسِي عَلَى مَقْدَارِ كَفِّئِكَ أَتَطْلُبُ
إِذَا لَمْ تَسْنُطْ بِي ضَمِيْعَةً أَوْ وَلايَةً فَجُودُكَ يَكْسُونِي وَشُغْلُكَ يَسْلُبُ

وَلَا تَخْلُو قَصَائِدَهُ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْ هَذِهِ الْمَعَانِي أَوْ أَكْثَرِهَا ، وَقَدْ يَضِيفُ إِلَيْهَا
هَتَابًا أَوْ اسْتِبْطَاءً ، وَلَكِنْ كَافُورًا أَكْتَفَى بِالْمَالِ الَّذِي كَانَ يَهْبُ لَهْ ، وَالتَّكْرِيمِ الَّذِي
كَانَ يَخْصُهُ بِهِ . وَلَمْ يَعْطِهِ ضَمِيْعَةً وَلَا وَلايَةً . فَامْتَنَعَ الْمُتَنَبِّي عَنْ مَدْحِهِ زَمَنًا ، وَضَاقَ ذَرْعًا

به وبمن حوله ، وما لقيه منهم من جفاء وإعراض ، وحبسه كافور عن الرحيل ،
فاحتال حتى خرج من مصر في يوم العيد سنة ٣٥٠ بعد أن قال في هجاء كافور
قصيدة دالية مقذعة مطلعها :

عيدٌ بأية حال عدت يا عيدُ بما مضى أم بأمر فيك تجديد

وطعن فيها كافورا طعنات جارحة إذ يقول :

إني نزلت بكذابين ، ضيفهم عن القيرى وعن الترحال محدود
جودُ الرجال من الأيدي ، وجودهم من اللسان ، فلا كانوا ولا الجودُ !
ما يقبض الموتُ نفساً من نفوسهم إلا وفي يده من تنهها عودُ
من كل رِخْوٍ وكاءِ البطنِ منفَتِقِ لا في الرجال ولا في النسوان معدودُ
أكلما اغتال عبد سوء سيدة أو خانه فله في مصر تمهيدُ !
صار الخصى إمام الآبقين بها فالحرُّ مستعبدٌ ، والعبد معبود
نامت نواطير مصر عن ثعالبها فقد بَشِمْنَ وما تفنى العناقيدُ
العبد ليس لحر صالح بأخ لو أنه في ثياب الحرِّ مولود
لا تشتري العبد إلا والعصا معه إن العبيد لأنجاسٌ مناكيدُ
إلى آخر هذه القصيدة .

وهجاء ، وذم أهل مصر معه ، وحرص على قتله ، فقال :

سادات كل أناس من نفوسهم وسادة المسلمين الأعبد القزمُ
أغاية الدين أن تحفوا شواربكم يا أمةً سخكت من جهلها الأثم
ألا فتى يورد الهندى هامته كيما تزول شكوك الناس والتهم !

ويقول في مصر وما فيها من المضحكات وانقلاب الأوضاع كارتفاع الوزير ابن الفرات وكافور ، اللذين سادا وخضعت لهما الرقاب .

وكم ذا بمصر من المضحكات ولكنّه ضحك كالْبُكا
بها نَبَطِيٌّ من أهل السواد يُدرّسُ أنساب أهل العُلا
وأُسود مشفّره نصفه يُقال له أنت يدرُ الدُّجى !

أراد بالنبطي الوزير ابن الفرات . وأراد أن يثير أهل البلاد على كافور ووزيره . فاتهمه بقتل مولاه بعد خيائته ، وعجب أن يكون ذلك مبرراً للحكم في مصر ، وتحدث عن أصله الذي لا يرفعه إلى أى مقام ، بله الإمارة ، وحرص عليه علانية « كما تزول شكوك الناس واتهم » .

بعض خصائص المدح والهجاء عنده:

ويظهر أن المتنبي اعتمد كثيراً على اسم كافور وأصله وجسمه ولونه في مدحه وهجائه له ، كما كان يحاول ذلك في أكثر مدحه وهجائه ، وتراه يحسن الانتفاع بذلك إلى حد كبير ، فيجعل أبا المسك « أبا كل طيب لا أبا المسك وحده » . ويرى أن كنيته بأبي المسك ليست من ذلك العطر الأسود ولكنها من عطر الثناء عليه :

وَمِسْكٌ يَكْنَى بِهِ لَيْسَ بِالْمِسْكِ وَلَكِنَّهُ أَرِيحُ الثَّنَاءِ

وأن سواد الجلد ليس أمراً إذا قيس ببياض النفس وصفائها :

إِنَّمَا الْجِلْدُ مُلْبَسٌ ، وَابْيَضَاضُ النَّفْسِ خَيْرٌ مِنْ ابْيَضَاضِ الْقَبَاءِ

بل جاوز المتنبي هذا الحد ، فجعل السواد أمنية الملوك ، ولكن من

لهم به !

مَنْ لَبِيضُ الْمُلُوكِ أَنْ تَبَدَّلَ اللَّـهُونَ يَلُونِ الْأَسْتَاذِ وَالسَّحْنَاءِ

ولسكنه حين يستخط ويقسو على كافور يذيقه العذاب الأليم من هذه العيوب
فيجعله — فيما رأينا — « رِخْوَ وكاء البطن » ، لا يمد في الرجال ولا في النسوان
ويجعله « أمة حبلى » « وأسود مشفره نصفه » ، وينكر عليه أن يصل إلى
أى فضل أو مكرمه لأنه وضيع الأصل :

من عَلمَ الأسودَ المَخْصَى مَكْرَمَةً أَقْوَمُهُ البَيضُ أمَ آبَاؤُهُ الصَّيْدُ
أمَ أذْنُهُ في يدِ الفَخَّاسِ دَامِيَةً أمَ قَدْرُهُ وَهُوَ بِالْفَلَسَيْنِ مَرْدُودُ
وَيَصْغُرُهُ بِتَصْغِيرِ اسْمِهِ ، فيقول :

أُولَى اللِّثَامِ كُؤَيْبِفِيرٌ بِمَعْذَرَةٍ في كُلِّ لَوْمٍ ، وَبَعْضُ العُذْرِ تَقْنِيدُ
وَذَاكَ أَنَّ الفَحُولَ البَيضَ عَاجِزَةٌ عَنِ الْجَمِيلِ فَكَيْفَ الخِصْيَةِ السُّودُ
وَيَسْخَرُ مِنْهُ فيقول :

وَيَعْجِبُنِي فِي النَّمْلِ رَجْلَاكَ إِنِّي رَأَيْتُكَ ذَا نَعْلٍ إِذَا كُنْتَ حَافِيَا
وَإِنَّكَ لَا تَدْرِي أَلَوْنُكَ أَسْوَدُ مِنَ الْجَهْلِ ، أَمْ قَدْ صَارَ أَبْيَضَ صَافِيَا
وَيَجْعَلُهُ غَايَةً فِي إِثَارَةِ الضَّحْكَ وَطَرْدِ أَحْزَانِ التَّكَالِي ، فيقول له :

وَمِثْلَكَ يُوْتَى مِنْ بِلَادٍ بَعِيدَةٍ لِيَضْحَكَ رَبَاتِ الحِدَادِ البَوَاكِيا

أما أصل كافور فكان موضع عناية أبي الطيب مدحاً وهجاء ، وكان يبدع
حينما يغالط على طريقة الشعراء ، فيجعل أفعال كافور تغنى عن النسب فيقول :
وَيَغْنِيكَ عَمَّا يَنْسُبُ النَّاسُ أَنَّهُ إِلَيْكَ تَنَاهَى المَكْرُمَاتُ وَتُنْسَبُ
وَأَيُّ قَبِيلٍ يَسْتَحَقُّكَ قَدْرُهُ ! مَعَدُّ بْنُ عَدْنَانَ فِدَاكَ وَيَعْرُبُ

ثم هجا أصله فردة أسفل سافلين ، وذمه وذم كل عبد معه إذ قال : « إن العبيد

لأنجاس منكيد » وقال : « العبد ليس لحر صالح بأخ » ، وشعراً كثيراً في رقه ،
وبعده عن المكارم لضعة أصله ، وبطء نسبه .

وكان هذا الاعتماد على اللون والاسم والأصل والجسم إبداعاً من المتنبي
في عصر ساد فيه البديع ، ولكنك لا تحس بشيء من التكلف في تلاعب المتنبي
باسم كافور أو لقبه أو لونه ، إذ أنه كان يرى بعقله وذكائه مواطن المدح والذم في هذه
النواحي ، فيصوغها صياغة فريدة تبعدها عن التكلف والثقل .

حساده بمصر :

وكان لأبي الطيب حساد بمصر نقدوا أدبه ، وحرفوا معانيه ، وتبعوا عثراته ،
ومن هؤلاء : الوزير جعفر بن الفرات الملقب بابن حنزابه ، ومحمد بن موسى الملقب
بسيبويه المصري ، والشاعر صالح بن مؤنس ، وكان أصل هذا الحسد أو العداوة
أن المتنبي أبى أن يمدح هذا الوزير فسخط عليه ، وأثار خوف كافور منه . فكان
سبباً في حرمانه أن ينال ضيعة أو ولاية كما كان يرجو .

أما سيبويه المصري فكان نحويّاً أديباً ناقداً ، ولعل ابن حنزابه أثاره على
المتنبي فكان يتلمس أخطائه ويذيعها . ومن ذلك أنه عاب عليه قوله :

أبا المسك هل في الكأس فضل أنا له فإني أغنى منذُ حينٍ وتشربُ
وعد ذلك استهانة بكافور واتهاماً له بالبخل ، وعد من قلة الذوق أن يقول
المتنبي لكافور :

وما طربى لما رأيتك بدعة لقد كنت أرجو أن أراك فاطرب

وقال إنه جعل الأمير كالقرد يتراحم الناس عليه ليطربوا برؤية ألعيبه .

ويُجهل المتنبي بالنحو لأنه رفع الفعل (أطرب) والواجب أن ينصب لأنه

معطوف على « أرى » .

وروى أن سيبيويه كان يقول : مدح الناس المتنبي لقوله :

ومن نكّـد الدنيا على الحرّ أن يرى عدوّاً له ما من صداقته بُدّ
ولو قال : « من مداراته أو مداجاته بد » لكان أحسن . وقيل إن المتنبي
اجتاز به فقال له : بلغني أنك أنكرت على قولي : « عدوّاً له ما من صداقته بد »
فما كان الصواب عندك ؟ فقال له : إن الصداقة مشتقة من الصدق في المودة ،
ولا يسمى الصديق صديقاً وهو كاذب في مودته ، فالصداقة إذاً ضد العداوة ،
ولا موقع لها في هذا الموضع . وجاءه بشاهد من الشعر . فتبسم المتنبي وانصرف
وسيبيويه يصيح عليه : أبكم الرجل وجلال الله ^(١) .

وقول المتنبي قول شاعر يتصرف في اللغة أكثر من حدود القواميس .
ولا أظنه كان يعجز عن الرد على سيبيويه ، وأن يخرج البيت على أن المراد بالصداقة
آثارها كالتبسم والتلطف والمجاملة الخ ، ولكن المتنبي أهمله هنا كما أهمل ابن خالويه
وأمثاله في الشام ، وأظن ابتسامته بعد ما سمع نقد سيبيويه كانت ابتسامته استهزاء .
على أن المدح الذي يشمل من المعاني ما يخرج كافوراً أو يحقر من شأنه كان
أشدّ فعلاً في نفس كافور ، كالبیت المتقدم ، « وما طربى لما رأيتك بدعة » .
وقوله :

ولله سر في علاك ، وإما كلام العدا ضرب من الهذيان

وكذلك كان إكثار أبي الطيب من الإشارة إلى سواده في مدحه ؛ مهما أجاد
في ذلك .

وكان المتنبي بمصر من يعجب به وروى شعره من الأدباء ، كأبي علي صالح
ابن رشدين الكاتب الشاعر . يقول فيه صاحب يتيمة الدهر ^(٢) « أحد أئمة
الكتاب ، المهرة في سائر الآداب ؛ صحب المتنبي وروى شعره » .

(١) الصبح المنبى ص ١١٨ وما بعدها على هامش العكبري ج ١

(٢) ج ١ ص ٣٥٧

ومنهم عبد الله بن أبي الجوع الأديب الكاتب الشاعر « أحد رواة المتنبي الأديباء ، وأصحابه العلماء ، ومن تهر في لغة العرب ، وأجاد أنواع الأدب ^(١) » .
وسبق له بعض الشعر الجميل .

وصف مصر :

ويؤخذ على المتنبي أنه فتح عينيه على جمال الريف المصري ، وعظمة النيل ، وضخامة الأهرام ، فلم تحرك مشاعره هذه المناظر ، ولم تثر خياله تلك العجائب ، ولم يؤثر عنه إلا بيت واحد في الأهرام ، قاله عرضاً في رثاء فانتك أبي شجاع : وهو
أين الذي الهرمان من بنيانه ما قومه؟ ما يومه؟ ما المصراع؟
تتخلف الآثار عن أصحابها حيناً ، ويدركها الفناء فتتبع
والحق أنه كان منصرفاً عن هذا كله ، كما انصرف عما رأى بالشام من جمال المناظر وسحر الطبيعة ، لأنه كان مشغولاً بأشياء آخر ملكت عليه فؤاده وشعوره ؛ كطلب المال والولاية ، فانصرف إلى المدح والمهجاء والفخر وشكوى الزمان وسوء الحظ ، ولو أنه انصرف إلى شيء من وصف الطبيعة والآثار لجرى لسانه بالسحر الحلال ، كما فعل عندما وصف شعب بوان ، عرضاً ، وهو ذاهب إلى مدح عضد الدولة .

وصف الحمى :

وقد أثرت ظروفه الخاصة في شعره ، ومن ذلك قصيدته التي يصف فيها الحمى لما أصابته بمصر ، وصفاً بديعاً يعد من عيون الشعر العربي ، واستقلت القصيدة به إلا قليلاً من الأبيات التي لم تخل من شكوى أو حكمة أو شبه ذلك ؛ فإنه شكاً فيها النفاق

وشك في الود . ولعل الدافع إليها كان الشكوى من الزمان ، والرغبة في الفخر
أكثر من وصف الحمى حيث يقول :

فلما صار ودُّ الناس خيباً جزيتُ على ابتسامٍ بابتسامٍ
وصرت أشك فيمن أصطفيه لعلمي أنه بعض الأنام
ومنها :

ولم أر في عيوب الناس شيئاً كنقص القادرين على التمام
ويبدأ حديثه عن الحمى وما فعلت به فيقول إنها أقعدته وألزمته الفراش ،
واستمع إليه وهو يقول :

أقت بأرض مصر فلا ورأى تحبُّ بي المطى ولا أمانى
وملستنى الفراش وكان جنبي يملُّ لقاءه في كل عام
قليل عائدى ، سقيم فؤادى كثير حاسدى ، صعب مرأى
عليلى الجسم ، ممتنع القيام شديد السكر من غير المدام

وكانت تزوره غبا ، وتضنيه ليلا ، وتوسمه سقاما ، وتفرقه في عرقه ، وكان
يخشى موعدها ، ويكره صدقها ، ويحس بذلك كله في نفسه ، فينطلق به لسانه
مصبوغاً بصبغة أدبه من قوة التعبير ، وضخامة الألفاظ ، وحسن التعليل وجمال
الخيال فيقول :

وزارتى كأنَّ بها حياءَ فليسَ تزورُ إلا في الظلام
بذلت لها المطارفَ والحشايا فعافتها وباتت في عظامي
يضيقُ الجلدُ عن نفسى وعنهما فتوسعه بأنواع السقام

وانظر إلى التعليل الغريب لما يصيبه من عرق الحمى عند انتهاء نوبتها إذ يقول :
إذا ما فارقتنى غسلتنى كأننا عاكفان على حرام
كان الصبح يطردها فتجرى مدامعها بأربعة سجام

أراقبُ وقتها من غير شوق مراقبةَ المُشوقِ المُستَهامِ
ويصدقُ وعدُّها ، والصدقُ شرُّ إذا ألقاك في الكُربِ العِظامِ
ويعجب من وصولها إليه على رغمِ الشدائدِ التي تراحت ، وكانت جديرة أن
تحولَ بينها وبينه فيقول :

أبِنتَ الدهر ، عندى كلُّ بنتٍ فكيفَ وَصَلتِ أنتِ من الزَّحامِ !
جرحتُ مُجرَّحاً لم يبق فيه مكانٌ للسيوفِ ولا السَّهامِ
ثم يحصر على أن يتخلص إلى الفخر والشكوى فيقول :

يقول لى الطبيب أكلت شيئاً وداؤك فى شرابك والطعامِ
وما فى طبِّه أنى جَوادُ أضراً بحسمه طول الحمامِ
ثم يقول :

فإن أمرض فما مرض اضطبارى وإن أضمم فما ضمَّ اعتزاي
وإن أسلم فما أبقي ، ولكن سلمتُ من الحمامِ إلى الحمامِ
ورى كثير آمن الأبيات التى تسير مسير الأمثال فى هذه القصيدة ، كما ترى بعض
المعانى المتأثرة بالفلسفة فى صورة أدبية قوية كالبيت الأخير .

صلته بأبى شجاع فاتك .

وهناك وال آخر مدحه المتنبي بمصر ، ورثاه بعد موته ، وصدقته المحبة فى شعره
مادحاً ورائياً ، هو أبو شجاع فاتك ، الذى كان مولى للأخشيد مع كافور . وكان يحكم
القيوم ويقيم بها ، واشتدت به العلة فقدم مصر للتداوى سنة ٣٤٨ ، وأبو الطيب
فيها . وكان يسأل عنه قبل أن يراه ؛ ثم التقيا ، وأهدى إليه فاتك هدايا متتابعة
كانت أولها ألف دينار . فاستأذن أبو الطيب كافوراً فى مدحه فأذن له ، فمدحه

بقصيدة من خير قصائده مطلعها :

لا خيلَ عندك تهديها ولا مالٌ فَلْيُسْعِدِ النطق إن لم يُسْعِدِ الحال
واجزِ الأمير الذي نعماءُ فاجئته بغير قولٍ ، ونعمى الناس أقوال
وكان فاتك يلقب المجنون لشجاعته فقال فيه .

وقد يلقبه المجنون حاسده إذا اختلطن وبعض العقل عقال
إذا العدى نشبت فيهم مخالبه لم يجتمع لهم حلم ورثـال
وظل المتنبى وفيأ له بعد موته ورثاه بعد أن ترك مصر سنة ٣٥٠ في القصيدة
العينية التي مطلعها :

الحزن يقلق والتجمل يردع والدمع بينهما عصي طيِّع
وهي من المراثي الفائقة . ورثاه بأبيات في قصيدة أخرى قالها بعد خروجه
من بغداد سنة ٣٥٢ مطلعها :

* حتام نحن نساوى النجم في الظلم *

وقد ضرب مثلاً عظيماً في الوفاء بهذا الرثاء .

ثم يأتى الفاطميون إلى مصر وتستقل عن العباسيين استقلالاً يظهر أثره في
أدب العصر التالى .

الفصل الثاني عشر

المؤثرات في هذا الأدب

يتأثر الأدب بمؤثرات متعددة تطبعه بطوابع خاصة ، وتزاحم هذه المؤثرات أحياناً ، وتعاون أحياناً ، ويختفي بعضها ، كما يغلب بعضها ويكون صاحب الأثر الأول . والمؤثرات التي يُحتمل أنها أثرت في هذا الأدب ، أو كان يجب أن تؤثر فيه هي :

١ — البيئة :

ونقصد بها مصر بنهرها العظيم ، وواديها الخصيب ، وزروعها الفاضرة ، وجناتها الظليلة المثمرة ، وصحرائها الشاسعة ، وجبالها الكثيرة ، وهوائها الجميل ، وجوها المتبدل .

وهذه البيئة لم تترك في الأدب العربي إلا آثاراً قليلة كرسالة عمرو في وصف البلاد ، وهي أقوى ما أثر ، على الرغم من أنها لم تكن مقصودة لذاتها — وهناك أبيات ثلاثة قالها ابن قيس الرقيات في « حلوان ذى الكروم » وما حولها ، وأبيات له في وصف السفن التي غدت من الكريون « إلى حلوان تستبق ^(١) » . وقد تجد بعض أسماء الأماكن المصرية ، واسم مصر نفسها ، يتردد كثيراً في الأدب ، والشعر خاصة ، ولكنه لا يتجاوز سرد الأسماء .

ولا نجد وصفاً أدبياً جميلاً لهذه البيئة ، أو أدباً من وحيها إلا في عهد الإخشيديين لما ظهر شعراء الأديرة الذين وصفوا ماحولها من متزهات؛ وتحدثوا عنها في الربيع فأكثرُوا الحديث عن أزهارها وأطيَارها ، ومرضوا ذلك بذكريات الأيام الجميلة التي استمتعوا فيها بالشباب والشراب والصيد واللهو في تلك المتزهات والأديار .

وأما النيل فكان وحيه ضعيفاً إلى الأدباء على الرغم من قوته وسحره ، وخيراته ووضوح آثاره واختلاف أحواله على مدى العام . ومن هذا الوحي الضعيف قول نصيب في مدح عبد العزيز بن مروان ، يشبهه بالنيل في الكرم والخير .

فبشر أهل مصر فقد أتاهم مع النيل الذي في مصر نيل
وقول أبي نواس يقرن الخصب به في اليمن والبركة :

النيل ينعمش مأؤه مصرا ونذاك ينعمش أهله النعمر
وقوله في ذم أهل البلاد :

أموالكم حجة والبخل عارضها والنيل مع جوده فيه التماسيح

وقد ترى أحاديث عنه في الكلام عن العجائب ، أو حين التحدث عنه جغرافياً كوصفه من منبعه إلى مصبه ، وهو وصف لم يقصد به الأدب .

٢ — الثقافة :

وشاعت في البلاد من أول الإسلام ثقافة إسلامية عمادها العلوم الشرعية واللسانية ثم شاركتها الثقافة العقلية ، ولم يكن لهذه الثقافة في الأدب المحض ، بشعره ونثره ، أثر يذكر ، ولكن كان لها أثر قوى في مجالس العلم وكتب العلماء ، ومناظرات أهل المذاهب والعقائد ، يبدو في الموضوعات التي كان يدرسها أولئك العلماء ، وفي طرق البحث كالمناية بالاستقصاء ، والاعتماد على المنطق المنظم والغوص وراء المعاني الدقيقة ، والتماس الأسباب والعلل . وغير ذلك مما يطبع مجالس العلم وأبحاث العلوم . وفي كتب الفقه عند الشافعية والمالكية والحنفية بمصر كثير من

هذه المجالس والمناظرات . وأمثلة للغة العلم والجدل . أوضحها استخدام ألفاظ ومجل اصطلاحية محدودة المعاني دقيقة الاستعمال .

وإذا كان لمدرسة الاسكندرية ، أو لقوانين الرومان أثر في العقل العربي . والتشريع الإسلامي بمصر فقد كان ضعيفاً أيضاً تتلمسه تلمسا . وأكثر تأثرها بالفلسفة اليونانية كان عن طريق العراق .

ومن آثار الثقافة الإسلامية في الأدب ما تراه في اقتباسه لغة القرآن الكريم كقول المولى الطائي :

لا نلتقي أبداً معاينة حتى نقوم لربنا صفاء
وقول الجيشي في آل طولون :

فأصبحوا لا ترى إلا مساكنهم كأنها من زمان غاب ذهبها
وكم تركوا من جنّة أنف ومن نعيم جنى من غدرهم غضبا
وقوله في شوق البلاد إلى ابن الخليلج :

وما شوقها كان من طبعها ولاكن ربك أوحى لها
وقول سعيد القاص لبدر الحماني المتغلب على ابن الخليلج :
فاسعد بنصر الله والفتح الذي عظمت به النعمى على الأبرار

٣ — القصد :

وللغة دأثره في الأدب فإنه يبصر الشعراء والكتاب بعيوبهم ، ويدعوهم إلى التجديد أو الإفادة . وكان بمصر نقد أدبي يخشى . ونسمع به لأول مرة في عهد عبد العزيز ابن مروان عندما وفد نصيب عليه وأراد أن يصل بمدحه إلى مسامعه ، فحذره صاحبه المصري أن ينتحل ؛ لأن الأمير أديب راوية وعنده رواية^(١) خبراء . وانظر إلى قول أمية بن أبي عائذ في عبد العزيز^(٢) :

تسير بمدحى عبد العزيز ز ركباً مكة والمنجدونا

مَحْبَرَةٌ مِنْ صَرِيحِ الْكَلَامِ لَيْسَتْ كَمَا لَفَّقَ الْمُحَدِّثُونَ
وَكَانَ امْرَأً سَيِّدًا مَاجِدًا يَصِفُ الْعَتِيقَ وَيَنْفِي الْمُهْجِينَ
وَكَانَ بِمِصْرَ رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ سَرَجُ الْغَوْلِ يَسْتَدْعِيهِ الشَّافِعِيُّ لِيُنَظِّرَهُ وَيَذَاكِرَهُ ،
وَكَانَ هَذَا الرَّجُلُ عَالِمًا بِاللُّغَةِ ، وَلَا يَقُولُ أَحَدٌ شَيْئًا مِنَ الشَّعْرِ إِلَّا عَرَضَهُ عَلَيْهِ ^(١) .
وَنَسْمَعُ بِهَذَا النِّقْدِ مَرَّةً أُخْرَى فِي هِجَاءِ أَبِي تَمَامٍ لِيُوسُفَ السَّرَاجِ الَّذِي عَابَ
عَلَيْهِ مِيلَهُ عَنِ السَّهْلِ مِنَ الْمَعَانِي حَتَّى احْتَأَجَتْ فِي فَهْمِهَا إِلَى فَلَاسِفَةِ الْيُونَانِ ^(٢) .
وَلَكِنْ مَا أَثَرَ هَذَا النِّقْدِ فِي نَفْسِ السَّرَاجِ ؟

وَنَسْمَعُ بَعْدَ ذَلِكَ بَوَاقِعَ مَعِينَةٍ فِي النِّقْدِ عِنْدَمَا جَاءَ الْمُتَنَبِّيُّ إِلَى مِصْرَ ، فَأَنَارَ عَلَيْهِ
ثَأْرَةَ سَيِّبُوهِ الْمِصْرِيِّ وَصَالِحِ ابْنِ مَوْسَى وَغَيْرِهَا بِسَبَبِ مَا رَأَوْهُ مِنْ عَيُوبٍ لَفْظِيَّةٍ
وَمَعْنَوِيَّةٍ فِي شَعْرِهِ ، وَلَمْ يَتْرِكْ هَذَا النِّقْدُ أَىْ أَثَرٍ فِيهِ لِاعْتِدَادِهِ بِنَفْسِهِ .

لَكِنْ دَرَسَةُ الْأَدَبِ وَنِقْدُهُ فِي مِصْرَ قَدْ تَرَكَ أَثْرًا فِي الْأَدْبَاءِ وَتَوَجَّهًا لَهُمْ بِمَا
كَانَ يَقُومُ بِهِ أَسَاتِذَةُ النُّحُوِّ وَرَوَاةُ الْأَدَبِ مِنْ ثَنَاءٍ وَذَمٍّ لِبَعْضِ الشُّعْرَاءِ ، أَوْ بَعْضِ
النُّصُوصِ وَكَانَ لِهَذَا النِّقْدِ وَالدِّرَاسَةِ مَجَالِسٌ فِي الْمَسَاجِدِ أَوْ فِي بُيُوتِ الْخَاصَّةِ ،
وَقَدْ يَخْتَلِطَانِ بِدُرُوسِ النُّحُوِّ عِنْدَمَا يَسْتَطِرِدُّ الْعَالَمُ مِنَ الشَّاهِدِ إِلَى بَقِيَّةِ الْقَصِيدَةِ
أَوْ عِنْدَمَا يَنْقُدُ الْبَيْتَ أَوْ الْأَبْيَاتَ الَّتِي يَمْرُضُ لَهَا . كَمَا كَانَا يَتَصَلَّانِ بِرَوَايَةِ
الْأَخْبَارِ وَالْأَشْعَارِ .

٤ — الْإِتِّجَاهُ الْأَدَبِيُّ الْعَامُ :

وَنَذَكِّرُ جَيِّدًا أَنَّ تَأْثِيرَ الْأَدَبِ الْعَرَبِيِّ الْعَامِ وَبِخَاصَّةٍ فِي حَوَاضِرِ الْخِلَافَةِ كَانَ لَهُ
أَثَرُهُ فِي الْأَدَبِ الْعَرَبِيِّ بِمِصْرَ . فَالشُّعْرَاءُ الَّذِينَ رَحَلُوا إِلَى مِصْرَ كَانَتْ مَدَائِحُهُمْ لِعَبْدِ
الْعَزِيزِ بْنِ مَرْوَانَ مُتَقَارِبَةً ، وَكَانَتْ صُورَةٌ مِنَ الْمَدَائِحِ الْعَامَةِ الَّتِي كَانَ يَفْدِي بِهَا غَيْرَهُمْ
مِنَ الشُّعْرَاءِ . وَيُقَالُ مِثْلَ ذَلِكَ فِي الْمَدْحِ أَوْ الْهَجَاءِ الَّذِي رَأَيْنَاهُ مِنْ أَبِي نَوَاسٍ وَأَبِي
تَمَامٍ وَدُعْبَلٍ ، وَإِنْ اخْتَلَفَتْ الْأَسَالِيبُ وَالْعِبَارَاتُ .

والأدب المحلى كان يتأثر بهذا الأدب العام كثيراً، وانظر إلى مدحة المعلّى لعبد الله بن طاهر، وهجاء الحسين الجمل لابن وهب^(١).

ولما شاعت المحسنات البديعية في العراق ظهر أثرها في مصر. وكانت الكتابة في العراق ذات أثر بعيد في الكتابة المصرية حتى في عهد الطولونيين والأخشيدين وتعليل ذلك يسير فقد كانت الحواضر وما زالت ذات نفوذ واسع على غيرها من أمصار الدولة، في الأدب والثقافة والفنون، ويقلدها النازحون عن هذه الحواضر إكباراً لها ولرجالها. فإذا ضعفت سيطرتها ظهر استقلال الأمصار بأدبها وظهرت فيه طوابع محلية خاصة تميزه من غيره.

٥ — التاريخ الحديث :

أما تاريخ البلاد من الفتح الإسلامي، فكان مسيطراً إلى حد كبير على أدبها، وقد رأينا صداه في الرسائل والخطب، وظل هذا الصدى قوياً فيما قيل من أشعار في الأحداث والفتن والحروب والمناسبات التاريخية، كما بيناه في ثنايا الكتاب.

٦ — التاريخ القديم :

ولكن لهذه البلاد تاريخاً قديماً، وحضارة عظيمة عاشت آلاف السنين، وكان لأهلها في هذه الآلاف من السنين علوم وفنون خلّدتها آثار لا تحشى البلى، على سطح الأرض وفي جوفها. وكان للبلاد أدبها الذي نبتت أساطيره قبل الملك « مينا »؛ وتنوع، ونقش على الصخر، وسطر على البردى.

وكانت آثار البلاد كثيرة بعضها شامخ كالأهرام الكثيرة المتفرقة في أنحاء البلاد، والمسلات الباسقات، والمعابد والبرابي، في الأقصر، والكرنك ودندره وأخميم، وغيرها من مواطن الآثار الفرعونية، كما كانت الاسكندرية موطن الفن اليوناني والروماني ومن أشهر آثاره المنارة وعمود السواري.

(١) ص ٢٠٨، ٢١٣ من هذا الكتاب.

وسمى العرب هذه الآثار بالعجائب ، وعد الجاحظ منها عشرين عجيبة ، فيما نقله عنه المقرئى^(١) .

وما خفى من هذه الآثار فى جوف الأرض كان عظيماً أيضاً ، ولم يسلم من العبث به وهتك أستاره منذ العهود القديمة . ولم يكف لصوص المقابر عن انتهاك حرمتها طلباً للذهب الذى كان يملؤها .

وليس غريباً أن نجد المصريين فى الإسلام يطلبون الثروة من السكنوز الدفينة فى هذه المقابر ، التى كانوا يسمونها « المطالب » ، وأن تروى عن ذلك قصص وأخبار . ونسمع بذلك لأول مرة فى عهد عبد العزيز بن مروان : فإن المسمودى^(٢) يحدثنا حديثاً عجيباً عن مطلب من هذه المطالب كشف فى عهد عبد العزيز؛ وأنه أمد الباحث عنه بالمال ، لما أخبره بما فيه من العجائب ، وكان منها ديك على عمود من الذهب ، وعيناه ياقوتتان تساويان الدنيا ؛ وأن الرجال حفروا حتى وجدوا رأس الديك . « فبرق عند ظهوره لمعان عظيم كالبرق الخاطف » . وركب عبد العزيز إلى ذلك الموضع « فنظر إلى ما ظهر من ذلك ، فأسرع بعضهم فوضع قدمه على درجة منسبكة من نحاس تنتهى إلى ما هنالك ، فلما استقرت قدمه على المرقاة الرابعة ظهر سيفان عظيمان عاديان عن يمين الدرجة وشمالها ، فالتفا على الرجل فلم يدرك حتى جزأه قطعاً وهوى جسمه سفلاً . فلما استقر جسمه على بعض الدرج ... صفر الديك تصفيراً عجيباً ... وحرك جناحيه ، فظهرت من تحته أصوات عجيبة قد عملت بالكواكب والحركات ، إذا ما وقع على بعض تلك الدرجات شئ أو ماسها تهافت ما هنالك من الرجال إلى أسفل تلك الحفيرة . وكان فيها ممن يحفر ويعمل وينقل التراب ، ويبصر ويتحرك ، ويأمر وينهى ، نحو ألف رجل ، فهلكوا جميعاً . فجزع عبد العزيز وقال : هذا ردم

(١) الخطط ج ١ ص ٣١ (٢) مروج الذهب ص ١٥٧ المطبعة الأزهرية

عجيب الأمر ، ممنوع الذئيل ، نعوذ بالله منه . وأمر جماعة من الناس فطرحوا ما أخرج من هناك من التراب على من هلك من الناس فكان ذلك الموضع قبر آلهم .

وفي عهد الطولونيين كانت منطقة الأهرام وعين شمس موطن البحث عن هذه المطالب أو الكنوز ، وعثر فيها على توابيت وموميات وتماثيل جميلة الصنع .
روى أن ابن طولون ركب يوماً إلى الأهرام^(١) فجاءه الحجاب بقوم عليهم ثياب صوف ، وفي أيديهم مساح ومعاول فسألهم عما يعملون ، فقالوا : نحن قوم نطلب المطالب ، فأمرهم ألا يفعلوا ذلك بعد الآن إلا بإذنه ، ويكون معهم رجل من قبله . ثم ذكروا له أن في سمت الأهرام مطلباً قد عجزوا عنه ، فأمدهم بالنفقات الكثيرة اللازمة لاستخراجه ، فكشفوا عن حوض كبير عظيم مملوء بالدنانير ، وعليه غطاء مكتوب عليه ، فأحضروا من قرأه .

وروى السيوطي في حسن المحاضرة^(٢) أن أحمد بن طولون لما ملك مصر حفر على أبواب الأهرام فوجدوا في الحفر قطعة مرجان مكتوباً عليها سطور باليوناني فأحضر من يعرف ذلك القلم فإذا هي أبيات شعر فترجت ومما كان فيها :

ستفتح أفعالي وتبدو عجائبي وفي ليلة في آخر الدهر تنجم

ثمان وتسع واثنتان وأربع وسبعون من بعد الثين فتسلم

ومن بعد هذا جزء تسعين برهة وتلقى البرابي صخرها وتهدم

تدبر فعالي في صخور قطعها ستبقى وأفى قبلها ثم تعدم

فجمع أحمد بن طولون الحكماء وأمرهم بحساب هذه المدة فلم يقدرُوا على تحقيق ذلك ، فيئس من فتحها .

وروى أنه في عهد ابن طولون ، وجد الكنز المشهور بعين

(١) سيرة ابن طولون للبلوي ص ١٩٤

(٢) ج ١ ص ٩ وهامش السيرة المذكورة ص ١٩٥

شمس ، وأتى له منه ببيت وعلى صدره لوح ذهب مكتوب بالقبطية ، فقرأ ، فإذا فيه : أنا أكبر الملوك ، وذهبي أخلص الذهب ؛ فحمل ذلك ابن طولون على تعديل نسبة الذهب في نقوده .

وكان في عين شمس صنم على مقدار الرجل المعتدل الخلق ، من كذا^(١) أن أبيض ، حسن الصورة ، يخيل لمن استعرضه أنه ينطق ، ووصف لابن طولون فأحب رؤيته ، فخوفه خادم نصراني ثقة أن يراه ، لأنه ما رآه وال قط إلا عزل ، لكن ابن طولون ركب إليه في سنة ٢٥٨ ، فتأمله ، ثم أحضر القطاعين وأمرهم أن يجثوه من الأرض حتى درس وعفا خياله ، وذرى ما بقي حياله في الصحراء . وعاش ابن طولون بعده اثنتي عشرة سنة .

وترى رغبة القوم في حب المعرفة وكثرة الأسئلة عن أشياء تتصل بالنيل والآثار مما رواه المسمودي^(٢) عن أحمد بن طولون أنه استدعى رجلاً قبطياً من الصعيد الأعلى عمره مائة وثلاثون سنة ، ليسأله عن أشياء من ذلك ، فجاءوا به سنة نيف وستين ومائتين . ووكّل به ابن طولون من يسأله ، فسأله عن بحيرة تنيس ودمياط فأخبر أخباراً عجيبية ، منها أن بحيرة تنيس « المنزلة » كانت جنات وبساتين ، وأن البحر بين العريش وبين جزيرة قبرص كان يبساً .

وسئل عن الأهرام فقال^(٣) : إنها قبور الملوك . ثم سئل كيف بنيت الأهرام المملسة فأخبرهم ، فقليل له : « ما بال هذه الكتابة التي على الأهرام والبرابي لا تقرأ . فقال : دثر الحكاء وأهل العصر الذين كان هذا قلمهم ، وتداول مصر الأمم فقلب على أهلها القلم الرومي ... على حسب ما ولدوه من الكتابة بين الرومي والقبطي الأول » .

(١) حجارة . سيرة ابن طولون للبلوي .

(٢) مروج الذهب ج ١ ص ١٤٩

(٣) ج ١ ص ١٥٠

وكان لهذا العالم القبطى مجالس كثيرة^(١) عند أحمد بن طولون .

وكان فى عصر الإخشيد تنقيب وبحث .

قال المسعودى : « إن جماعة من أهل الدفائن والمطالب ، ومن قد أغرى بحفر الحفائر وطلب الكنوز وذخائر الأمم المستودعة بطن الأرض ببلاد مصر ، وقع إليهم كتاب يبعث الأقدام السالفة ، فيه وصف موضع ببلاد مصر على أذرع يسيرة من بعض الأهرام بأن فيه مطلباً عجيباً ، فأخبروا الإخشيد محمد بن طعج بذلك ، فأذن لهم فى حفره وأباحهم استعمال الحيلة فى إخراج حفرها حفروا حفراً عظيماً إلى أن انتهوا إلى أزج وأقباء ، وحجارة مخوفة فى صخر منقور فيه تماثيل قائمة على أرجلها من أنواع الخشب ، قد طليت بالأطلية المانعة من سرعة البلى وتفرق الأجزاء ، والصور مختلفة : منها صورة شيوخ وشبان ونساء وأطفال ، أعينهم من أنواع الجواهر كالياقوت والزمرد والفيروزج والبرجد ، ومنها ما وجوها ذهب وفضة ، فكسروا بعض تلك التماثيل فوجدوا فى أجوافها رماً بالية ، وأجساماً فانية ، وإلى جانب كل تمثال منها نوع من الأبنية كالبرابى وغيرها من الآلات من المرمر والرخام . وفيه نوع من الطلاء الذى قد طلى منه ذلك الميت الموضوع فى تمثال الخشب ، وما بقى من الطلاء متروك فى ذلك الإناء ؛ والطلاء دواء مسحوق ، وأخلط معمولة لا رائحة لها ، فجعل منه على النار ففاح منه روائح طيبة مختلفة ، لا تعرف فى نوع من الأنواع التى للطيب » .

« وقد جعل كل تمثال من الخشب على صورة ما فيه من الناس على اختلاف أسنانهم ومقادير أعمارهم ، وتباين صورهم ، وبازاء كل تمثال من تلك التماثيل تمثال من الحجر المرمر أو من الرخام الأخضر على هيئة الصنم ، على حسب عبادتهم للتماثيل ، وكان ذلك فى سنة ٣٢٨ » .

ثم يقول المسعودى^(١) :

وقد كان لمن سلف وخلف من ولاية مصر إلى أحمد بن طولون وغيره إلى هذا الوقت — وهو سنة ٣٣٢ — أخبار عجيبة فيما استخرج في أيامهم من الدفائن والأموال والجوهر ، وما أصيب في هذه المطالب من القبور والخزائن .

وقد أدهشتهم هذه الآثار الظاهرة والمستورة ، وحاولوا معرفة شيء عنها ، وقراءة ما كتب عليها ؛ وفسروا ما وجدوه مكتوباً عليها أحياناً ، واستعصى عليهم قراءة المكتوب فلم يترجموه أحياناً أخرى ، وكان تفسيرهم لهذه الآثار عجيباً ، بل قرروا أن ذا النون المصرى الإخميمى ، الزاهد ، كان ممن يقرأ عن هذه البرابي ، وأنه قال : رأيت في بعض البرابي كتاباً تدبرته . فإذا هو : « احذر العبيد المعتقين ، والأحداث المقربين ، والجند المتعبدین ، والنبط المستعربين » . قال : ورأيت في بعضها كتاباً فتدبرته فإذا فيه : « يقدر المقدر والقضاء يضحك » وزعم أنه رأى في آخره كتابة وتبينها في ذلك القلم الأول فوجدها : ^(٢)

تدبر بالنجوم ولست تدري ورب النجم يفعل ما يريد

وحين أورد المسعودى الحديث عن الأهرام وما عليها من الكتابة قال إن منها مكتوباً هو : « إنا بنيناها فمن يدعى موازتنا في الملك ، وبلوغنا في القدرة ، وانتهاءنا من السلطان فليهدمها ، وليزل رسمها ؛ فإن الهدم أيسر من البناء ، والتفريق أيسر من التأليف » .

ونرى من هذه التراجم شعراً ونثراً لما كان على الأهرام أو غيرها من الآثار أن أكثرها من وحي الخيال ولسان الحال .

(١) ج ١ ص ١٥٨ .

(٢) مروج الذهب ج ١ ص ١٥٥ طبعة ١٣٠٢ هـ .

وعنيت كتب التاريخ بهذه الآثار والمعائب كما عنيت بها كتب الخطط ،
ووصفها المؤرخون ، وأبدعوا في وصفها ، ورووا كثيراً من قصصها وحكاياتها ،
ونستطيع أن نعدّها من الأدب التاريخي أو من القصص المبنية على التاريخ ،
أو نعدّها من أدب الوصف . ولكنها لم تكتب لتكون أدبا ، ومن هنا أهملها
مؤرخو الأدب . وتركوها للتاريخ ، وكانت موضع تحقيق .

ولكن ما السر في عدم تعلق الأدب المحض بها ؟ وأنه لم تنسج حولها القصص
الأدبية ؟ وما السبب في عدم وقوف شعراء العرب عليها كما وقفوا بآكين على الأطلال
والدمى ؟ وما الذي صرفهم عن الاعتبار بها ، والاتعاظ بمن أنشئوها ثم تركوها ،
وصاروا مثلاً للآخرين ؟ .

وما عذر الطولونيين ومن بعدهم في إهمال أدب الآثار القديمة ؟ لقد رأوا ما ظهر
منها ، وكشفوا كثيراً مما بطن وكان عندهم المثال الذين يسرون على طريقتة ؟ وهو
سينية البحترى في إيوان كسرى ، وكانت قوية ومشهورة جداً ، لجودتها
ولغرابتها موضوعاً وقافية . وكان عندهم من قبل البحترى أبيات كريب بن مجلد ،
في وصف صنم في حمام زبان على شكل امرأة ، يبدو من وصفه أنه من آثار اليونان
أو الرومان ، ومن هذه الأبيات ^(١) :

من كان في نفسه للبيض منزلة	فليأت أبيضاً في حمام زبان
عَبْلٌ لطيف هضم الكشح معتدل	على ترائب في الصدر ثديان
لا روح فيه ، ولا شفر يقبله	لكنه صنم في خلق إنسان

والجواب على ذلك أن هذا الأدب العربي المحض كان أسير التقليد فلم يتجه إلى
وصف الآثار القديمة مع كثرة ما رأى العرب منها في مصر والعراق والشام

(١) فتوح مصر لابن عبد الحكم ص ١١٤ — ١٥٨ من هذا الكتاب .

والأندلس ، ولم يشغل الأدباء أنفسهم بوصفها أو الاتعاظ بها ، ولم يتركوا شيئاً من الأدب حولها إلا نادراً .

ثم إن وقوف العرب على الأطلال والدمن كان وقوفاً كثيره ذكريات الأحباب وماضى الشباب ، وبلى الأطلال ، وارتحال أهل الديار .

أما هنا فالآثار ألباز وطلاسم لا يفهمون أسرارها ، ولا تثور عواطفهم عند رؤيتها ، ولا يتصل تاريخهم بها .

حقاً إنهم وقفوا على بعض الآثار التي شهدوا عزها وذلها ، ورأوا عظمتها وفعل الأيام بها . وظهر لنا من ذلك رثاء ابن شافع للدار المذهبة التي كانت لآل عبد العزيز ابن مروان^(١) .

ومنه ما رأيناه من الشعر الذي قيل في أعقاب الطولونيين في الشماتة بهم ، واستقبال من أبادوهم ؛ أو في البكاء لما أصابهم ورثاء دورهم وقصورهم ، والأسى على أيامهم ، والاعتبار بمصيرهم ، وقد يصحب ذلك وصف مجمل أو مفصل لهذه الآثار ، أو لأيام المجد والعظمة ، فيثير البكاء ويدعو إلى الاعتبار .

ومنه رثاء عمارة اليمنى لدولة الفاطميين ، وما كان من شعراء الأندلس في رثاء دولهم التي كانت تهاوى واحدة بعد أخرى .

ولكن وقوفهم على تلك القصور والدور ؛ ورثاءهم لتلك الممالك والدول ، كان أشبه بالوقوف على الأطلال والدمن ، أثارته مشاهدة تقلبات الدهر ، ورؤية الآثار في حالى اليسر والعسر ، فكان ما أصابها على مرأى ومسمع منهم داعياً إلى بكائها ، والاعتبار بها . أما الآثار القديمة فيثير الحديث عنها إكبارها ، والإعجاب بفنها ، والدهشة لما تحويه من سحر وعبقريّة وشبه ذلك .

وقد ظل الأدب العربى مقصراً فى هذه الوقفات على الآثار الخالدة ، حتى جاء شوقى فوقف على آثار الفراغة وآثار العرب يصفها ويرثيها ، ويتحدث عن عظمتها الماضية ، وعبرها الباقية ، فأبدع إبداعاً عظيماً .

الفهرس

المقدمة :

الفصل الأول : الفتح الإسلامى لمصر : ١ - ١٩

معرفة العرب بها ، مسير عمرو إليها (٤) عوامل انتشار اللغة العربية بها :
الإسلام (٥) هجرة القبائل (٨) كثرة العرب بمصر (١٣) أثر الهجرات في
اللغة (١٦)

الفصل الثانى : الخطب والوصايا : ٢٠ - ٥٣

(١) الخطابة : حاجة الفاتحين إليها (١٩) خطبة لعمرو (٢٠) فى الصلح بين
عمرو والمقوقس (٢٤) خطب عتبة (٢٩) الخطابة بعده (٣٥) الخطابة العباسية (٤٠)
من الطولونيين إلى الفاطميين (٤٣)

(ب) الوصايا : الفرق بينها وبين الخطابة (٤٦) وصية قيس بن سعد (٤٧)
وصايا مروان بن الحكم (٤٨) وصايا ابن طولون (٥١)

الفصل الثالث : القصص : ٥٤ - ٧٥

متى ظهر فى الإسلام (٥٤) وفى مصر (٥٥) صورته (٥٦) أول قصة . عمرو
والكرة (٥٨) عمل المؤرخ والأديب (٦٠) قصص أخرى (٦٣) كتاب
المكافأة (٦٦)

الفصل الرابع : كتابة الرسائل : من عمرو إلى ابن طولون ٧٦ - ١٠٢

(١) فى زمن الراشدين (٧٧) بين عمرو والخليفة . رسالة عمرو فى وصف
مصر (٧٩) رسائل أخرى

(ب) فى عهد بنى أمية (٩٠) نقل الديوان إلى العربية (٩٢)

(ح) في عهد العباسيين : الليث بن سعد (٩٧) رسالة المعتصم (٩٩)

الفصل الخامس : الرسائل من ابن طولون إلى الفاطميين ١٠٣ — ١٢٧

ديوان الإنشاء (١٠٣) فضل ابن طولون على الكتابة (١٠٥) قصته مع ابن عمار ورأيه في الكتاب (١٠٧) موقفه من الأدب (١١١) بينه وبين ابنه (١١٦) الكتابة في مصر والعراق (١١٩) صفات الكتابة (١٢٠) ابن عبد كان (١١٩) ابن نصير (١٢٢) رسالة الإخشيد إلى أرمانوس (١٢٤) الفجيري (١٢٦)

الفصل السادس : الشعر إلى آخر بني أمية : ١٢٨ — ١٦١

(١) إلى عبد العزيز بن مروان (١٢٨)

(ب) في عهد عبد العزيز (١٣٥) شعراؤه (١٣٥ — ١٥٢)

(ح) من عبد العزيز إلى العباسيين (١٥٥)

الفصل السابع : شعر العصر العباسي : ١ — ١٦٢ — ١٨٢

الشعر التاريخي ، صدى النزاع بين الأمين والمأمون (١٦٦) في ثورة ابن الجروي والسري بن الحكم (١٦٨)

الفصل الثامن : شعر العصر العباسي : ٢ — ١٨٣ — ٢٠٦

الشعر القضائي : القاضي المفضل (١٨٥) القاضي العمري (١٨٧) قضية الحرس (١٨٩) قضية السباق (١٩٣) القاضي البكري (١٩٥) الشعر في الخلافات المذهبية (٢٠١) ابن القطاس (٢٠٣) ابن الليث والمأم (٢٠٤) صورة الجماعة في الشعر (٢٠٦)

الفصل التاسع : الشعراء في عهد العباسيين : ٢٠٧ — ٢٢٩

(١) شعراء مصر : ابن غفير (٢٠٧) المعلي الطائي (٢٠٨) رثاء جارية (٢١٠) في محبة الأولاد (٢١١) الجمل وشعره (٢١٢)

(ب) الشعراء الزائرون ، من مدحوا يزيد الملهبي (٢١٤) أبو نواس (٢١٧)
أبو تمام (٢٢٢) دعبل (٢٢٥) كلمة عن الشعر والشعراء (٢٢٨)

الفصل العاشر : شعر الطوليين : ٢٣٠ — ٢٥٧

١ — في عهد دولتهم : مدح وهجاء ونثر ورثاء . شعر ابن جدار في
مغنية وفي ثقلاء (٢٣٩)

٢ — الشعر في أعقاب الطوليين : في التشفي والشماتة (٢٤٣) عظمة ملكهم
(٢٤٥) رثاء دولتهم والاعتبار بهم (٢٤٨) في حرب المغرب (٢٥٦)

الفصل الحادى عشر : الشعر في عهد الإخشيديين ٢٥٨

بعض الشعر (٢٥٩) رثاء الإخشيديين (٢٦١) شعر في وصف الأديرة وما يتصل
بها (٢٦٤) دعوة إلى مجلس أنس (٢٦٨) شعر في الربيع (٢٦٩) شعر قضائى
هجائى (٢٧١) المتنبي في مصر (٢٧٢) حرص كافور عليه ، مدحه وهجاؤه له (٢٧٣)
خصائص المدح والهجاء (٢٧٦) حساده بمصر (٢٧٨) وصف مصر ، ووصف
الحمل (٢٨٠) صلته بأبى شجاع (٢٨٢) .

الفصل الثانى عشر : المؤثرات في هذا الأدب ٢٨٤ — ٢٩٥

البيئة (٢٨٤) الثقافة (٢٨٥) النقد (٢٨٦) التيار الأدبى العام (٢٨٧) التاريخ
الحديث والقديم (٢٨٨) الآثار وصلتها بالأدب من عبد العزيز إلى الإخشيديين (٢٨٩)

صواب الخطأ

وقعت أخطاء لم يمكن تجنبها . وهذا صواب أهمها :

الصفحة	السطر	الصواب
١٤	٥	اثني عشر
١٧	٥	استعانها
١٨	٥	وهؤلاء
٤٣	٦	٢٦٩
٤٣	١٧	أمر الإخشيديين
٦٠	١٢	تأثله
٦٣	٢	عمرا والشماس
١٧٢	٧	ما زلت
١٧٧	١	وقال أبو تمام
٢١٤	٢١	يزيد بن أسيد
٢١٥	١٦	بمصيصيه
٢٢٥	١٥	٤ — دعبل
٢٣٥	هامش	الوليد وكنيته أبو عبادة

[تم طبع كتاب « الأدب العربي في مصر » في
مطبعة لجنة البيان العربي بالقاهرة ، في يوم الثلاثاء أغرة
رمضان سنة ١٣٧٠ (الموافق ٥ من يونيه سنة ١٩٥١) .
والحمد لله أولاً وآخراً] .

سيد محفوظ

المدير الفني للمطبعة

DATE DUE



B.

89. 709:H21adA-e

حميدة، عبد الرزاق

الادب العربي في مصر من الفتح الاسلامي

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01033408



AMERICAN
UNIVERSITY OF BEIRUT

